المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب

قام الطالب بإجراء التعديلات التي طلبت منه

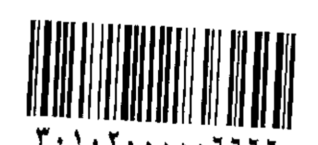
لجنة المناقشة

١- أ. د. عبدالعظيم المطعني ... مشرفا ( )
٢- أ. د. إبراهيم الخاردلــو ... مناقشاً ( )
٣- أ. د. نزيه عبدالحميد فراج ... مناقشا ( )

أساليب السخرية

في البلاغة العربية

دراسة تحليلية تطبيقية



رسالة علمية في البلاغة والنقد مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب

شعيب بن أحمد بن محمد عبدالرحمن الغزالي

إشراف

أ . د . عبدالعظيم إبراهيم المطعني

١٤١٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

تناول هذا البحث (أساليب السخرية في البلاغة العربية) بالدراسة والتحليل ولقد تتبع ماشاع من هذه الأساليب في كتب البلاغة والنقد ، وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يسلك الباحث المنهجين الوصفي والتحليلي ، وأن يكون البحث في ثلاثة فصول وخاتمة ، وسبق ذلك مقدمة وتمهيد ، وضع الباحث في التمهيد بعض الأمور العامة ، كالأسباب التي دعته لاختيار الموضوع ، وصلة الموضوع بالبلاغة العربية وبآداب العرب شعرهم ونثرهم ، وأهم المراجع التي استفاد منها البحث ، وقد كان التمهيد يشتمل على عنوانين : الأول يتحدث عن (السخرية بين المدلول اللغوي والاستعمال الفني) أما الثاني فيتتبع (المصطلح والظاهرة في كتب الأقدمين) وكان أول فصول البحث يتناول (السخرية في علم المعاني) تحته ثمانية مباحث : الأول يتناول (السخرية في استعمال الكلمات غير الفصيحة) أما الثاني (فالتعريف الساخر) والثالث (السخرية في وضع المظهر موضع الضمير) والرابع (الاستفهام الساخر) والخامس (الأمر الساخر) والسادس (النهي الساخر) والسابع (النداء الساخر) والثامن (التكرار الساخر) .

أما الفصل الثاني فيتناول (السخرية في علم البيان) وتحته ثلاثة مباحث : أولها (التشبيه الساخر) الثاني (الاستعارة الساخرة) الثالث (الكناية الساخرة) .

أما الفصل الثالث فيتناول (السخرية في علم البديع) وتحته ثمانية مباحث: الأول (الاستطراد الساخر) الثاني (المبالغة الساخرة) الثالث (السخرية والهجاء في معرض المدح) الرابع (الإبهام الساخر) الخامس (السخرية في الهزل الذي يراد به الجد) السادس (التجاهل الساخر) السابع (التهكم) الثامن (الاقتباس والتضمين الساخر) .

وقد كان الباحث يقدم لكل مبحث بإيجاز ويعرف بالأسلوب ثم يذكر مكانته بين أساليب البلاغة ، وصلته بالسخرية ، ولما كان البحث ذا شقين : دراسة وتحليل ، فقد كانت الأمثلة النثرية والشعرية المختلفة وتحليلاتها جزءاً مهماً في البحث .

ومن أهم النتائج التي خرج بها البحث : أن سخرية القرآن الكريم سخرية خاصة ، وأنها تحتاج إلى كثير من الدراسات والبحوث ، ثم إن السخرية فن متنوع الأساليب شائع في أدبنا العربي شعره ونثره ، ثم إنها ظاهرة أسلوبية مبثوثة في كثير من أبواب البلاغة وأساليبها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عميد الكلية	المشرف	الطالب
أ . د . حسن محمد باجودة	أ . د . عبدالعظيم المطعني	شعيب بن أحمد الغزالي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

نحمدك اللهمَّ في الأولى والآخرة ، ونعوذُ بك من فتنة القول ، كما نعوذُ بكَ من فتنة العمل ، ونعوذُ بكَ من التكلُّف لما لا نُحسنُ ، كما نَعوذُ بكَ من العُجْب بما نُحسنُ ، ونعوذُ بكَ من السَّلاطة والهذر ، كما نعوذُ بكَ من العيّ والحَصَر ، ونُصلي ونُسلمُ على عبدكَ ونبيكَ سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، وبعد :

فلقد شاعت السخرية في أدبنا العربي : شعره ونثره ، في القديم والحديث . ولقد كنت حينما أقرأ القرآن الكريم أقف ملياً أمام كثير من أساليبه الباهرة ، أتأمل عظمته وأتدبر آياته . وكانت السخرية من تلك الأساليب القرآنية التي ارتهنت فكري وقلبي أوقاتاً طويلة بما فيها من إعجاز وبيان . ومن قراءتي في كتب البلاغة تبين لي أن البلاغيين وقفوا عند كثير من الأساليب مشيرين إلى أن من أغراضها : السخرية والتهكم والاستخفاف والتحقير والإهانة وما إلى ذلك مما يدل على الذم والانتقاص .

وجدتهم أشاروا إلى ذلك في أبواب علم المعاني في مباحث : الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والقصر ، والاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والنداء ، والإيجاز والإطناب والتكرير .

كما أشاروا إلى ذلك في أبواب علم البيان من : تشبيه ، ومجاز ، واستعارة ، وكناية وتعريض .

وأشاروا إلى ذلك أيضاً في كثير من فنون البديع ، ومنها : التورية ، والاستطراد ، والمبالغة ، والهجاء في معرض المدح ، والإبهام ، والهزل الذي يراد به الجد ، وتجاهل العارف ، والتهكم ، والاقتباس والتضمين .

وعلى الرغم من ورود هذا الغرض في كثير من أبواب البلاغة إلا أن جلَّ ماذكره البلاغيون فيه لايعدو أن يكون إشارات موجزة متفرقة تنير السبيل ولا تشفي الغليل ، خالية من التعليل والتحليل .

وكان من بين الأسباب التي دعتني لدراسة هذا الموضوع أنني لم أجد من الباحثين المحدثين من تناول هذا الموضوع بالبحث والدراسة من الناحية البلاغية على الرغم من أهميته ، وطرافته ، وشيوعه ، وتنوع أساليبه ، وكثرة شعرائه وكتابه وأمثلته في أدبنا العربي ، فتولد لديَّ إحساس عميق أن هذا الأسلوب الجميل الذي يُعد من أساليب البيان العظيمة ، يستحق كثيراً من التأمل والدرس ، ويحتاج إلى من يميط اللثام عنه ، ويشير إليه ، ويجمع أشتاته في بحث علمي . يدرس أساليب السخر في البلاغة العربية ؛ لأنه - فيما أعلم - لم يتصد أحد لطرق هذا الموضوع في هذا الجانب ، فجلُّ الدراسات السابقة تناولت السخرية من الجانب النفسي أو الفلسفي أو تحدث عنها كظاهرة أدبية انتشرت في عصر من العصور ، أو أسلوب تميز به كاتب أو شاعر معين ، ولم يتناول أيٌّ من هذه الدراسات السخرية بكل جوانبها وعناصرها وأساليبها ، مما يجعل صورتها تبدو ناقصة غير مكتملة .

ومن ثم عقدت العزم على دراسة هذا الموضوع دراسة بلاغية ترصده في شتى كتب البلاغة ، وتتتبع مسيرته ، وتفصل جوانبه ، وتعدد أساليبه ، وتعلل مسائله ، وتحشد شواهده ، وتحلل أمثلته .

ومن الأسباب التي دعتني لدراسة هذا الموضوع شيوع أساليبه في القرآن الكريم ، فالقرآن نزل بلغة العرب ، وفي لغتهم من الأساليب الساخرة مالا يخفى على من له أدنى علم بالبيان ، ولا ينفي وجود أساليب السخرية في القرآن قولُه عز

وجل : ﴿**إنه لقول فصل وماهو بالهزل**﴾(١) ؛ لأن السخرية القرآنية ليست هزلاً من أجل الهزل ، بل هي سخرية تتناسب مع جلال القرآن وعظمته ، وقد أخبر الله عز وجل عن نفسه أنه سبحانه يسخر ويستهزئ ، ونحن لانملك أن ننفي ماأثبته الله لنفسه جل وعلا ولكننا نقول إنه سخر وهزء يليق به سبحانه لايشبه سخر المخلوقين واستهزاءهم .

والسخرية ليست باباً من أبواب البلاغة فقط ، أو نوعاً من أنواعها يندرج تحت قسم من أقسامها فحسب ، بل هي أسلوب في فن القول يصطبغ به النص الأدبي ، وغرض من أغراض البلاغة يكون في كثير من أبوابها ، ويكون في الشعر كما يكون في النثر ، وإن كانت أمثلته في الشعر أكثر وأظهر حتى أن بعض النقاد القدامى يرى أنه خاص بالشعر ، وقد حاول البحث تنويع الأمثلة بين شعر ونثر .

والسخرية لون من ألوان الهجاء ، وقد أجمع النقاد على أن الهجاء أحد أغراض الشعر وأحد الفنون الأدبية مع أن موضوعه قد يكون ذا جوانب تتنافى مع النظرة الأخلاقية للأدب والفن عموماً ، وماذاك إلا لأن الهجاء أحد وسائل التعبير الجميل حتى وإن كان ذا موضوع قبيح ، فإن هذا التعبير كثيراً مايثير انفعالنا بل وإعجابنا في أحايين كثيرة .

والأدب صورة للحياة بحلوها ومرها ، بما فيها من جمال وقبح ، ورضى وغضب . والمبدع سواء كان مادحاً أم ساخراً إنما يصدر في كل أحواله عن تلك المشاعر والأحاسيس التي تعتمل في داخله ، فيمدح إذا رضي ويسخر ويهجو إذا غضب .

---

(١) الآيتان (١٣ ، ١٤) من سورة الطارق .

ولانريد أن نتعجل فنصدر حكماً تعميمياً على أدب السخرية ، لأن السخرية إذا صدرت عن عاطفة صادقة في قالب جميل فلا مجال لأحد بأن يخرجها من دائرة الأدب ، أو يعدها عملاً رديئاً أو سيئاً أو غير مقبول ، خصوصاً إذا كان المسخور منه يتصف حقيقة بما وصف به . وماعلينا إذا عُيِّر الجبان بجبنه والبخيل ببخله ، أو سخر من بعض أصحاب الأخلاق الذميمة أو العادات السيئة لينفر منها . فلا يمكن إذاً أن نقف موقفاً سلبياً من السخر لمجرد إحساسنا بقبح موضوعه ، فإننا كثيراً مانقف معجبين أمام العديد من النصوص الساخرة ، وإن الفيصل في الحكم على النصوص الأدبية يكمن في مدى قدرة الأديب أو الفنان على التعبير عن عواطفه بصدق وجمال ، وقدرته في انتزاع إعجاب جمهوره ، وإثارة مشاعرهم ، بغضِّ النظر عن الموضوع الذي يعالجه مادام أنه يصدر عن تجربة شعورية صادقة ، ومادام أنه يستطيع إثارة الإعجاب وامتلاك المشاعر .

والهجَّاء أو الساخر رسام ماهر يثير إعجابنا بتلك الصور التي يرسمها لمهجويه ، صحيح أنه يصور القبح والنقائص ، ويصدر عن عاطفتي الغضب والبغض في بعض الأحيان ، ولكننا ينبغي ألا نجمد عند هذا الأمر فلا نصرف أنظارنا عنه ، بل يجب أن نلتفت إلى تلك المقدرة الفنية التي استطاع بها هذا الساخر أن يعبر عما في نفسه من مشاعر .

ونحن نطرب عند سماعنا قصيدة مدح مثلاً ، ونستعذب الغزل ، ونعجب بقصائد الفخر . والهجاء لايختلف عن الأغراض السابقة ، والحكم من الوجهة الأدبية يعود إلى المقدرة على التعبير الجميل المؤثر .

وهنا قضية أخلاقية وشرعية ينبغي أن توضح ، وهي أننا لانريد أن نستطرد في هذا الحديث حتى يظن أن الأمر فيه ليس له زمام أو ضابط ، بل إن هناك موقفاً شرعياً وأخلاقياً يتحتَّم علينا بيانه .

وحقيقة موقف الشرع من الهجاء والسخر أبانه الشارع في نصوص قرآنية عديدة وفي كثير من أحاديث السنة المطهرة . من ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **يـأيها الذين ءامنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولاتلمزوا أنفسكم ولاتنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمـن ومن لم يتب فأولئك هم الظـلمون** ﴾ (١) في الآية الكريمة نهي صريح عن السخرية ، مع ملاحظة أن الخطاب موجه للمؤمنين . ويقول النبي ﷺ في سياق التحذير والنهي عن الهجاء (**سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر**) (٢) ويقول (**من قال في الإسلام شعراً مقذعاً فلسانه هدْر**) (٣) .

وينبغي أن نلاحظ أن هذه النصوص وغيرها إنما تنهى وتحذر من هجاء المؤمنين والسخرية بهم ، وأما غيرهم من أعداء الإسلام فقد قال النبي ﷺ لحسان رضي الله عنه (**أهج المشركين فإن روح القدس معك**) (٤) فدل هذا على جواز هجائهم والسخرية بهم .

ومع التزامنا التام لهذه النظرة الشرعية إلا أنه ينبغي ألا ننسى أن الهجاء والسخر أمر فطري مركب في جبلة الإنسان ؛ لأنه يصدر عن عاطفة الغضب لدى البشر ، فالإنسان إذا رضي مدح ، وإذا غضب هجا . وقد رضي الله عز وجل على عبد من عبيده فمدحه فقال ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ (٥) وغضب على آخر فقال ﴿ **منّاعٍ للخير معتدٍ أثيم** ﴾ (٦) ولله المثل الأعلى .

---

(١) الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٤٣٩ .

(٣) النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير ٤/ ٢٩ .

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٩٨ .

(٥) الآية (٣٠) من سورة ص .

(٦) الآية (١٢) من سورة القلم .

ولقد اقتضت طبيعة البحث في أساليب السخرية في البلاغة العربية أن أسلك المنهج الوصفي والتحليلي في هذه الدراسة ، حيث قمت باستقراءٍ وجمعٍ لأساليب السخرية في البلاغة العربية ، وكنت أفرد كل أسلوب بمبحث مستقل ، أُقدم له ثم أتناوله بالوصف والتحليل .

وقد حتَّم عليَّ استقراءُ وجمعُ هذه الأساليب الرجوعَ إلى معظم كتب البلاغة والنقد القديمة ، فكانت هذه الكتب المرجع الأول الذي أمدني بمادة هذا البحث .

أما فيما يتعلق بالدراسات السابقة المتعلقة بموضوع السخرية ، فلم تكن هناك أي دراسة - فيما أعلم - تناولت أساليب السخرية من الناحية البلاغية ، إلا إشارات متفرقة في بعض الكتب لايمكن أن نعدها دراسة للموضوع من الوجهة البلاغية .

وقد كانت هناك بعض الدراسات الجادَّة فيما يتعلق بموضوع الهجاء والسخرية استفاد منها البحث فوائد جمّة وبالخصوص : كتابي الدكتور محمد محمد حسين الهجاء والهجاءون في العصر الجاهلي ، وفي صدر الإسلام ، واتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري لقحطان التميمي ، وأسلوب السخرية في القرآن الكريم للدكتور عبدالحليم حفني ، والسخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتور نعمان طه .

وكانت هناك بعض الدراسات التي تناولت السخرية في شخصية بعض الأعلام الساخرين ، كان أكثرها نفعاً للبحث : كتاب ابن الرومي حياته من شعره للعقاد ، وابن الرومي فنّهُ ونفسيته من خلال شعره لإيليا حاوي ، والاتجاه الساخر

في أدب الشدياق للدكتور شوقي العاملي ، والسخرية في أدب المازني للدكتور حامد الهوال .

ولما كان البحث ذا شقين : دراسة وتحليل ، فقد كان للدواوين الشعرية أهمية بالغة ، حيث كانت المعين الأول الذي أمدَّ البحث بالأمثلة الساخرة ، وكان أبرز هذه الدواوين : ديوان جرير بن عطية ، وديوان أبوتمام ، وديوان ابن الرومي ، وشعر دعبل الخزاعي ، ومجموع المفضليات .

ولقد اعتمدتُ في تفسير الأمثلة القرآنية الساخرة وتحليلها على عدة تفاسير عُرفت باهتمامها وعنايتها بالجانب البلاغي والأدبي في تفسير القرآن الكريم ، وكان أكثر انتفاعي : بتفسير الكشاف للزمخشري ، وتفسير أبوالسعود ، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ، وتفسير البحر المحيط لأبوحيان .

وهناك دراسات حديثة ومراجع متنوعة ذات صلة بموضوع البحث ، كان لها فضل في إنارة السبيل للباحث ، وإن كانت في معظمها دراسات أدبية أو بلاغية عامة يندر أن تتناول السخرية كأسلوب بلاغي مستقل ، وكان من أبرز هذه الدراسات : كتاب خصائص التراكيب ، ودلالات التراكيب ، والتصوير البياني وجميعها للدكتور محمد أبو موسى ، والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم للدكتور صباح دراز ، وفن الاستعارة للدكتور أحمد الصاوي ، والمعاني الثانية في الأسلوب القرآني للدكتور فتحي عامر ، وحصاد الهشيم للمازني ، والفكاهة عند العرب للدكتور أنيس فريحة .

أما المعاجم فقد كان أكثر استفادتي : بأساس البلاغة للزمخشري ، والمفردات للراغب الأصفهاني ، ولسان العرب لابن منظور ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور أحمد مطلوب .

هذه أهم مراجع البحث ، مع ملاحظة أنني قد استخدمت مصطلح (المرجع) بمعناه اللغوي . فلم أُفرِّق بينه وبين مصطلح (المصدر) ثم إنني كنت أكتب في الهامش إذا تكررت الإحالة إلى مرجع واحد عبارة (المرجع السابق) وأكتفي بذلك إذا كانت الإحالة لنفس المكان ، وأدون بيانات المكان الجديد إذا تغير مكان الإحالة .

وربما نقلت في بعض المواضع نصاً طويلا وذلك لأهميته ووضوحه ، ولاعتقادي أنه يفي بالغرض الذي نقل من أجله ، وقد حدث هذا في مواضع معدودة .

ولقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يكون البحث في ثلاثة فصول وخاتمة هي عبارة عن ملخص للبحث وذكرٍ لأهم نتائجه ، وسبق ذلك مقدمة وتمهيد .

ويتألف التمهيد من عنوانين ، أولهما يتناول (السخرية بين المدلول اللغوي والاستعمال الفني) أما العنوان الثاني فهو عبارة عن نظرة تاريخية للسخرية في كتب البلاغة والنقد القديمة ، وكان بعنوان (المصطلح والظاهرة في التراث البلاغي) وتلا ذلك الفصل الأول وهو بعنوان (السخرية في أساليب علم المعاني) وتحته ثمانية مباحث هي بالترتيب : السخرية باستعمال الكلمات غير الفصيحة ، فالتعريف الساخر ، فالسخرية في وضع المظهر موضع المضمر ، فالاستفهام الساخر ، فالأمر الساخر ، فالنهي الساخر ، فالنداء الساخر ، وآخر المباحث في هذا الفصل التكرار الساخر .

تلا ذلك الفصل الثاني وهو بعنوان (السخرية في أساليب علم البيان) وتحته ثلاثة مباحث هي بالترتيب : التشبيه الساخر ، فالاستعارة الساخرة ، فالكناية الساخرة .

ثم آخر فصول البحث وهو بعنوان (السخرية في أساليب علم البديع) وتحته ثمانية مباحث هي بالترتيب : الاستطراد الساخر ، فالمبالغة الساخرة ، فالسخرية والهجاء في معرض المدح ، فالإبهام الساخر ، فالسخرية في الهزل الذي يراد به الجد ، فالتجاهل الساخر ، فالتهكم ، فالاقتباس والتضمين الساخر .

بهذا تكون قد انتهت فصول البحث ومباحثه ، وينبغي أن أنبه قبل الختام أنني لا أدَّعي أن هذه الأساليب الساخرة التي تناولتها بالدراسة والتحليل هي كل الأساليب الساخرة في البلاغة العربية ، فربما تبين لغيري شيء لم يبلغه إدراكي أو قصر عنه نظري ، ففي الدنيا من السخر بقدر مافيها من الساخرين ، وإنما جمعت الأساليب التي شاع استخدام السخرية منها ، وحاولت جهدي أن أدرس هذه الأساليب دراسة بلاغية وأدبية معتدله ، ولم أر من اللازم أن أشايع أحداً أو أخالف إلا بقدر مايتطلبه البحث وتمليه طبيعة الأشياء .

وختاماً هذا مامكَّني فيه ربي ، وأعانني عليه أساتذتي ، وبلغ جهدي وطاقتي ، فما كان من صواب فمن الله ثم من توجيهات أساتذتي الفضلاء ، وماكان من خطأ أو تقصير فمن نفسي ، والله ورسوله والأساتذة منه براء .

الباحـــــث

شكر وتقدير

﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ .

الشكر لله أولاً ثم لوالدي الكريمين ، امتثالاً لأمر الله ﴿ أن اشكر لي ولوالديكَ إليّ المصير ﴾ ثم لأساتذتي الأفاضل ، امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه) يسعدني أن أتقدم بالشكر الوافر لأستاذي الكبير سعادة الدكتور عبدالعظيم المطعني المشرف على هذا البحث ، والذي كان نعم العون لي ، يفيض عليّ من علمه ، ويجود بوقته وجهده ، ويغمرني بتواضعه ونبل أخلاقه ، فجزاه الله عني وعن طلبة العلم خير الجزاء .

كما أشكر أستاذي الفاضل الذي أشرف على هذا البحث في بدايته سعادة الدكتور الشحات أبوستيت ، الذي لاينكر فضله عليّ وعلى البحث ، فله مني خالص الشكر ومن الله جزيل الثواب .

كما أشكر أستاذيّ الكريمين عضويّ المناقشة سعادة الأستاذ الدكتور إبراهيم الحاردلو ، وسعادة الأستاذ الدكتور نزيه عبدالحميد ، على تفضلهما بقبول مناقشة هذا البحث ، وعلى مايبذلانه من جهد لتقويمه وتوجيه صاحبه ، وأسأل الله العلي القدير أن ينفعني بعلمهما .

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ممثلة في أساتذتها الأفاضل، وعميدها الموقر سعادة الأستاذ الدكتور حسن باجودة ورئيس قسم دراساتها العليا المحبوب سعادة الأستاذ الدكتور سليمان العايد فجزى الله الجميع عني ماصنعوا خير الجزاء .

التمهيـــــد

ويشمل

- السخرية بين المدلول اللغوي والاستعمال الفني .
- المصطلـــح والظاهـــرة في التراث البلاغـــي .

(١)

السخرية
بين المدلول اللغوي والاستعمال الفني

للموضوع الذي نتناوله بالبحث عدة ألفاظ في العربية ، فالسخرية ، والتهكم ، والاستهزاء ، والاستخفاف ، والتندير ، والضحك ، والإهانة ، والاحتقار ، كلها ألفاظ تدور حول معنى معين ، لكن دلالتها على هذا المعنى ليست بدرجة واحدة ، فالألفاظ الأربعة الأولى تفسر في المعاجم بمعنى واحد هو مانسميه (السخرية) أما بقية الألفاظ (فالتندير ، والضحك) قد تستعمل بمعنى السخرية وغيرها ، أما (الإهانة والاحتقار) فقد اكتسبا دلالتهما على السخرية من الاستعمال الغالب الذي شاع في كتب الأدب والنقد والبلاغة وغيرها .

وقبل أن نخوض في الحديث عن هذا الأسلوب يحسن بنا أن نفتش قليلاً في معاجم اللغة حتى نتبين مدى استعمال هذه الألفاظ وأبعادها ودلالاتها اللغوية والفروق بينها إن وجدت .

وأول هذه الألفاظ كلمة (السخرية) السين ، والخاء ، والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال(١) وسخر منه وبه ، قال الأخفش : سخرت منه وسخرت به ، وضحكت منه وضحكت به ، وهزئت منه وهزئت به ، كلٌّ يقال .

والاسم السُّخْرِيَّةُ والسُّخْرِيُّ والسِّخْرِيُّ ، والسُّخْرَةَ : الضُّحْكَة(٢)

---

(١) معجم مقاييس اللغة (سخر) .

(٢) لسان العرب (سخر) .

(٢)

ويقال : فلان سُخْرة سُخَرَة : يضحك منه الناس ويضحك منهم(١) إذاً فالسخرية احتقار واستذلال ، وضحك .

وقد استعمل القرآن الكريم هذه المادة (سخر) بهذا المعنى ست عشر مرة(٢) وشاع استعمال الشعراء له بهذا المعنى منذ القدم ، يقول عبيد بن الأبرص(٣) :

وساخرة مني لو أن عينها ... رأت مارأت عيني من الهول جنت

أبيت بسعلاة وغول بقفرة ... إذا الليل وارى اللحن فيه أرنت

ومن ذلك قول عبدالمسيح بن عَسَلَة العبدي (٤) :

فأما أخو قُرطٍ ، ولست بساخر ... فقولا له : يا اسلم بمرة سالما

أما (التهكم) فالهاء ، والكاف ، والميم ، تدل على تقحم وتهدم ، والتهكم : التهزؤ (٥) وتهكم به : تهزأ به وقال ذلك على سبيل التهكم (٦) وتهكم بنا : زرى علينا ، وعبث بنا ، والتهكم : الاستهزاء (٧) إذاً فالتهكم : تقحم ، وتهدم ، وتهزؤ ، وزراية ، وعبث .

---

(١) أساس البلاغة (سخر) .

(٢) انظر الآيات : البقرة ٢١٢ ، الأنعام ١٠ ، التوبة ٧٩ ، هود ٣٨ ، الأنبياء ٤١ ، المؤمنون ١١٠ ، الصافات ١٢ ، ١٤ ، ص ٦٣ ، الزمر ٥٦ ، الحجرات ١١ .

(٣) مروج الذهب ، للمسعودي ، ٢/ ١٦٥ ، تحقيق قاسم الشماعي .

(٤) المفضليات ٣٠٤ .

(٥) معجم مقاييس اللغة (هكم) .

(٦) أساس البلاغة (هكم) .

(٧) لسان العرب (هكم) .

ولم ترد لفظة التهكم في القرآن الكريم ، لكنها كانت شائعة على ألسنة الشعراء وغيرهم ، يقول عامر بن الطفيل حينما بلغه هجاء النابغة له : «ماهجاني أحد حتى هجاني النابغة ، جعلني القوم سيداً رئيساً ، وجعلني النابغة سفيها جاهلاً ، وتهكم بي » (١) .

ويقول الأصمعي عن أبيات لزهير يهجو فيها : « هذا منه تهكم » (٢) .

ويقول حسان رضي الله عنه : (٣)

بَنِي أمّ البنين ألم يرعْكم ... وأنتم من ذوائبِ أهلِ نجدِ

تهكمُ عامرٍ بأبي بَراءٍ ... ليخفرَه وما خطأٌ كعمْدِ

وقال عامر المحاربي يناقض الحصين بن الحمام المري (*) : (٤)

يُغنِّي حُصَيْنٌ بالحجازِ بناتِهِ ... وأَعْيا عليه الفخْرُ إلا تهكُّمَا

وإنا لَنَشْفي صَوْرَةَ التَّيْسِ مِثْلَهُ ... ونضرِبُهُ حتى تَبُلَّ اسْتَهُ دَمَا

ومن ألفاظ السخرية (الهزء) الهاء ، والزاء ، والهمزة ، كلمة واحدة ، يقال : هزئ ، واستهزأ إذا سخر (٥) والهزء ، والهزؤ : السخرية ، وهزئ به

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ٢/ ٨٤٧ ، تحقيق د. محمد قرقزان .

(٢) أساس البلاغة (هكم) .

(٣) المرجع السابق .

(*) الحصين بن الحمام بن ربيعة من بني سهم بن مرَّة ، كان سيد قومه وذا رأيهم وقائدهم ورائدهم ، وكان يقال له : مانع الضيم ، قيل إنه أدرك الإسلام ، ورد ابنه على معاوية فأكرمه . الأغاني ١٤/ ١ .

(٤) المفضليات ٣١٨ .

(٥) معجم مقاييس اللغة (هزأ) .

ومنه، وتهزأ واستهزأ به : سخر ، ورجل هزأة - بالتحريك - : يهزأ بالناس ، وهزأة - بالتسكين - : يهزأ به (١) فالهزء سخرية ، وهو شائع ومستعمل بهذا المعنى ، وقد ورد في القرآن الكريم أربعاً وثلاثين مرة بصيغ متعددة ، واستعمله الشعراء كذلك بمعنى السخرية ، يقول عبدالله بن سلمة الغامدي(٢) :

ولم أرَ مثلَ بنتِ أبي وفاءٍ غداةَ بِرَاقِ ثَجْرَ ولا أحُوبُ

على ماأنها هَزِئَتْ وقالتْ : هَنُونَ ، أجُنَّ ؟ منْشَأُ ذا قريبُ

أما (الضحك) فهو انبساط الوجه ، وتكشر الأسنان من سرور النفس ، ولظهور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك ، وقيل ضحكت منه ، ورجل ضحكة يضحك من الناس ، وضحكة لمن يضحك منه، واستعمل الضحك بمعنى السخرية في القرآن الكريم في عدة مواضع (٣) منها قوله تعالى عن فرعون وقومه : ﴿ **فلما جاءهم بئايٰتنا إذا هم منها يضحكون** ﴾ (٤) أي استهزءوا بها أول مارأوها(٥) وقوله عز وجل مخاطباً أهل النار : ﴿ **إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا ءامنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخرياً حتىٰ أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون** ﴾ (٦) وتضحكون هنا أي تستهزئون وتسخرون (٧) .

---

(١) لسان العرب (هزئ) .

(٢) المفضليات ١٠٣ .

(٣) المفردات في غريب القرآن ٢٩٢ .

(٤) الآية (٤٧) من سورة الزخرف .

(٥) روح المعاني ، ٢٥/ ٨٧ .

(٦) الآيتان (١٠٩ ، ١١٠) من سورة المؤمنون .

(٧) انظر روح المعاني ، ١٨/ ٦٩ .

ويوم القيامة يضحك المؤمنون من مصير الكافرين ، فيردون عليهم ضحكهم وهزأهم كما في الآيات ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين ءامنوا يضحكون ... فاليوم الذين ءامنوا من الكفار يضحكون** ﴾(١) .

واستعمل الضحك في الشعر بمعنى الهزء ، يقول عبد يغوث بن وقاص(*) : (٢)

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم تر قبلي أسيراً يمانيا

والضحك يستعمل بمعنى الهزء والسخرية كما في الشواهد الماضية ويستعمل في مطلق السرور وفي التعجب وغيرها (٣) فيكون تهكماً وسخرية ، ويكون عبثاً ولهواً ومجانة ويكون فكاهة (٤) .

ومن هذه الألفاظ التي تستعمل بمعنى السخرية (التندير) من ندر الشيء ندوراً ، يفيد معنى السقوط ، ويقال : أسمعني النوادر ، وفلان يتنادر علينا(٥) وفي التنديرمعنى السقوط وكأن المتندر يحاول إسقاط أو إظهار العيوب بطريقة

---

(١) الآيتان (٢٩ ، ٣٤) من سورة المطففين .

(*) عبد يغوث بن صلاءة أو ابن الحارث بن وقاص ابن صلاءة ، كان شاعراً من شعراء الجاهلية فارساً سيداً لقومه وهو قائدهم في يوم الكُلاب وفيه أسر فقتل ، وهذه أشهر قصائده . الأغاني ١٦/ ٣٢٨ .

(٢) المفضليات ١٥٨ .

(٣) انظر المفردات في غريب القرآن ، ٢٩٢ .

(٤) انظر ابن الرومي حياته من شعره ، للعقاد ١٢٠ ، ١٢١ .

(٥) أساس البلاغة ، والقاموس المحيط (ندر) .

ملتوية فيها تبالة وتجاهل وإظهار لنوادر الشخص الذي يتندر به (١) والتندير ليس سوى تعبير ساخر بالجد والهزل(٢) ويعده بعض البلاغيين بهذه التسمية أحد أساليب البديع الساخرة مع أنه يمكن أن يدخل في بعض الأساليب البديعية الأخرى كالتهكم والهزل الذي يراد به الجد « لأنه غالباً مايقع في الهزل »(٣).

وهناك ألفاظ تلازم السخرية والاستخفاف ، منها (الإهانة) و(الاحتقار) فالسخر أصل يدل على احتقار واستذلال (٤) وكثيراً مايجمع بينهما ، كما عند ابن رشيق في العمدة حيث يقرن بين الاستحقار والاستخفاف(٥) ، وكما عند السكاكي أيضا(٦).

وابن الأثير الحلبي يعد من وضيع الهجاء ماخرج مخرج التهكم والاستهزاء، وتجاهل العارف ، ونوع يقال له الاحتقار (٧) ، والاحتقار استصغار، وكثيراً مايصاحب السخرية ويأتي بمعناها .

---

(١) انظر السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، د. نعمان طه ١١.

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، لابن أبي الإصبع المصري ٥٧١ ، تحقيق حفني شرف .

(٣) حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، شهاب الدين الحلبي ، ص ٣٠٧ ، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف .

(٤) معجم مقاييس اللغة (سخر) .

(٥) انظر العمدة ، ٢/ ٨٥٠ .

(٦) مفتاح العلوم ٣١٤ .

(٧) جوهر الكنز ، لابن الأثير الحلبي ٣١٢ ، ٣١٣ ، تحقيق د. محمد زغلول سلام .

أما (الإهانة) فهي مصدر أهان ، واستهان به وتهاون به : استخف به ، ورجل فيه مهانة : أي ذل ، والمهانة من الحقارة ، واستهان به وتهاون به : استحقره(١) ، فالإهانة : استخفاف واستذلال وتحقير ، وكل ذلك يلزمه غالبا ويصحبه التهكم والسخرية(٢) . وتعرَّف السخرية بأنها إنزال الهوان والحقارة كما عند الزمخشري(٣) أو الاستحقار والاستهانة كما يقول القرطبي (٤) وبالاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب في تعريف طاش كبرى زادة (٥) ، فالسخر أصل من عناصره الاحتقار والإهانة ويغلب مصاحبته لهما .

هذه الألفاظ التي تدل على السخرية - كما في كتب النقد والبلاغة العربية- ، ولاشك أن أحداً لايدعي أنه ليس في العربية ألفاظ أخرى تدل على هذا المعنى ، إنما هذه تقريبا هي الألفاظ التي كانت تدور بهذا المعنى في كتب الأدب والنقد ، والنوادر والأخبار ، وهناك صعوبة تواجه كل من أراد أن يتصدى لإيجاد فروق واضحة بين هذه الألفاظ ، ففي المعاجم تذكر هذه الألفاظ بمعنى السخرية «ومهما أدرنا الألفاظ على وجوهها فلن تسعفنا الدلالات المعجمية على مناحي الخلاف بصورة واضحة محددة » (٦) .

---

(١) لسان العرب (هون) .

(٢) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها في القرآن الكريم ، د. صباح دراز ٤٦ .

(٣) تفسير الكشاف ، ١/ ٣٥ .

(٤) انظر روح المعاني ، ٢٦/ ١٥٢ .

(٥) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، لطاش كبرى زاده ، ٣/ ٣٥٣ .

(٦) الاتجاه الساخر في أدب الشدياق ، د. شوقي المعاملي ١٠ .

وقد اخترنا لفظة (السخرية) لأنها كما يبدو أقرب الألفاظ للدلالة على المعنى المقصود ؛ ولكثرة دورانها على ألسنة الأدباء والنقاد حتى صارت علماً لاتجاه أدبي معروف يسمى (بالاتجاه الساخر) أو (الأدب الساخر) ، وكثيراً مايوصف شاعر أو أديب بأنه (شاعر ساخر) ، أو (أديب ساخر) ، ولأمر ما استعمل القرآن الكريم هذه اللفظة للدلالة على هذا المعنى ست عشرة مرة ، وحينما أراد القرآن الكريم أن يصرح بالنهي عن استخدام هذا الفعل ترك كل المترادفات وعبر بلفظ (السخرية) فقال﴿ **لايسخر قوم من قوم**﴾(١) ، ثم إن لفظة (السخرية) كما دلت على ذلك معاجم اللغة فيها معنى (التسخير) أي التذليل ، والساخر يحاول دائماً إخضاع خصمه وتذليله « وفي حروف الكلمة إحساس بالطراوة والخبث والدهاء ، بعكس لفظة (تهكم) التي تدل على تهدم وتقحم ، ففي لفظ (السخرية) لين أشبه بلين الأفاعي » (٢) .

ولو ذهبنا نعرف السخرية لوجدنا صعوبة كبيرة ؛ لأن السخرية فن ، والفنون أعمال نابضة بالحياة ، لايمكن تعريفها والإحاطة بها ببعض ألفاظ قاصرة ، إذ الفن حي متحرك والألفاظ مهما تكن جامدة ساكنة (٣) ، ثم إن السخرية انفعال، ومن أصعب الأشياء محاولة تعريف الانفعالات أو وصفها ، لذلك رأينا كثيراً من الباحثين الذين تصدوا لتعريف السخرية أو وصفها يصرحون بهذه الصعوبة، لقد حاول (آدلر) الفيلسوف أن يحللها ، فقال : « إنها مركبة من غرائز

---

(١) بعض الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٢) انظر السخرية في الأدب العربي ١٣ .

(٣) المرجع السابق ١٤ .

ثلاث : الغضب ، والانتقام ، والخضوع - ثم قال بعد هذا - ولست مقتنعاً إلى اليوم بأي تعريف لها فيما قرأته إلى الآن » (١) ، ويقول المازني بعد أن حاول تعريف السخرية : « ولسنا نظن أننا أحطنا في هذا التعريف بكل ماينبغي أن يحاط به ، أو أقمنا كل المعالم والحدود » (٢) ، ويقول سليمان الشبانة : « رغم كثرة استخدام لفظة السخرية وجريانها على الألسنة ، وورودها في القرآن الكريم في أكثر من إحدى عشرة آية إلا أنها لم تحظ بتعريف اصطلاحي جامع مانع » (٣) .

ورغم معرفتي بأن تعريف السخرية تعريفاً جامعاً مانعاً أمر بالغ الصعوبة إلا أنني حاولت أن أتتبع أشهر الذين تعرضوا لتعريفها ، ومن أوائل هؤلاء الزمخشري حيث يقول في معرض تفسير معنى استهزاء الله عز وجل بالمنافقين : « فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت : معناه إنزال الهوان والحقارة بهم ، لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به ، وإدخال الهوان والحقارة عليه»(٤) .

وينقل الألوسي عن القرطبي قوله : « السخرية : الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه ، وقد تكون بالمحاكات بالفعل والقول أو الإشارة أو الإيماء أو الضحك على كلام المسخور منه إذا تخبط فيه أو غلط ، أو على صنعته أو قبح صورته » (٥) .

---

(١) انظر السخرية في الأدب العربي ١٥ .

(٢) حصاد الهشيم ، إبراهيم المازني ٣٠٢ .

(٣) الرسوم الساخرة في الصحافة ، سليمان الشبانه ٩ .

(٤) تفسير الكشاف ، ١/ ٣٥ .

(٥) روح المعاني ، ٢٦/ ١٥٢ .

ومن تناولوا السخرية بالتعريف طاش كبري زادة في المطلب الأول من آفات اللسان ، يقول : « ومن الآفات السخرية والاستهزاء ومعناها الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون بالمحاكاة في الفعل وفي القول ، وقد يكون بالإشارة والإيحاء » (١) ، وهذا التعريف قريب جداً من تعريف القرطبي السابق .

ومن الأدباء والباحثين المحدثين الذين حاولوا تعريف السخرية المازني الذي يرى أن السخرية عبارة عما يثيره المضحك أو غير اللائق من الشعور بالتسلي أو التقزز ، على أن تكون الفكاهة عنصراً بارزاً والكلام مفرغاً في قالب أدبي(٢) ولا أعلم ما العلاقة بين السخرية والشعور بالتقزز !

ومن تناولوا السخرية بالتعريف عبدالحليم حفني ، يقول : « السخرية أسلوب أو سلاح عدائي ، مهما كانت دوافعها ، ومهما كان مقامها ، ومهما صغرت درجتها أو كبرت ، ويتميز عن غيره من أساليب العداء بأنه مصوغ بروح الفكاهة وأسلوبها» (٣) . وليست السخرية عدائية دائماً ، بل قد تكون توجيهية أو نقدية تقويمية أو تنفيرية من سلوك أو عادة سيئة ، أما أن تكون عدائية مهما كان مقامها أو دوافعها فأمر لايستقيم هكذا على إطلاقه إلا إن كنا نقصد أنها كذلك من وجهة نظر المسخور منه فربما .

---

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ٣/ ٣٥٣ .

(٢) حصاد الهشيم ٣٠٢ .

(٣) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، د. عبدالحليم حفني ١٥ .

ويعرف نعمان طه السخرية بأنها النقد الضاحك أو التجريح الهازئ(١) .

أما قحطان التميمي فيقول : « السخرية في الشعر طريقة تعبيرية متطورة ، توسل بها الشعراء لنقد الأوضاع السياسية والاجتماعية والسير الفردية ، والنيل منها بأسلوب يترفع عن الشتيمة والسباب المحض ، ويتنزه عن القذف والإيغال في الفحش ورفث القول » (٢) .

ويعرفها سليمان الشبانة بأنها الاستهزاء من الشخص أو الموقف بأسلوب يثير الضحك منه ، بقصد إهانته واحتقاره ؛ لتحطيم معنويته الشخصية ، والابتعاد عن مواقفه الشائنة(٣) .

وليس في كل التعاريف السابقة مايمكن أن يصف لنا جوهر السخرية ، إنما يلامس كل واحد جانباً من جوانبها ، أو يعدد بعض وسائلها أو عناصرها ، أو يذكر بعض مرادفاتها ، كأن يقول « هي الاستحقار والاستهانة » (٤) أو يعدد بعض أساليبها بقوله : « وقد يكون بالمحاكاة في الفعل وفي القول ، وقد يكون بالإشارة والإيحاء » (٥) ، أو يقول « بأنها أسلوب أو سلاح عدائي » (٦) وهي ليست هكذا دائماً ، أو يحصر بعض هذه التعاريف السخرية في النقد الضاحك أو التجريح

---

(١) السخرية في الأدب العربي ١٤ .

(٢) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، د. قحطان التميمي ٣٥٦ .

(٣) الرسوم الساخرة في الصحافة ١٠ .

(٤) روح المعاني ، ١٥٢/٢٦ .

(٥) مفتاح السعادة ، ومصباح السيادة ، ٣٥٣/٣ .

(٦) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ١٥ .

الهازئ (١) مع أنها كثيراً ماتكون غير نقد ولا تجريح « ففي الدنيا من السخرية بقدر مافيها من الساخرين » (٢) .

ويمكن أن تعد هذه التعاريف السابقة للسخرية محاولات لوصف السخرية أو توضيحها أو شرح بعض جوانبها ووسائلها وأساليبها وعناصرها ، أما جوهر السخرية وحقيقتها فأمر يتعالى على التعريف ، والأفضل للباحث أن ينصرف إلى معرفة حقيقة السخر عن طريق « وصف الفنان الساخر واستبطان نفسه ، وتحليل الأعمال الساخرة ، والبعد عن محاولة تعريفها بعبارات منطقية محدده » (٣) .

والسخرية نوع من الهجاء ولكنها تختلف عنه ، فالهجاء صادر عن نفس غاضبة تهدف إلى التجريح والتشهير والانتقاص والمبالغة في التعدي ، وليست السخرية كذلك في أغلب الأحيان (٤) .

وقد اصطلح الناس منذ القدم على أن الهجاء فن الشتم والسباب (٥) وهو ضد المديح كما يقول قدامة (٦) ، وقد أجمع أشهر الذين تعرضوا لتقسيم الشعر على أنه باب رئيس من أبواب الشعر ، فأبو تمام الذي يعد من أقدم من تعرض لتبويب الشعر العربي يفرد له باباً في حماسته (٧) ، ويجعل له قدامة قسماً في كتابه

---

(١) السخرية في الأدب العربي ١٤ .

(٢) انظر ابن الرومي حياته من شعره ١٢١ .

(٣) انظر السخرية في الأدب العربي ١٦ .

(٤) انظر الاتجاه الساخر في أدب الشدياق ١١ .

(٥) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، د. محمد محمد حسين ٥ .

(٦) انظر نقد الشعر ٩٢ .

(٧) انظر الحماسة ، ٢/١٥٦ .

(نقد الشعر) (١) ، ويفرد له أبوهلال العسكري فصلاً في كتابه ديوان المعاني (٢) ، وأبواب الشعر عند ابن رشيق تسعة أقسام منها الهجاء (٣) ، وهذه التقسيمات تظهر أن الهجاء فن أصيل من فنون القول وما ذاك إلا لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفطرة الإنسانية فهو نابع من عاطفة الغضب ، ثم هو مرتبط أيضا بالحياة والواقع ، بل وبتفاصيل هذا الواقع .

والهجاء كما يرى قدامة ضد المديح (٤) ، وهو عند ابن الأثير الحلبي ذكر المساوئ (٥) ، ويعرفه محمد محمد حسين بأنه أدب غنائي يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء (٦) ، بينما يرى قحطان التميمي في كتابه (اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري) أن الهجاء تعداد للمعايب وكشف لبشاعة الرذائل والنقائض في الفرد والمجتمع بكل مظاهره السياسية والاجتماعية والأخلاقية (٧) .

والعلاقة بين السخر والهجاء كالعلاقة بين الجزء والكل ، إذ السخرية لم تكن يوماً غرضاً شعرياً مستقلاً عن الهجاء إنما هي أسلوب في الأداء الهجائي تطور

---

(١) نقد الشعر ٩٢ .

(٢) ديوان المعاني ، ١/ ١٧٠ .

(٣) العمدة ٢/ ٨٤٤ .

(٤) نقد الشعر ٩٢ .

(٥) جوهر الكنز ٣٠٩ .

(٦) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ١٦ .

(٧) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ١٢ .

بتطور الهجاء لأنها أداة من أدواته وجزء منه ، وليس من مبرر لجعلها غرضاً مستقلاً ، فكما سلك الشعراء إلى هجاء المظاهر السياسية والاجتماعية والشخصية أسلوباً جاداً فإنهم سلكوا إلى هجاء هذه المظاهر أسلوباً هازلاً متفكها ساخراً(١)، والأديب حينما يسخر يتناول بعد ما بين الأشياء والطبيعة ، ويركض في حلبة يتقابل عند طرفيها الواقع من ناحية ومثل الكمال من ناحية أخرى ، وقد يفعل ذلك جاداً أو متفكها مداعباً ، أي أنه قد يستوحي إرادته ومشاعره أو يستملي عقله ، فإن كانت الأولى فهو هاج منتقم ، وإن كانت الثانية فهو ساخر يركب مابدا له بالدعابة (٢) .

فالسخرية فن له خصائصه وطبيعته إلا أنه لايخرج عن كونه هجاءً ، وهي عنصر من عناصر هذا الهجاء تحتاج إلى مواهب متعددة ومقدرة فائقة في اختيار الموضوع وصياغته وطريقة تقديمه وأسلوب المعالجة ، ومعرفة بأذواق المتلقين وأقدار المهجويين (٣) .

والهجّاء حينما يفقد عنصر السخرية فإنه قد ينساق إلى مجرد السب والشتم ، فيزول عنه بذلك عامل كبير من عوامل قوة هجائه ، وقد فطن البعض إلى ذلك منذ القدم ، فالنابغة حينما قدم بعد وقعة « حسي » سأل بني ذبيان : ماقلتم لعامر بن الطفيل ، وما قال لكم ؟ فأنشدوه ، فقال : أفحشتم على الرجل وهو شريف لايقال له مثل ذلك ، ولكني سأقول ، ثم قال :

---

(١) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٥٧ .

(٢) حصاد الهشيم ٣٠٢ .

(٣) انظر الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية ، د. عباس بيومي ٢٨٢ .

إنْ يكُ عـامـرٌ قـدْ قـال جـهـلاً ... فـإنَّ مَظِنَّةَ الجـهـل الشَّـبَـابُ
فكُـــنْ كـأبيكَ ، أو كـأَبي بَرَاءٍ ... تصـادفك الحُكُومَـةُ والصَّـوَابُ
ولا تَذْهَـــبْ بِلُبِـكَ طائِشَـــاتٍ ... مِن الخُـــيَـــلاءِ ليس لهُنَّ بابُ
فـإنك سـوف تحْلُـمُ أو تَنَاهَـــىٰ ... إذا مـاشِبْتَ أو شـابَ الغُرَابُ
فـإن تكُـن الفـوارسُ يوم حِسْيٍ ... أصَـابُوا من لِقَـائِكَ مـا أصـابوا
فـمـا إن كـان عـن نَسَبٍ بعيـدٍ ... ولكنْ أَدْرَكُـوكَ وهمْ غِـضَـابُ

فلما بلغ عامراً ماقال النابغة شق عليه ، وقال : ماهجاني أحد حتى هجاني النابغة ، جعلني القوم سيداً رئيساً ، وجعلني النابغة سفيها جاهلاً ، وتهكم بي(١) .

فالسخرية المؤلمة التي شقت على عامر بن الطفيل وغيره ليست سباً وإفحاشاً ، بل هي أسلوب يترفع عن الشتم والسباب المحض ، ويتنزه عن القذف والإيغال في الفحش ورفث القول « لأن الحديث الساخر ينبغي ألا يكون محتداً ثائراً وألا يكون سيئ اللفظ بذيئاً » (٢) .

أما الهجاء فالأغلب أن يكون صادراً من نفس غاضبة ترغب في الانتقام وتطمح في النيل من خصمها وإلصاق كل نقيصة به ولو كان ذلك بأسلوب التشهير أو السب والشتم . وقد لايبالي الهجاء قبل الناس هجوه هذا أم لا ، وربما فقد بكثرة تحامله وإسرافه في السباب تعاطف الناس ، بل وربما جعلهم يشفقون على

---

(١) العمدة ، ٢/ ٨٤٦ .

(٢) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٥٦ .

خصمه ويتعاطفون معه ، فلكي يتمكن الهجاء من جذب الناس نحوه ، وتنفيرهم من خصمه ومهجوه ، لابد له أن يسلك إلى ذلك سبيل السخرية والعبث حتى يستطيع « جذب المتلقي وشد السامع نحو هجائه ، وإغراءه على رواية مايقرأ أو حفظ مايسمع وإن كان ذلك طعناً في قومه وقذفاً في قبيلته ، ثم يكون في هذا السخر دحرٌ لمهجوه بإضحاك الناس عليه وسخريتهم منه » (١) ، والسخر بهذه الطريقة الماكرة أشد على المهجو من وقع الحسام المهند ؛ لأن أشد الهجاء كما قيل «ماخرج مخرج التهكم والاستهزاء » (٢) ، وقد رأينا عامر بن الطفيل كيف آلمه تهكم النابغة ولم يعدّ ما قاله غير النابغة من سب وإفحاش هجاءً البتة .

وهذه الطريقة الذكية التي تسخر العقل وتعتمد برود الأعصاب هي طريقة السخرية « فالسخرية فن لايتقنه ولايجيده إلا الأذكياء البارعون في التعبير عن الكلمة بحذق ولباقة وذكاء ، بينما الهجاء الخالص لايعوزه التركيز على الكلمات أو اختيار المعاني الناعمة الجارحة في آن واحد كما هو الحال في السخرية » (٣) . وعلماء النفس يرون أن هناك صلة وثيقة بين الذكاء والسخر ويقولون إن هذا الارتباط واضح بينهما ، فكلما ارتفعت نسبة الذكاء كان المجال أرحب لوجود الحس الفكاهي أو الحس الساخر (٤) ، وقد أدرك أرسطو منذ القدم هذه العلاقة فعالجها في خطابته (٥) .

---

(١) انظر الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية ٢٨٢ .

(٢) جوهر الكنز ٣١٢ .

(٣) انظر أدبنا الضاحك ، عبدالغني العطري ١٣١ .

(٤) انظر أسلوب السخرية في القرآن الكريم ١٥ .

(٥) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، وهبة والمهندس ٦٠ .

والسخرية مزيج بين شيئين ، الهجاء والفكاهة ، وترشيح الهجاء بالفكاهة والهزل يكسبه قوة وطرافة « فأبلغ الهجو ماجرى مجرى الهزل والتهافت » (١) ، وحينما يصب الشاعر وغير الشاعر هجاءه في قوالب فكهة فإنه بذلك يتخذ الأسباب التي تكتب لهجائه البقاء والخلود ، فالهجاء بدون فكاهة وهزل كالجسد بلا روح ، مجرد دمية بدون نبض أو حياة ، وحينما تمتزج الفكاهة بالهجاء فإنه ينتج أقوى الأساليب الهجائية .

والفكاهة شيء موهوب غير مكتسب ، فهي مركبة في طباع الهجائيين الممتازين ، الذين لاتكاد أعينهم تقع على الشيئ حتى تتدفق عليهم ألوان من الصور الفكهة والأخيلة الساخرة التي تسعفهم بها البديهة دون إعمال كبير للعقل أو كدٍّ للمخيلة ، فالصورة تلمع في ذهن الهجاء الساخر الفطن فتسعفه بالنكتة الصائبة بمجرد وقوع عينه على موضوع هجائه أو تخيله (٢) .

وليس كل شاعر بمستطيع أن يكون ذلك الفنان الساخر ، فإن السخر موهبة تميز بها أفراد دون آخرين ، فالشاعر إن لم يكن ذا موهبة فطرية وذهن لماح وعين حساسة تقع مباشرة وبدون جهد على مواقع النقص والنقد ، فإنه عبثا يحاول ادعاء الخفة والظرافة ، فالسخر موهبة « وهذه الموهبة لاتنمو في الرؤوس الخاملة ولا في الجماعات ذات العقول المشوشة أو المضطربة ، إذ إنها موهبة تخاطب العقل بالدرجة الأولى » (٣) .

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٢٤ .

(٢) انظر الهجاء والهجاءون في العصر الجاهلي ٤٦ .

(٣) الاتجاه الساخر في أدب الشدياق ١٤ .

وإذا أردنا أن نعرف الفكاهة التي تعد عنصراً أساسياً من عناصر السخرية فإننا نقف حائرين إذ ليس من اليسير تعريف الفنون ، ونتذكر ماقاله أحد الباحثين حينما طلب منه تعريف الفكاهة قال : « هي اصطلاح لايأبى أن يعرف فحسب بل تتعالى عن التعريف » (١) ، ومن أقرب التعريفات التي توضح هذا المعنى التعريف الذي صاغه أحد الباحثين بقوله « الفكاهة تجاوب بين ما هو مضحك ، أو غير معقول ، أو مايتميز بصفة التناقض في القول والفعل والحركة ، وبين قدرة الإنسان العقلية على إدراك هذه العناصر وتقديرها والتعبير عنها » (٢) ، إذاً فالفكاهة تفاعل بين المضحك والعقل .

والضحك نعمة اختص بها الإنسان عن سائر المخلوقات ، وما ذاك إلا لأن الإنسان « لما كان أعمق الموجودات ألماً أعطي الضحك ، فأكثر المخلوقات تعاسة وشقاءً هو بطبيعة الحال أكثرها بشاشة وانشراحاً » (٣) ، والإنسان يضحك لينفس عما في نفسه من ألم وليستعيض بهذا الضحك عن آلام لو لم يجد لها متنفساً لأتعبته كثيراً ، يقول أحد الفلاسفة « ماضحكت لمشهد بشري زائل إلا وكان ضحكي بديلاً أستعين به على اجتناب البكاء » (٤) ، وكان الفيلسوف الفرنسي الساخر «فولتير» يرى أن الأمل والنوم منحتان عظيمتان أعطيهما الإنسان عوضاً عن الآلام والمحن التي تواجهه في الحياة ، ولكن « كانت » الفيلسوف الشهير كان يعلق على رأي فولتير هذا قائلاً «ماكان أحرى فولتير بأن يضيف إليهما الضحك»(٥) .

---

(١) انظر السخرية في الأدب العربي ١٥ .

(٢) الفكاهة عند العرب ، د. أنيس فريحة ١٤ .

(٣) انظر أسلوب السخرية في القرآن الكريم ١٦ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق ١٧ .

والضحك ليس نوعاً واحداً ، فهو يتنوع بحسب الباعث الذي يوحيه ، ويذكر العقاد أن أدباء « النفسيين » يقسمونه إلى تهكم ، وعبث ، ومجانة ، وفكاهة(١) ، والأقرب إلى فهم « الضحك » عند العقاد أن الضحك قابل لجميع هذه الحالات وأنه يمكن أن يكون متهكماً حيناً وعابثاً حيناً ويمكن أن يمزج أحياناً بين هذين الشعورين (٢) .

فالضحك عنده واحد لكنه يختلف باختلاف النفوس وحالاتها ، فهناك نفس كريمة ، ونفس لئيمة ، وهناك ضحك في حالة الرضى ، وضحك في حالة الغضب والجفاء، ثم هناك فرق بين الضحك والعبث بشتى أنواعه حينما يصدر عن نفس واحدة « فعبث وضحك النبيل الأريحي غير عبث وضحك الوضيع الخبيث ، وتهكم الصارم الأبي غير تهكم الرخو الذليل ، وفي الدنيا من التهكم بمقدار مافيها من المتهكمين » (٣) .

والسخرية ليست ضحكاً من أجل الضحك فحسب « فالسخر والتهكم لا يراد لذاته » (٤) ، بل هي ضحك جاد « فالساخر حينما يتناول المضحكات أحياناً ويمزح ويسخر ويركب الأشياء والناس بالهزل ، فإن هزله أبداً مبطن بالجد ، وهو لايقصد إلى الهزل في ذاته » (٥) ، إن السخر يمكن أن يكون وسيلة للتقويم ونقد

---

(١) ابن الرومي حياته من شعره ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦١ .

(٥) انظر حصاد الهشيم ٣٠٦ .

الأخطاء وتبصير الغافلين بعيوبهم ليتنبهوا لما هم فيه من خطأ ، وقد يكون قاسياً في بعض الأحيان وخاصة حينما يصادف تصلباً من الطرف الآخر ؛ لأن الضحك كما يقول برجسون : « ليس طيباً في كل الأحيان » (١) فهو تأديب قبل كل شيئ ، وقد وجد ليخجل ويخزي (٢) .

والضحك الساخر كما يرى بعض الباحثين أسلوب وسلاح عدائي مهما كانت دوافعه إلا أنه يتميز عن غيره من الأساليب العدائية بأنه مصوغ بروح الفكاهة وأسلوبها (٣) ، فالسخر عنده أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة ، وفي هذا تعميم لايستقيم هكذا على إطلاقه لأن السخر قد يكون ذا غاية نقدية إصلاحية .

وختاماً فإن الحديث عن السخر يمكن أن يستغرق بحوثا ودراسات طويلة تبدأ من تعريف السخرية وألفاظها والفروق الدقيقة بين هذه الألفاظ ، ثم الحديث عن طبيعة السخر وعلاقته بالفكاهة والضحك ، وحاجة الإنسان إليه ، ثم البحث في مصادر السخرية ، وطبيعة الساخر ، وأسباب السخرية ودواعيها ومقوماتها .

والقصد المراد بهذا التمهيد التقديم والتوطئة للموضوع الرئيس لهذا البحث وهو « أساليب السخرية في البلاغة العربية » .

---

(١) الضحك ، هنري برجسون ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق ١٥٨ .

(٣) انظر أسلوب السخرية في القرآن الكريم ١٣ .

المصطلح والظاهرة في التراث البلاغي

لم يكن لموضوع التهكم والسخرية في كتب الأقدمين - فيما أعلم - مصنف مستقل ، بل كانت مباحثه وأساليبه وأمثلته مبثوثة في كتب البلاغة والنقد والأدب ودواوين الشعر ، فمن هذه الكتب ماتناول مجموعة من أساليب السخرية ومباحثها ، ومنها ما اكتفى بالحديث عن مبحث أو أسلوب واحد ، بل ومنها ماأشار مجرد إشارة عابرة إلى أن هنا تهكماً أو أن هناك سخرية .

ومن أوائل هذه الإشارات والأمثلة العابرة ، ما نجده عند الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتابيه (البيان والتبيين) و (الحيوان) ، حيث يحشد فيهما كثيراً من القصص والشواهد والأمثلة الساخرة ، وقد تحدث عن طبقات الكلام ، وتخير الألفاظ ، فالكلام منه الجزل والسخيف ، ومنه المليح والحسن ، والقبيح والسمج ، والألفاظ منها العامي الساقط ، ومنها الوحشي الغريب (١) . واستعمال الغريب والوحشي من الكلمات ، ومحادثة الناس دون اعتبار طبقاتهم ومنازلهم ، مدعاة للسخرية ، وقد عقد الجاحظ فصلاً جمع فيه كثيراً من كلام النوكى والموسوسين والجفاة والأغبياء وما ضارع ذلك وشاكله (٢) ، ومن ذلك مايرويه عن أبي علقمة النحوي الذي كان مولعاً باستعمال الغريب من الكلام مما جلب له كثيراً من السخريات ، وربما استعمل أبوعلقمة نفسه ذلك ليرد على سخرية ساخر ، أو هزء متطفل (٣) .

---

(١) انظر البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ١/ ١٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ٤/ ١

(٣) المرجع السابق ، ١/ ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

ويكتب الجاحظ عن الإشارة فيجعلها شريكة للفظ ، بل يجعلها من تمام حسن البيان باللسان (١) ، ومعلوم أن السخرية ربما كانت بالمحاكات بالفعل ، والقول ، أو الإشارة ، أو الإيماء (٢) .

والجاحظ بطبعه يميل إلى السخرية والتفكه ، فالناظر في كتبه يدرك هذا بوضوح ، وخصوصاً كتابه عن (البخلاء) الذي تتضح فيه الروح الساخرة بجلاء ، وكذلك رسالته (التربيع والتدوير) .

ومن أوائل من تناول السخرية والتهكم أيضاً ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) صاحب كتاب (البديع) فإنه يتناول في كتابه بعض الأساليب التي يجعلها من محاسن الكلام ، وتأتي منها السخرية ، فمن ذلك (الاستطراد) ، الذي يسميه (حسن الخروج من معنى إلى معنى) (٣) ويجعل له أمثلة الاستطراد ، وينوع في أمثلته ، فبعضها خروج إلى المدح والبعض إلى الهجاء والسخر ، إلا أنه يجعل الكثرة للاستطرادات الساخرة (٤) وكأنه فطن بذلك إلى أن هذا الأسلوب يكون في المدح كما يكون في الهجاء ولكنه في الهجاء أشهر وأكثر وقوعا .

ويتناول تحت مايسميه محاسن الكلام (الهزل الذي يراد به الجد) ويمثل له بأربعة أمثلة فيها سخر وهجاء (٥) ويعد من محاسن الكلام أيضا (تجاهل العارف)

---

(١) انظر البيان والتبيين ، ١/ ٧٧ ، ٧٩ .

(٢) انظر روح المعاني ، ٢٦/ ١٥٢ .

(٣) البديع ، لابن المعتز ٦٠ .

(٤) المرجع السابق ٦١ ، ٦٢ .

(٥) المرجع السابق ٦٣ .

فيسميه باسمه ويذكر له ثلاثة أمثلة (١) ، وينقل ابن أبي الأصبع عن ابن المعتز أنه يسمي هذا الأسلوب (بالإعنات) (٢) ، ولم أجد للتجاهل عنده إلا هذه التسمية ، والاعنات شيء آخر .

ويتناول ابن المعتز أيضاً فيما يعده من محاسن الكلام (حسن التضمين) ويأتي بأمثلة منها تضمينات ساخرة متهازلة (٣) .

وممن تناول من الأقدمين أساليب السخر والهجاء قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) في كتابه (نقد الشعر) الذي قسم فيه الشعر إلى ستة أقسام هي : المديح ، والهجاء ، والمراثي ، والتشبيه ، والوصف ، والنسيب (٤) ، وأما الكتاب الآخر المنسوب إليه والمسمى (نقد النثر) فقد قسم الشعر فيه إلى أربعة أقسام : مديح ، وهجاء ، وحكمة ، ولهو ، ويبدو أن صاحب هذا التقسيم كان متأثراً فيه بقراءاته في فلسفة اليونان وتقسيمهم للشعر « فالقسم الأخير وهو (اللهو) يقابل كلمة (كوميديا) في أقسام الشعر الإغريقي والتي كانت تستخدم أسلوب اللهو والسخرية » (٥) ، ولكن هل معنى هذا أن مؤلف نقد النثر أراد به الأدب الساخر مقابل الكوميديا الساخرة .

وإذا تجاوزنا تقسيم الشعر عند قدامة إلى المباحث التي تناول فيها جانبا من الأساليب البلاغية الساخرة ، نراه مثلاً في (نعت الهجاء) يجعل أسلوب (الهجاء

---

(١) البديع لابن المعتز ٦٢ .

(٢) انظر تحرير التحبير ١٣٥ .

(٣) البديع ٦٤ .

(٤) نقد الشعر ٥٨ .

(٥) انظر السخرية في الأدب العربي ٢٥ .

في معرض المدح) من الهجاء المقذع الموجع ، ولايسميه باسمه ، يقول : « ومن الهجاء المقذع الموجع ماأنشدناه أحمد بن يحيى :(١)

كَاثِرْ بسعدٍ إن سعداً كثيرةٌ ولا تَبْغِ من سعدٍ وفاءً ولا نَصْرا

ولا تَدْعُ سعداً للقِراعِ وخلّها إذا أَمِنَتْ ، وَرَعْيَهَا البَلَدَ القَفْرَا

يَرُوعُكَ من سَعْدِ بن عمرٍو جُسُومُهَا وتَزْهَدُ فيها حِينَ تَقْتُلُهَا خُبْرَا

ثم يعلق على هذه الأبيات بقوله : « فمن إصابة المعنى في هذا الهجاء أن هذا الشاعر سلم لهؤلاء القوم أمرين يظن أنهما فضيلتان ، وليستا بحسب ماوصفناه من الفضائل مصيبتين ، وهما كثرة العدد وعظم الخلق ، وغزا بذلك مغازي دلت على حذقه بالشعر ، فمنها أن أدخل هجاءه لهم في باب الأقوال الصادقة لإعطائه إياهم شيئاً ومنعه لهم شيئاً آخر ، وقصد بذلك لأن يظن أن قوله فيهم إنما هو على سبيل الصدق ، وذكره إياهم بما هم فيه من جيد ورديء ، ومنها مابان من معرفته بالفضائل حتى ميز صحيحها من باطلها ، فسلم الباطلة ومنع الصحيحة ، ومنها أن قطع عن هؤلاء القوم مايعتذر به الكرام من قلة العدد ، فإن الكرام أبداً فيهم قلة » (٢) .

وفي نفس هذا المبحث يأتي قدامة بأمثلة يرى أن الشعراء قد أفرطوا وبالغوا فيها بذكر النقائض (٣) ، ليشير بذلك إلى أن من أساليب الهجاء والسخر المبالغة في ذكر النقائص .

---

(١) نقد الشعر ٩٢ .

(٢) المرجع السابق ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) المرجع السابق ٩٧ ، ٩٩ .

ويرى قدامة أن من عيوب الهجاء سلب غير الفضائل النفسية مثل أن ينسب المهجو إلى أنه قبيح الوجه ، أو صغير الحجم ، أو ضئيل الجسم أو مقتر ، أو معسر(١) ، وقد خولف في رأيه هذا (٢) .

ومن البلاغيين الذين تعرضوا لمباحث التهكم والسخرية أبوهلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) فإنه يعقد في كتابه (ديوان المعاني) (كتاباً للمبالغات في المعاتبات والهجاء والاعتذار) (٣) فيفرد للمبالغة في الهجاء فصلا ، يكثر فيه من العبارات التي تدل على المبالغة والإفراط في الهجاء والسخر ، ويحشد الأمثلة الساخرة فيتردد كثيراً مثل قوله : « قالوا أهجى بيت . . . وأبلغ ماقيل في الاحتقار . . . ومن التناهي في الاحتقار . . . ومن الاستحقار الشديد . . . ومن أبلغ ماقيل في الهجاء . . . ومن بليغ ماجاء في الاستصغار . . . ومن الإفراط في صفة البخل . . . وأبلغ ماقيل في الهجاء باللؤم » (٤) ، ويأتي بنصوص كثيرة أمدتنا بأمثلة وافرة في هذا البحث عند الحديث عن المبالغة الساخرة وغيرها .

ويعدد أبوهلال في الصناعتين صنوفاً من فنون البديع ، فمن الأساليب التي يعددها وتأتي منها السخرية (الاستطراد) (٥) و(المبالغة) (٦) و(تجاهل العارف)(٧) ويحشد لكل ذلك الأمثلة التي كان كثيراً منها في الهجاء والسخرية .

---

(١) نقد الشر ١٩٢ .

(٢) انظر كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب ٨٢ .

(٣) ديوان المعاني ١/١٥٧ .

(٤) المرجع السابق ١٧٠ - ١٨٥ .

(٥) الصناعتين ٤٤٨ .

(٦) المرجع السابق ٣٣٤ ، ٤٠٣ .

(٧) المرجع السابق ٤٤٥ .

كما يتناول أبو هلال في الفصل الثالث من الباب الأول في الصناعتين عند حديثه عن حدود البلاغة ، قضية تتعلق باستعمال الغريب في اللغة ، ويرى أن للكلام منازل وطبقات ينبغي أن تقسم على طبقات الناس ومنازلهم ، فإذا اختل ذلك كان مدعاة للتهكم والسخرية ؛ لأن العامي إذا كلمته بكلام العليه سخر منك وزرى عليك ، ثم يأتي لذلك بعدة أمثلة وقصص مما اشتهر عن أبي علقمة النحوي وتكلفاته وسخرياته (١) .

ويفرد أبو هلال للتشبيه باباً ، ويذكر أنه قد عرف عند العرب تشبيهات مشهورة مستمدة من بيئتهم وحياتهم سلكوا بها طريقة معينة في المدح والذم(٢) .

ومن هؤلاء الذين تعرضوا لمباحث التهكم والسخرية أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) في كتابه (الصاحبي) حيث يعقد باباً لأحد أساليب السخرية والتهكم يسميه (باب مايجري من كلامهم مجرى التهكم والهزء) ويضع تحته أمثلة الاستعارة التهكمية ، أو مايسمى (بالعكس في الكلام) (٣) .

ويعقد باباً آخر في (زيادات الأسماء) لأجل المبالغة أو التشويه والتقبيح(٤) يعدد فيه بعض الألفاظ التي استعملها العرب وزادوا في حروفها بقصد المبالغة أو التشويه والتقبيح ، ولاشك أن تشويه الاسم وتقبيحه يؤهله للسخرية حين يلقب شخص أو ينادي به .

---

(١) الصناعتين ٣٩ - ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ٢٦٥ .

(٣) الصاحبي ، لابن فارس ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، تحقيق السيد أحمد صقر .

(٤) المرجع السابق ١٢٢ .

ومن هذه الأسماء والألفاظ التي تكون مؤهلة لأن تستعمل استعمالاً ساخراً ماجاء في (فقه اللغة) لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) حيث عقد في كتابه فصولاً عن أسماء غريبة لبعض عيوب الجسم كالسمن والطول المفرط أو القصر الشديد (١) ومعظم هذه الأسماء التي أوردها غريبة متنافرة الحروف ، إذا لقب شخص أو نودي بها أثارت حوله الضحكات .

وممن تعرض لأسلوب السخرية والتهكم وأفرد للهجاء باباً ، ابن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ) في كتابه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) يذكر فيه خير الهجاء ، وأبلغه وأشد الهجاء عنده هو مايسميه بالهجاء (المقذع) وهو الهجاء بالتفضيل، ويذكر في هذا الباب أمثلة للون من ألوان الهجاء الساخر، وهو (الهجاء في معرض المدح) ولكنه لايسميه.

وتتكرر كثيراً بعض ألفاظ وعبارات السخرية في كتابه في مثل قوله « ومن الاستحقار والاستخفاف . . . ومن مليح التهكم والاستخفاف . . . ومن الاحتقار» (٢) .

ويعقد ابن رشيق (للتكرار) باباً ، ويعده في الأساليب التي تأتي منها السخرية فيقول : « ويقع أيضاً على سبيل الازدراء والتهكم والتنقيص » (٣) ، ويقول : « ويقع التكرار في الهجاء على سبيل الشهرة ، وشدة التوضيع » (٤) ، كما يعقد (للاستطراد) باباً يعرفه ويفرق بينه وبين مايسمى بالخروج ، ويجعل منه نوعاً يسمى (الإدماج) ويورد في هذا الباب أمثلة كثيرة للاستطراد الساخر (٥) .

---

(١) فقه اللغة ، للثعالبي ٤٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، تحقيق السقا والأبياري وشلبي .

(٢) انظر العمدة ٢/ ٨٤٤ - ٨٥٤ .

(٣) المرجع السابق ، ٢/ ٦٨٨ .

(٤) المرجع السابق ، ٢/ ٦٨٧ .

(٥) المرجع السابق ، ١/ ٦٢٨ - ٦٣٢ .

كما يعقد ابن رشيق باباً في أسلوب (تجاهل العارف) ويسميه (التشكك) وهو من ملح الشعر وطرف الكلام عنده ، ويرى أن الهجو والتهكم بهذا الأسلوب هو أبلغ الهجاء ، ويأتي له بالأمثلة (١) .

وعلى العموم فإن كتاب العمدة مليئ بالحديث عن السخرية أساليبها وصورها وأمثلتها .

ويأتي بعد ابن رشيق ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) صاحب كتاب (سر الفصاحة) فيتحدث عن الأصوات ، والكلام في الفصاحة والألفاظ ، ويأتي بأمثلة لألفاظ غير فصيحة استعملت استعمالاً ساخراً (٢) ، ويتناول مسألة اقتباس المصطلحات العلمية وله فيها رأي وجيه ، حيث يرى أنها إنما تسوغ وتقبل إذا خرجت مخرج الهزل ولم تدخل في باب الجد (٣) .

ويأتي بعد هؤلاء إمام البلاغيين عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) فيتناول في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) مسائل كثيرة متفرقة مما يتصل بأساليب السخرية ، وقد فطن إلى لون من الاستعارة الساخرة ربما لم يسبقه إليه أحد ، وهو ماأسماه بالاستعارة اللفظية ، وأشار إلى أنها تجرى بين الأسماء التي تتحد أجناس مسمياتها ، كالشفة ، والمشفر ، والاستعارة هنا كما يراها لفظية لكنها ناظرة إلى الاستعارة المعنوية ؛ لأن استعمال ألفاظ كالمشافر والأظلاف والتوالب

---

(١) العمدة ، ١/ ٦٧٠ ، ٢/ ٨٤٦ .

(٢) سر الفصاحة ٥٧ ، ٦٧ .

(٣) المرجع السابق ١٦٩ .

للإنسان ، قد يكون من قبيل الذم والتهكم إذا أتى بها في مواضع العيب والنقص(١) .

ثم تأتي (مدرسة التلخيص وشروحه) التي تبتدئ بمؤلف (التلخيص) سراج الدين أبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) وتمتد إلى الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) وإلى بقية الشراح من بعده الذين صار همهم تعديد أبواب البلاغة ، وتحديدها ، وسوق الأمثلة عليها ، فأخذت الأمثلة تتكرر ، والتعريفات تتناقل ، يقول أحمد موسى يصف لنا حال فن من فنون البلاغة في تلك الفترة : «فلما كانت أواخر القرن السادس وأوائل السابع ، أخذ البديع - كزميليه - ينحدر رويداً رويدا إلى هاوية الإسفاف والإنحطاط ، ويفقد صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الإشراق والإعجاب ، ويتعثر في قيود ضيقة قدها له المنطق والفلسفة ، حتى صار هم العلماء تعديد ألوانه والاكتفاء بتحديدها كما تحدد الكلمات اللغوية ، وسوق الأمثلة التقليدية التي يتوارثونها لكابر عن كابر ، حتى أصبحت الكتب الكثيرة التي ألفت فيه بعد السكاكي كأنها كتاب واحد ، فمن وقف على أحدها غنى به عما عداه . . . وقد زاده تعثراً على مر الزمن وقوعه فريسة للشراح والمقررين الذين يرون أن الحذق والتمهر إنما يظهران في العناية بالجدل الذي لايفيد»(٢) .

لذلك فإن جل ذلك الجهد في هذه الشروح إنما هو جمع وتكرار وشروح وتقارير ، ومع هذا فلابد من تقدير ذلك الجهد الذي قاموا به خدمة منهم للبيان العربي ، ونحاول الاستفادة من جهودهم ، لكننا نرفض أن نجمد عندها .

---

(١) أسرار البلاغة ٣٤ ، ٣٥ ، هـ . ريتر .

(٢) انظر الصبغ البديعي في اللغة العربية ، د . أحمد موسى ٢٤٣ .

ويأتي بعد السكاكي ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) الذي يعد كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) نموذجاً للتآليف القديمة التي مزجت بين البلاغة والنقد والأدب ، ومن أهم ماتناوله مما يتعلق بموضوعنا أسلوب (الإبهام) الذي يسميه (الموجه) ، يجعله أحد أقسام تأويل المعنى ، فتأويل المعنى عنده ثلاثة أقسام : إما أن يفهم منه شيء واحد لايحتمل غيره ، وإما أن يفهم منه الشيء وغيره، وتلك الغيرية إما أن تكون ضداً ، أو لا تكون ضداً ، ثم يحشد لهذا الأسلوب الأمثلة من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، والشعر العربي (١) .

ويأتي بعده ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) وكتابه (تحرير التحبير) الذي يخطو به البديع خطوات واسعة ويطفر طفرة بعيدة ، حيث وصلت فنون البديع على يديه إلى التسعين ، وأضاف إليها من مستخرجاته ثلاثين ، سلم له منها عشرون(٢) تناول منها مما يتصل بموضوعنا (الاستطراد) يعرفه ، ويرى أن غالب وقوعه في الهجاء ، ويمثل له من القرآن الكريم والشعر (٣) .

ويتناول (الهجاء في معرض المدح) فيعرفه ، ويقسمه إلى نمطين ويسوق الأمثلة لكل قسم ، ثم يفرق بينه وبين التهكم الاصطلاحي (٤) .

ويتناول ابن أبي الإصبع « الإبهام » فيعرفه ، ويسميه بهذا الاسم ، فكان أول من تخير هذه التسمية (٥) ثم يسوق له الأمثلة (٦) ، كما يتناول أسلوب

---

(١) المثل السائر ، ١/ ٦٤ - ٦٦ .

(٢) الصبغ البديعي ٢٧٧ .

(٣) تحرير التحبير ١٣٠ .

(٤) المرجع السابق ٥٥٠ - ٥٥٢ .

(٥) انظر شرح عقود الجمان ، ابن مرشد ، ٢/ ١٣٢ .

(٦) تحرير التحبير ٥٩٦ - ٥٩٨ .

(الهزل الذي يراد به الجد) فيعرفه ويجمع له الأمثلة (١) ، ويعقد (لتجاهل العارف) باباً ، فيعرفه ، ويقول : « وقد سماه مَنْ بعدَ ابن المعتز بالإعنات »(٢) والإعنات شيء آخر عند ابن المعتز وغيره ، وابن المعتز يسمي هذا النوع (تجاهل العارف) (٣) ثم يقسم ابن أبي الإصبع التجاهل إلى قسمين يسوق الأمثلة القرآنية والشعرية عليهما(٤) .

كما يعقد (للتهكم) باباً ، يعرفه في اللغة والاصطلاح ، ويسوق له الأمثلة من القرآن الكريم والشعر ، ويفرق بينه وبين الهزل الذي يراد به الجد(٥) .

ثم يأتي ابن الأثير الحلبي (ت ٧٣٧ هـ) صاحب كتاب (جوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة) ، فيعقد باباً (للهجاء) يعرفه فيه ثم يذكر بعض المستحبات في الهجاء ، ويرى أن أشد الهجاء ماعف لفظه ، وصدق معناه ، ومن وضيعه ماخرج مخرج التهكم والاستهزاء وتجاهل العارف ، ويجمع في هذا الباب أمثلة كثيرة ساخرة (٦) .

ويتناول ابن الأثير الحلبي كذلك أسلوب (الهجاء في معرض المدح)(٧)

---

(١) تحرير التحبير ١٣٨ .

(٢) المرجع السابق ١٣٥ .

(٣) البديع ٦٢ .

(٤) تحرير التحبير ١٣٥ - ١٣٧ .

(٥) المرجع السابق ٥٦٨ - ٥٧٠ .

(٦) جوهر الكنز ٣٠٩ .

(٧) المرجع السابق ٣٠٥ .

و(الهزل الذي يراد به الجد)(١) و(تجاهل العارف) (٢) و (التضمين) (٣) فيعقد لكل واحد منها باباً ، ويعرف كل أسلوب ويقتصد في إيراد الأمثلة .

وأما يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩ هـ) فقد جمع في كتابه (الطراز) كثيراً من الأساليب البلاغية مما يتعلق بأسلوب التهكم والسخرية ، من ذلك حديثه عن (وضع المظهر في موضع المضمر) حيث يفطن إلى أن ذلك قد يرد على جهة الإنكار وشدة الغضب والتهكم (٤) ، ومن ذلك أيضاً أنه قسم البديع المعنوي إلى أصناف ، فجعل للإبهام صنفاً سماه (التوجيه) فيعرفه ، ولكنه يدخل فيه تأكيد المدح بما يشبه الذم والإدماج (٥) ، ومن أصناف البديع اللفظي عنده (الهزل الذي يراد به الجد) حيث يلحقه بتجاهل العارف ، ويرى أن بينهما تماثلاً وإن كان بينهما تفرقة ظاهرة (٦) ويعد (التهكم) في أصناف البديع المعنوي ، ويرى أنه يرد على أوجه خمسة ، وليس له ضابط يضبطه ، وإنما الجامع لشتات معانيه هو إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر (٧) .

وفي أواخر المائة الثامنة ، وأوائل التاسعة عاش علم من أعلام البديعيات واستحوذت بديعيته من بينها على مكانة ممتازة في قلوب الناس ، ذلك هو ابن حجة

---

(١) جوهر الكنز ٢١١ .

(٢) المرجع السابق ٢٠٨ .

(٣) المرجع السابق ٢٦٢ .

(٤) الطراز ٢/ ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٥) المرجع السابق ، ٣/ ١٣٦ - ١٣٨ .

(٦) المرجع السابق ، ٣/ ٨٢ .

(٧) المرجع السابق ، ٣/ ١٦١ - ١٦٤ .

الحموي (ت ٨٣٧ هـ) وأشهر آثاره بديعيته التي سماها (تقديم أبي بكر) وشرحها الذي دعاه (خزانة الأدب وغاية الأرب) وهو مجموع أدب جيد سوى أنه وقع فيما وقع فيه غيره من رجال البديع من الخلط بين مسائل البيان ومسائل البديع (١) ويعقد ابن حجة لجل الأساليب البديعية التي تأتي منها السخرية أبواباً .

ويشيع الحديث عن السخرية والتهكم ويكثر عند المفسرين ، فنجدهم يعللون كثيراً من الأساليب بأنها ساخرة متهكمة ، أو أن المقصود منها الاستخفاف والهزء ، نجد ذلك خصوصاً عند الزمشخري (ت ٥٣٨ هـ) صاحب (تفسير الكشاف) الذي يكثر عنده التعليل بالسخرية ، فيعلل مثلاً تسمية « أبي لهب » بهذه الكنية بأنه من قبيل التهكم به(٢) ، ويعلل الإضافة في قوله تعالى : ﴿ **أين شُرَكَاءِي** ﴾ (٣) بأنه من قبيل التهكم به(٤)، والاستفهام في قوله تعالى ﴿ **قالوا يشعيب أصلوتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء ...**﴾(٥) بأنه استفهام تهكم وهزء وطنز (٦) ، والأمر في قوله تعالى : ﴿ **فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ (٧) في أمر

---

(١) انظر الصبغ البديعي ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ .

(٢) تفسير الكشاف ، ٤/ ٢٤٠ .

(٣) بعض الآية (٢٧) من سورة النحل .

(٤) تفسير الكشاف ، ٢/ ٣٢٦ .

(٥) الآية (٨٧) من سورة هود .

(٦) تفسير الكشاف ، ٢/ ٢٢٩ .

(٧) بعض الآية (٢٣) من سورة البقرة .

المشركين أن يستظهروا بالجماد الذي لاينطق في معارضة القرآن المعجز بفصاحته غاية التهكم بهم(١) .

والزمخشري من أوائل من أشار إلى أسلوب (الاستعارة التهكمية) ولكنه يسميه (العكس في الكلام) يقول : « وأما ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء » (٢) ، ويقول : « والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع ، وقد جاء في كتاب الله . . » (٣) .

ونجد مثل ذلك أيضاً عند أبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت٩٥١هـ) في تفسيره المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) من ذلك مثلاً قوله في قوله تعالى : ﴿ **وقالوا يأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾ (٤) خاطبوا به رسول الله (ﷺ) لا تسليماً لذلك واعتقاداً له بل استهزاءً(٥) .

ومن المفسرين العلامة أبو الفضل السيد محمود الألوسي (ت١٢٧٠هـ) صاحب التفسير المسمى (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) فنجده يعرف السخرية (٦) ، وكثيراً مانجد عنده التعليل بالسخرية والتهكم ،

---

(١) تفسير الكشاف ، ١/ ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ١/ ٥١ .

(٣) المرجع السابق ، ٢/ ٣١٠ .

(٤) الآية (٦) من سورة الحجر .

(٥) تفسير أبوالسعود ، ٥/ ٦٦ .

(٦) تفسير روح المعاني ، ٢٦/ ١٥٢ .

فيقول مثلاً في قوله تعالى : ﴿ **قل كونوا حجارة أو حديدا ..** ﴾(١) ومعنى الأمر كما قيل الاستهانة (٢) ، ويشير إلى الاستعارة التهكمية في قوله تعالى : ﴿ **إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾(٣) يقول : « وصفوه عليه السلام بهذين الوصفين الجليلين على طريقة الاستعارة التهكمية» (٤) ، وفي قوله تعالى : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾(٥) ، يقول : « أي ويقال قولوا له ذلك استهزاءً وتقريعاً على ماكان يزعمه» (٦) .

وبعد هذه الجولة القصيرة في رياض وكتب الأقدمين يتضح جلياً ما للسخرية من شيوع وذيوع وانتشار وعناية ، وأنها أسلوب أصيل ، وإن كانت لم تفرد بكتاب إلا أنها تكاد تكون ظاهرة واسعة مبثوثة في كثير من كتب الأدب والنقد والتفسير وشروح الدواوين ، وفي معظم أبواب البلاغة بمختلف فنونها ، وهذا ماسيتضح في الفصول التالية التي نتتبع فيها أسلوب السخرية وأمثلته في جل أبواب البلاغة .

---

(١) بعض الآية (٥٠) من سورة الإسراء .

(٢) تفسير روح المعاني ، ١٥/ ٩١ .

(٣) بعض الآية (٨٧) من سورة هود .

(٤) تفسير روح المعاني ، ١٢/ ١١٨ .

(٥) بعض الآية (٤٩) من سورة الدخان .

(٦) تفسير روح المعاني ، ٢٥/ ١٣٤ .

الفصل الأول

السخرية في أساليب علم المعاني

ويشمل

- السخرية باستعمال الكلمات غير الفصيحة .
- التعريف الساخر
- السخرية في وضع المظهر موضع المضمر .
- الاستفهام الساخر .
- الأمر الساخر .
- النهي الساخر .
- النداء الساخر .
- التكرار الساخر .

السخرية باستعمال الكلمات غير الفصيحة

يقرر البلاغيون أن من شروط فصاحة الكلمة ، خلوصها من تنافر الحروف والغرابة .

فالتنافر منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان ، وعسرة عند النطق بها ، كما رُوي أن أعرابياً سئل عن ناقته ، فقال : تركتها ترعى الهعخع(١)

والغرابة أن تكون الكلمة وحشية غير مأنوسة عند العرب الخلص ، فلا يظهر معناها ويحتاج في معرفته إلى أن ينفر عنه في كتب اللغة المبسوطة ، كما روى عن عيسى ابن عمر النحوي أنه سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس ، فقال : مالكم تكأكأتم عليَّ تكأكؤكم على ذي جِنّة افرنقعوا عني (٢) .

---

(١) بغية الإيضاح ١/ ١٢ .

(٢) بغية الإيضاح ١/ ١٣ ، ١٤ .

وقيل إن من شروط الفصاحة أيضا ، خلوص الكلمة من الكراهة في السمع ، بأن تمج الكلمة ، وينفر من سماعها ، كما ينفر من سماع الأصوات المنكرة ، فإن اللفظ من قبيل الأصوات ، والأصوات منها ما تستلذ النفس سماعه ، ومنها ما تكره سماعه (١) .

ويعد البلاغيون من فصاحة الكلام خلوه من تتابع الإضافات ، يقول عبدالقاهر الجرجاني عن تتابع الإضافات : « ومن شأن هذا الضرب أن يدخله الاستكراه » (٢) ، ثم ينسب عبدالقاهر قولا إلى الصاحب ينهى فيه عن الإضافات المتداخلة ؛ لأنها لاتحسن، وأشار إلى أنها تستعمل في الهجاء ، يقول : « قال الصاحب : إياك والإضافات المتداخلة ، فإن ذلك لا يحسن ، وذكر أنه يستعمل في الهجاء ، كقول القائل :

يا علي بن حمزة بن عمارة أنت والله ثلجة في خياره

ثم يعلق بقوله : ولا شبهة في ثقل ذلك في الأكثر ، ولكنه إذا سلم من الاستكراه لطف وملح » (٣) .

إن هذه المواضع التي ذكرناها وغيرها مما لم نذكر قد عدها البلاغيون والنقاد عيوباً تخل بالفصاحة ، وجعلوا خلو الكلام منها شرطا لفصاحته ، ولكن هذه العيوب قد ترد في سياق ما تكتنفها أحوال وقرائن ذات دلالة معينة ، تجعلها ترقى إلى درجة البلاغة .

إن غرابة الكلمة ، وتنافر حروفها ، وثقلها على اللسان ، يولد عند النطق بها أصواتا تنفر منها الأسماع ، وتكرهها الطباع ، والنفس البشرية مجبولة على حب

---

(١) بغية الإيضاح ١/١٦ .

(٢) دلائل الإعجاز ١٠٤ .

(٣) المرجع السابق ١٠٤ .

الأصوات الجميلة المتناسقة المتلائمة والكلمات المأنوسة المعروفة ، فإذا ما سمعت صوتا منكرا ، أو معنى غريبا انكمشت له قسمات وجهك ، وانزعجت نفسك ، ونفرت عنه .

وقد يستغل الشاعر والأديب الموهوب هذه الانفعالات والمثيرات ، فيوظفها في نصوصه للوصول إلى أغراض ودلالات معينة ، ومن هذه الدلالات والأغراض ، أن يقصد الأديب من استعماله لكلمات غريبة وحشية غير مأنوسة أو ذات حروف متنافرة مستكرهة ، - أن يقصد - السخرية والتهكم بالمخاطب .

فيكون كلامه مضحكا ساخرا ؛ بسبب الألفاظ ذاتها ، إذ هي تبعث على الهزء والسخرية لغرابتها ، وتنافر حروفها ، وزنينها المزعج (١) .

فبعض الشعراء لديه عبقرية في الحس اللفظي تلتئم فيها الألفاظ - من حيث هي حروف وأصوات - بالصور والمعاني التئاما عجيبا تغري السامع بمجرد سماعه لها وقبل أن يتبين معناها بالضحك (٢) .

وفي معجمنا اللغوي كلمات استعملها العرب للدلالة على معان معيبة ، فيها معنى الذم والتقبيح ، من ذلك ماجاء في « الصاحبي » لابن فارس ، حيث عقد بابا في زيادات الأسماء ، يقول فيه : « ومن سنن العرب ، الزيادة في حروف الاسم ، ويكون ذلك إما للمبالغة ، وإما للتشويه والتقبيح [ثم يقول] سمعت من أثق به قال : تفعل العرب ذلك للتشويه ، يقولون للبعيد مابين الطرفين المفرط الطول « طرماح » فشوه الاسم لما شوهت الصورة ، ويجيء في قياس ذلك قولهم « رعشن » للذي يرتعش ، و « خلبن » فامرأة خلبن ، وهي الخرقاء ، و « زرقم » للشديد الزرق ، و « صلدم » للناقة الصلبة ،

---

(١) انظر السخرية في الأدب العربي ٤٢ .

(٢) انظر الهجاء والهجاءون في العصر الجاهلي ٣٦ .

و«شدقم » للواسع الشدق ، ويكون من الباب ، قولهم للكثيرة التسمع والتنظر «سمعنة ، ونظرنة»(١) .

فالتشويه والتقبيح بهذه الزيادات يجعل هذه الأسماء مؤهلة لأن تستعمل استعمالا ساخراً .

ويورد الثعالبي أيضا في كتابه « فقه اللغة » أسماء لبعض العيوب الجسمية وصفات النقص الخلقية ، فيعقد فصلا عن « السمن » مثلاً (٢) ، والسمن مثار السخرية في كثير من الأحيان ، والرجل السمين أو المرأة المكتنزة تغري بالسخرية والتهكم ، يقول الثعالبي مرتباً درجات السمن :

« رجل سَمينٌ ، ثم لَحِيم ، ثم شَحِيم ، ثم بَلَنْدَح ، وعَكَوَّك ، وامرأة سَمينة ، ثم رَضْرَاضَة ، ثم خَدَلَّجَة ، ثم عَرَكْرَكَة ، وعَضَنَّكَة » .

فوصف رجل بأنه بلندح ، أو عكوك ، أو وصف امرأة بأنها رضراضة أو عضنكة، هذه الأوصاف والألفاظ بما فيها من غرابة وكراهة في السمع ، تثير في نفوس سامعيها الضحك والسخرية .

وعقد الثعالبي أيضا بابا في « ترتيب الطول والقصر » ، وهما من الصفات الجسمية التي إن أفرطت أثارت حولها الضحكات ، واستجلبت لصاحبها السخريات ، يقول الثعالبي :

« رجل طَوِيل ، ثم طُوَال ، فإذا زاد فهو شَوْذَب ، وشَوْقَب ، فإذا دخل في حد ما

---

(١) الصاحبي ١٢٢ .

(٢) فقه اللغة ، للثعالبي ٤٨ .

يذم من الطول ، فهو عَشَنَّط وعَشَنَّق ، فإذا أفرط طوله وبلغ النهاية فهو شَعَلَّعْ ، وعَنَطْنَطْ ، وسَقَعْطَرَى » (١) .

أما ترتيب القصر « فرجل قصير ، ودَحْدَاحٌ ، ثم حَنْبَل ، وحَزَنْبل ، ثم حِنْزَاب ، وكَهْمَش ، ثم بُحْتُر ، وحَبْتَر ، فإذا كان مفرط القصر يكاد الجلوس يوازيه ، فهو حِنْشَار ، وحَنْدَل ، فإذا كان كأن القيام لايزيد في قده ، فهو حِنْزَقْرَة » (٢) .

معظم هذه الألفاظ في أوصاف الطول والقصر حين يكون مفرطا ومذموما ، السمة الغالبة والظاهرة فيها تنافر حروفها ، وكراهتها في السمع ، ثم إنها غريبة وحشية غير مأنوسة أو جارية على الألسن ، فإذا أطلق أحد هذه الألفاظ على شخص جعله عرضة للسخرية والضحك .

وقد تنبه كثير من الشعراء ذوي الحس اللغوي اليقظ والروح الساخرة الفكهة إلى ذلك ، فوظفوا هذه الألفاظ للنيل من خصومهم ومهجويهم والسخرية منهم والعبث بهم .

فهذه الكلمات برنينها وأصواتها المتنافرة وغرابتها إذا أطلقت على شخص ، أو سمي بها أحد ، أثارت السخرية وأشاعت الضحك حوله .

ويتناول أبو هلال العسكري في « الصناعتين » قضية تتعلق باستعمال الغريب والعسر المتكلف من اللغة ، ويرى أن للكلام طبقات ومنازل ينبغي أن تقسم على طبقات الناس ومنازلهم ، فإذا اختل ذلك كان مدعاة للتهكم والسخرية ، جاء في الصناعتين : «وإذا كان موضوع الكلام يقصد به الإفهام ، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس ، فيخاطب السوقي بكلام السوقة ، والبدوي بكلام البدو . . . ولا يكلم

---

(١) فقه اللغة ، للثعالبي ٦٣ .

(٢) المرجع السابق ٦٤ .

سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ؛ لأن ذلك جهل بالمقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام ، وأحسن الذي قال (لكل مقام مقال) . . . فلا ينبغي للإنسان أن يتكلم بفاخر الكلام ونادره ورصينه ومحكمه إلا عند من يفهمه عنه ويقبله منه ؛ لأن العامي إذا كلمته بكلام العلية سخر منك ، وزرى عليك كما روي عن بعضهم أنه قال لبعض العامة : بم كنتم تتنقلون البارحة ؟ - يعني على النبيذ فقال : بالحمالين . . ولو قال له : أي شيء كان نقلكم ؟ لسلم من سخريته . . فينبغي أن يخاطب كل فريق بما يعرفون ويتجنب ما يجهلون » (١) .

ويذكر الجاحظ مثل هذا ، فيقول : « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا ، وساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا ، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقي رطانة السوقي ، وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في طبقات فمن الكلام ، الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسمج والخفيف والثقيل ، وكله عربي ، وبكل قد تكلموا » (٢) .

ثم يعقد الجاحظ فصلا يجمع فيه كثيرا من كلام النوكى ، والموسوسين ، والجفاة، والأغبياء ، وما ضارع ذلك وشاكله (٣) .

ويورد أبو هلال العسكري أمثلة كثيرة لبعض من غلب عليهم سوء الرأي ، وقلة العقل، فيخاطبون السوقي والمملوك والأعجمي، بألفاظ أهل نجد، ومعاني أهل السراة .

من ذلك مايرويه عن أبي علقمة ، إذ قال لحجام له : « اشدد قصب الملازم ، وأرهف ظباة المشارط ، وأمر المسح ، واستنجل الرشح ، وخفف الوطء ، وعجل

---

(١) انظر الصناعتين ٣٩ ، ٤٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٤٤ .

(٣) المرجع السابق ٤/ ١ .

النزع ، ولا تكرهن أبيا ، ولا تمنعن أتيا . . [فأجابه الحجام ساخرا] : ليس لي علم بالحروب » (١) .

ومن ذلك أيضا ما يرويه العسكري عن بعض الرواة ، قال : كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم إلا بالغريب ، فخرج إلى ضيعة له على حجر (أنثى الخيل) معها مهر ، فأفلتت فذهبت ومعها مهرها ، فخرج يسأل عنها . . فمر بخياط فقال : يا ذا النصاح ، وذات السم الطاعن بها في غير وغى لغير عدى ، هل رأيت الخيفانة القباء يتبعها الحاسن المسرهف ، كأن غرته القمر الأزهر ينير في خضرة كالخلب الأجرد . . فقال الخياط : اطلبها في تزلخ ! فقال : ويلك وما تقول قبحك الله فما أعلم رطانتك . . فقال : لعن الله أبغضنا لفظا وأخطأنا منطقا (٢) .

إجابة الخياط هنا على هذا المتكلف غاية في التهكم والسخرية ، فقد أورد عليه كلمة غريبة من تأليفه ليعجزه ، ويتهكم به .

ومن ذلك ما يروى عن أبي علقمة أيضا ، أن رجلا نظر إليه وتحته بغل مصري حسن المنظر ، فقال : إن كان مخبر هذا البغل كمنظره فقد كمل ، فقال أبو علقمه : والله لقد خرجت عليه من مصر فتنكبت الطريق مخافة السراق وجور السلطان ، فبينما أنا أسير في ليلة ظلماء ، قتماء طخياء ، مدلهمة ، حندس ، داجية ، في صحصح أملس ، إذ أحس بنبأة من صوت نغر ، أو طيران ضوع ، ونغض سبد ، فحاص عن الطريق متنكبا لعزة نفسه وفضل قوته ، فبعثته باللجام فعسل ، وحركته بالركاب فنسل ، وانتعل الطريق يغتاله معتزما ، والتحف الليل لا يهابه مظلما ، فوالله ما شبهته إلا بظبية نافرة تحفزها فتخاء شاغية .

---

(١) الصناعتين ٣٧

(٢) المرجع السابق ٣٧ ، ٣٨ .

قال الرجل : ادع الله وسله أن يحشر هذا البغل معك يوم القيامة ، قال : ولم ؟ قال : ليجيزك الصراط بطفرة ! (١) .

ما أتعس أبو علقمة بهؤلاء الساخرين ، يبدءونه بالسؤال ، حتى إذا أخرج ما عنده ، سخروا منه ، وضحكوا من كلامه ، ولكن ما عليه إذا خاطبهم بما يفهمون ، وأنزل الناس على قدر منازلهم فيتجنب الغريب والوحشي حتى يجنب السخرية والتهكم .

ومما يروى عن أبي علقمة أيضا ، أنه قال لطبيب : أجد رسيسا في أسناخي ، وأرى وجعا مابين الوابلة إلى الأطرة من دايات العنق . . . فقال الطبيب : هي هي هذا وجع القرشي ، قال : وما يبعدنا عنهم ياعدو نفسه ، نحن من أرومة واحدة ، ونجل واحد ، قال الطبيب : كذبت ، وكلما خرج هذا الكلام من جوفك كان أهون لك ، قال : بل لك الهوان والحقارة والسباب ، اخرج عني قبحك الله(٢) .

ويبدو أن هذا الطبيب عارف بأبي علقمة وتكلفاته ، فأراد أن يسخر منه ويتهكم به، وإلا فما وجع القرشي ! ، وقد فطن أبو علقمة - على غفلته - لسخرية الطبيب ، ويبدو أنه لكثرة تهكم الناس به وسخريتهم من تكلفاته ، أصبح يتوجس منهم مثل تلك الإجابات الساخرة .

ويروى أنه كان له جارية ، وكان يهواها ، فقال لها : يا خريدة ، قد كنت أخالك عروبا ، فإذا أنت نوار ، مالي أمقك وتشنئيني ، قالت : يارقيع ، مارأيت أحدا يحب أحداً فيشتمه (٣) .

---

(١) الصناعتين ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) المرجع السابق ٣٩ .

هكذا عرّض أبو علقمة نفسه لسخرية هذه الجارية بهذا التكلف ، فلو خاطبها بما تعرف لسلم من سماع ما يزيد في نكده .

ومما جاء في ذلك مما يتمثل به كثير من البلاغيين ، ما يروى عن أبي علقمة النحوي ، أنه سقط عن حماره ، فاجتمع عليه الناس ، فقال : مالكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذي جنة ! افرنقعوا عني(١) .

فالاستفهام منه إنكاري توبيخي ساخر متهكم ، لقد أغاظوه بتجمهرهم حوله ، فأراد أن يسخر منهم بعد أن ضاق وضجر من هذا التجمع والتجمهر ، ومن الطبعي أن أي شخص يكون سائرا في سوق أو طريق ، فيعثر أو يسقط أمام الناس أن يشعر بالحرج والخجل ، ويكره تجمع السفهاء والشامتين حوله ، وهذا حال صاحبنا ، فكأني أراه منطرحا في وسط الطريق ، يحاول أن يحرك جسمه ، وقد اجتمعت حوله الرءوس ، وتعالت من فوقه الضحكات ، فقام متحاملا على نفسه مستعينا بحماره ، يقبحها ويشتمها ؛ لأنها خذلته ، وينفض ماعلق بأطرافه من التراب ، ويصلح مااختل من هندامه، ويصرخ في وجه الشامتين المتجمهرين حوله ، متهكما وساخرا من سخافة عقولهم .

ويؤكد هذا الفهم الساخر المضحك ويقويه رواية الجاحظ للقصة ، حيث يقول : مر أبو علقمة النحوي ببعض طرق البصرة ، وهاجت به مرة ، فوثب عليه قوم منهم ، فأقبلوا يعضون إبهامه ، ويؤذنون في أذنه ، فأفلت منهم ، فقال : مالكم تتكأكئون علي كما تكأكئون على ذي جنة ، افرنقعوا عني ، قال : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية (٢) .
فالمقام كما نرى مقام سخرية وهزء وضحك وتهكم .

---

(١) انظر الصناعتين ٣٧ ، وسر الفصاحة ٦٧ ، وبغية الإيضاح ١/ ١٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

ومن الإشارات التي تدل على أن استعمال الغريب والمتنافر ربما كان لقصد السخرية تعليق بعض البلاغيين على قول بعض الأعراب حينما سئل عن ناقته ، فقال : تركتها ترعى الهعخع !

يعلق صاحب البغية على هذه الحادثة ، فيرى أن هذا الجواب من الأعرابي قد يكون معاياة لا أصل لها (١) ، والمعاياة هي ، أن تأتي بكلام لا يهتدى له (٢) .

ولا شك أن « الهعخع » كلمة غريبة ، وحشية متنافرة الحروف ، عسيرة على اللسان ، تكرهها الأسماع . وقد روي أن الخليل بن أحمد ، قال : سمعنا كلمة شنعاء ، وهي « الهعخع » ، وأنكرنا تأليفها ، وسئل عنها أيضا الثقات من علماء اللغة فأنكروها ، وما عرفوها (٣) .

إذن فالأغلب أنه لا أصل لها ، فلماذا أجاب بها ذلك الأعرابي على سؤال القوم؟

لم يقصد الأعرابي إلا أن يسخر بأولئك الذين جاءوا يهرعون إليه ، يسألونه عن ناقته ، ولأمر ما أجابهم بتلك الإجابة الساخرة ، فجعلهم في حيرة واضطراب يقلبون رءوسهم بحثا عن معنى لهذه الكلمة ، بينما هو ينام ملء جفونه .

ومن الشعراء الهجائين من برع في استعمال هذه الكلمات الغريبة ، المتنافرة الحروف فوظفها في شعره للنيل من خصومه والسخرية بهم ، وليس كل الشعراء يتأتى له ذلك ، فيفطن إلى استعمال هذا الأسلوب ، ولكن بعضهم يرزق إلى جانب معرفته بأساليب الهجاء عبقرية في الحس اللفظي تلتئم فيها الألفاظ - من حيث هي حروف تتوالى - بالصور التئاما عجيبا .

---

(١) انظر بغية الإيضاح ١/ ١٢ .

(٢) القاموس المحيط (عَيَّ) .

(٣) سر الفصاحة ٥٧ .

ومن أكثر الشعراء براعة في هذا المضمار جرير بن عطية ، فهجاؤه « يستفز القارئ للضحك قبل أن يروي في معناه ويحقق » (١) .

وكثيرا ماكان جرير يستعمل الألفاظ التي تدل على الهزء والسخرية ، لغرابتها وموسيقاها ، فكثرت في هجائه الكلمات الغريبة المتنافرة الحروف ، مثل : «جوخى» و«خجخج» ، و«النخوار» ، و«الجيثلوط» ، و«خضاف» و« خيضف» ، و«قذام» ، و«رقبان» و«صوطر»، و«رغوان» ، و«الجلوبق» .

ونلاحظ ما تشيعه هذه الألفاظ بموسيقاها ورنينها وغرابتها من إحساس بالهزء والتهكم(٢) .

فمن شعره الذي يهجو به الفرزدق ، قوله :(٣)

عُدُّو خَضَافِ ، إذا الفحولُ تُنُجِّبَتْ   والجَيْثَلُوطَ ، ونَخْبَةً خَوَّارا

وإذا فخرتَ بأُمهات مجاشعٍ   فافْخَرْ بقَبْقَب ، واذكر النِّخْوارا

معظم ألفاظ هذه الأبيات تبعث على السخرية بمجرد سماعها وقبل تبين معناها ، وتستعجل السامع بالضحك وإن لم يفهم ماتضمنت ، كلمات غريبة متنافرة الحروف كريهة في السمع ، فإذا ذهب المرء يفتش عن معناها وجد مايزيد في ضحكه وعجبه : خضاف ، الجيثلوط ، قبقب ، النخوار .

وانظر إلى قوله :(٤)

بئس الفوارس يا نَوار ، مُجاشعٌ   خُورٌ إذا أكلوا خَزِيراً ، ضَفْدَعُوا

---

(١) الهجاء والهجاءون في العصر الجاهلي ٣٦ .

(٢) انظر السخرية في الأدب العربي ٩٢ .

(٣) ديوان جرير ، بتحقيق د. نعمان طه ١/٥١٨ ، ٥١٩ .

(٤) المرجع السابق ٢/٩١٧.

وتأمل كلمة « ضفدعوا » واملأ فمك بالضحك .

ويقول أيضا : (١)

فإن مجاشعا فتعرفوهم بنو جوخى ، وخجخج ، والقذام

ما جوخى ، وخجخج ، والقذام !إنه حشد لهذا الغريب المجهول ينسب إليه أبوة مجاشع هزءا وسخرية بهم .

وجرير يختار للأخطل لقبا عجيبا يدل على ما يملكه هذا الشاعر من حس موسيقي في اختيار ما يضحك ، فهو يلقب الأخطل بـ (دوبل) ، وذلك لأنه كان نصرانيا يأكل الخنزير ، ثم يجعل ذلك اسما له يناديه به ، ويكرره في أبياته هازئاً وساخرا منه ، يقول : (٢)

بكى دوبل لا يرقئ الله دمعه ألا إنما يبكي من الذل دوبل

ومن ذلك قول ابن الرومي (٣) :

أصلعُ يُكنى بأبي الجَلَّحْتِ
حَبَلَّقٌ كالماعز الكَلْوَخْتِ
ذو هامةٍ مثلِ الصَّفاة المرتِ
تنصبُّ في مهوى جبينٍ صَلتِ
تبرقُ بالليل بريقَ الطِّسْتِ
صبَّحها الله بقَفْدٍ سَخْتِ
تعرفُهُ الأنباط بالبَذْنقتِ

---

(١) ديوان جرير ، بتحقيق د. نعمان طه ١/ ٢٠٦ .

(٢) المرجع السابق ١/ ١٤١ .

(٣) ديوان ابن الرومي ، شرح وتحقيق عبدالأمير مهنا ١/ ٤٤٢ .

وفـــارس الأحـــرار بالبَـــذْنَخْتِ
مـــعبَّسُ الوجــهِ طويلُ السَّكْتِ
كـــــأنما عضَّ على جُـلَّفْتِ
أثقلُ من طلعـــةِ يوم السَّـــبتِ
على ابن كُـــتَّـــابٍ بليـــدٍ هَبْتِ
مـــذبذب بين الجـــهـــاتِ الستِّ
ابنُ كـــبنتٍ ، وأخٌ كـــأختِ

افتن ابن الرومي في حشد هذا الكم من الكلمات الغريبة العجيبة ، فلا يكاد يخلو بيت من كلمة غريبة أو كلمتين ، جمع فيها بين العربي والمعرَّب ، في إيقاع خفيف سريع ، راقص ساحر ، على مافي تلك الألفاظ من تنافر في الحروف ، وصعوبة في النطق ، لكنها حينما تلامس الأسماع تبعث على العجب والضحك ، كلمات توحي بالهزء والاستخفاف بأصواتها المتنافرة ، من قبل أن تفتش عن معانيها : الجلحت ، حبلق ، الكلوخت ، . . . . .

ومما سبق يتضح أن الغرابة وتنافر حروف الكلمات ، وإن كان البلاغيون قد عدوها من عيوب الكلام إلا أنها يمكن أن تكون أحد الأساليب العالية ، وذلك إذا وردت في سياق التهكم والسخرية .

التعريف الساخر

يأتي المسند إليه نكرة ويأتي معرفه ولكل منهما مقام يستدعيه وسياق يقتضيه ، وكل منهما له مقامات لا تليق بالآخر (١) « والمعرفة ما دلت على شيء بعينه » (٢) ، وهي ست : المضمرات والأعلام ، وأسماء الإشارة ، والاسم الموصول ، ثم المعرف باللام ، ثم المضاف إلى واحد من هذه . « وهذه المعارف يتعلق بكل واحد منها معان دقيقة متعلقة بأسرار البلاغة » (٣) .

والمسند إليه محكوم عليه ، والأصل فيه أن يكون معينا ، إذ الحكم على المجهول لا يفيد إفادة تامة ، وكمال تعيينه بالتعريف ، كما أن وراء هذا التعريف أغراض بلاغية تؤكد المعنى وتقويه فإذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه فأتي به معرفا كانت الفائدة أتم .

يقول محمد علي الجرجاني ، مجملا فائدة تعريف المسند إليه : « إن المعرفة أخص من النكرة وكلما كانت أخص كلما كانت أتم دلالة على المراد ، لكونه أقل احتمالا لغير المراد من النكرة » (٤) .

فهذا هو الغرض العام من تعريف المسند إليه وهو إفادة المتكلم المخاطب الحكم إفادة تامة ثم إن لكل من أنواع التعريف أغراضاً وأسراراً .

ومن هذه الأغراض والنكات البلاغية – التي تعد ظاهرة قوية في التعريف – قصد المتكلم من تعريف المسند إليه إيقاع التهكم والسخرية بالشخص المعين ، إما بإهانته

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٤/ ٨٧ .

(٢) الطراز ٢/ ١١ .

(٣) انظر المرجع السابق ٢/ ١٢ .

(٤) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق د. عبدالقادر حسين ص ٣٦ .

وتحقيره ، أو رميه بالبلادة ، والغفلة ، والغباوة ، والخساسة ، وضعة المنزلة ، أو أنه ذلك البعيد أو القريب المحتقر المهان فيجعل البعد ذريعة للإهانة ، والقرب كذلك .

فإذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه بأحد أنواع المعارف كالعلمية ، أو الموصولية ، أو الإشارة ، أو الإضافة ، فإنه ربما يقصد بهذا التعريف السخرية والتهكم ، وحيث إن التعريف تخصيص وتعيين وتقوية للمعنى فإن السخرية هنا تكون واضحة قوية جلية .

أولاً : التعريف بالعلمية :

إذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه بالعلمية ، فإنه يعرف لأغراض ومعان عديدة ، ومن هذه الأغراض قصد الإهانة ، وذلك إذا كان العلم صالحا لمذمة أو إهانة ، سواء كان اسما أو كنية أو لقبا .

وذلك إذا كان العلم اسما قبيحا مذموما ، أو منقولا عن معنى خسيس ، ككلب ، وخنزير ونحوهما ، أو أن مسماه اشتهر بصفة مذمومة ، كبعض الأسماء التي اشتهرت بصفات مذمومة كمادر ، اسم شخص ، وتيم وباهلة اسمي قبيلتين ، أو كان كنية أو لقبا مشعرا بالذم ، كما في قوله تعالى : ﴿ **تبت يدآ أبي لهب وتب** ﴾(١)، وهو ليس من باب المسند إليه ؛ لأن المسند إليه في الآية « يدا » يقول أحمد بدوي : « وفي اختيار هذه الكنية من الذم ما ليس في الاسم ، وهذا هو السر في اختيارها » (٢) ونحن نعلم أن اسم أبي لهب هو عبدالعزى ، ولكن العدول عن ذكر هذا الاسم إلى ذكر الكنية فيه كما يرى الزمخشري وغيره ثلاثة أوجه ، كلها مشعرة بالذم والإهانة « ذلك أن هذه الكنية وافقت حاله ، إذ أن مآله إلى نار ذات لهب ، كما يقال للشرير «أبو الشر» أو أنه أريد

---

(١) الآية (١) من سورة المسد .

(٢) من بلاغة القرآن ، د. أحمد بدوي ١٣٤ .

تشهيره بدعوة السوء ، وأن تبقى سمة له ، وقيل كني بذلك لتلهب وجنتيه وتوقدهما»(١) فيجوز أن يذكر بذلك تهكما به وبافتخاره بذلك » وقد يكون المقصود بإيراد المسند إليه علما إهانة غير المسند إليه كقولهم : أبو الجهل رفيقك ، فإن في إيراده علما إهانة للمخاطب المضاف للمسند لصلته به وارتباطه معه (٢) .

وإذا كان العلم لقباً فربما كان صالحاً للذم أو الإهانة والمناداة بالألقاب من أقدم أساليب السخرية ، ولما كان لها وقع على النفوس وقوة في التأثير ، فقد خصها الله بالذكر والتعيين بعد أن نهى عن السخرية عموما ، يقول عز وجل مخاطبا عباده المؤمنين :

﴿ يـأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نسآء من نسآء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأوليـك هم الظـٰلمون ﴾(٣) .

وقوله تعالى : « ولا تنابزوا بالألقاب » أي لا يدع بعضكم بعضا باللقب ، ويقال نبزه لقبه ، وخص عرفا بما يكرهه الشخص من الألقاب(٤) . وجاء في القاموس «التنابز : التعاير ، والتداعي بالألقاب » (٥) .

واللقب في حقيقته اسم لقب به شخص لقصد مدحه أو ذمه ، فإذا كان هذا اللقب مشعرا بالإهانة والذم فإن مناداة الشخص به يعد من قبيل التهكم به والسخرية منه .

ومن ذلك سخرية الكفار وهزئهم من أبي بكر رضي الله عنه زمن الردة حيث كانوا يلقبونه (بأبي الفصيل) ، وربما استعملت بعض أسماء حيوانات ذات أشكال أو

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٤/ ٢٤٠ ، ٢٤١، وشرح المطول، للسيالكوتي ١٤٠ تصحيح الطرنوي .

(٢) انظر حاشية الدسوقي على شرح السعد ١/ ٢٩٨ . ط ضمن شروح التلخيص .

(٣) الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٤) انظر روح المعاني ٢٦/ ١٥٤ .

(٥) القاموس المحيط (النَّبْز) .

صفات معينة ، ألقابا تطلق على من شاركوا أو شابهوا هذه الحيوانات في أوصاف معينة ، كالشكل ونحوه ، كقولهم للسمين « يادرفيل» ، فيصبح هذا اللقب إذا أطلق عرف به ذلك الشخص ، وكذلك استعمال الصفات المعكوسة ، وهي عكس ما يتصف به الشخص حقيقة ، كتلقيب السمينة المكتنزة بالغزال الرشيق ونحوه ، وكذلك استعمال أسماء الرذائل ، وإضافتها إلى من يدعون التمسك بأهداب الفضيلة (١) .

وممن أكثر من الشعراء الساخرين من استعمال هذا الأسلوب ، الشاعر الأموي جرير بن عطية ، حيث كان يمتلك خيالا خصبا ، وحسا ساخرا جعلاه « من أخطر الساخرين في إطلاق الألقاب على خصومه ، يكررها في شعره ، ويفتن في عرضها حتى تصبح عند الناس حقيقة مؤكدة فهو يلقب الأخطل بـ « دوبل » ؛ لأنه كان نصرانيا يأكل الخنزير » (٢) يقول : (٣)

بكى دَوْبل ، لا يُرقئ الله دمعه ... ألا إنما يبكي من الذل دَوْبلُ

ويلقب بني نمير « بالتيوس » : (٤)

فصبراً يا تيوسَ بني نُميرٍ ... فإنَّ الحربَ مُوقدة شهابا

ويسمى الفرزدق « القرد » لقصره ودمامة وجهه : (٥)

إن الرزيةَ لا رزيةَ مثلها ... قردٌ يعلل نفسه بالباطل

ويلقبه أحيانا « بالقرد الأصلع » لجمعه الصلع إلى القصر والدمامة : (٦)

ولقد صَككْتُ بني الفَدَوْكَس صَكّةً ... فَلَقُوا كما لَقِيَ القُرَيْدُ الأصْلَعُ

---

(١) انظر السخرية في الأدب العربي ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) انظر الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ، د. محمد حسين ص ١٩٧ .

(٣) ديوان جرير ١/ ١٤١

(٤) المرجع السابق ٢/ ٨٢١ .

(٥) المرجع السابق ٢/ ٧٨٣ .

(٦) المرجع السابق ٢/ ٩١٢ .

ثانياً - التعريف بالإشارة

يقول الجاحظ : « ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت » (١) ، فالمتكلم يحتاج إلى أن يشير أحيانا كي يفهم ، فيرفع ويخفض ويبسط ويقبض ، فيبلغ بذلك إلى التعبير عن معان عديدة لم تكن لتتضح لولا هذه الإشارات .

ويقول : « وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة من الدل ، والشكل ، والتقتل ، والتثني ، واستدعاء الشهوة ، وغير ذلك من الأمور » (٢) .

ومتى ما اقتضى المقام الإشارة فجاءت في موضعها ، كانت عونا للفظ في التعبير عن المعاني المرادة .

وتكون الإشارة « باليد وبالرأس ، وبالعين ، وبالحاجب ، والمنكب ، وبالثوب ، وبالسيف ، وقد يتهدد رافعا السيف والسوط ، فيكون ذلك زاجرا ومانعا رادعا ، ويكون وعيدا وتحذيرا ، والإشارة واللفظ شريكان » (٣) .

وقد يقصد بهذه الإشارات الحسية السخرية من شخص وإضحاك الناس عليه ، وذلك عن طريق محاكاته في حركاته وإشاراته ، أو محاكاته في مشيته ، أو طريقة أكله ، أو كلامه ويحاول الساخر المقلد أن « ينقل شخصية المقلد برمتها ، ويجعلها رداء له يلبسه ويتماجن به كيفما يشاء ، فكأنما هو يمسخه بمبالغته في إظهار عيوبه وتكبيرها » (٤) .

وتكون الإشارة هنا أبلغ في دلالتها على السخرية من لو أخذ الساخر يعدد معايب الرجل ويفندها ، يقول الجاحظ في ذلك : « والإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هي له ، ونعم الترجمان هي عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تغني عن الخط » (٥) .

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٧٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ١/ ٧٧ .

(٤) انظر السخرية في الأدب العربي ٣٧ .

(٥) البيان والتبيين ١/ ٧٨ .

ونقل الألوسي في تفسيره عن القرطبي تعريفه للسخرية ، بأنها التنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه ، وأنها قد تكون بالمحاكات بالفعل ، أو القول ، أو الإشارة أو الإيماء ، أو الضحك على كلام المسخور منه إذا تخبط فيه أو غلط ، أو على صنعته ، أو قبح صورته (١) .

ولفرط تأثير الإشارة الساخرة ، ووقعها على النفوس ، نهى الله عنها في كتابه الكريم ونص عليها صراحة حينما نهى المؤمنين عن السخرية ، قال تعالى : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ (٢)

أي لا يعيب بعضكم بعضا بقول ، أو إشارة ، جاء في القاموس : « اللمز : العيب والإشارة بالعين ونحوها ، والهمزة : العياب للناس » (٣) ، واللمز هو التنبيه على المعايب أو تتبعها ، وهو خاص بما كان من السخرية على وجه الخفية كالإشارة ونحوها (٤) .

هذا عن دلالة الإشارة الحسية على التهكم والسخرية ، أما الإشارة اللفظية فإنها وإن كانت لفظا إلا أنها أيضا تتضمن إحضار المشار إليه وتعيينه حساً ، فتكون هذه الإشارة معلومة ومتخيلة وحاضرة في ذهن السامع .

ينبه السكاكي على ذلك بقوله : « وأما الحالة التي تقتضي كون المسند إليه اسم إشارة فهي متى صح إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة حسا ، واتصل بذلك داع »(٥) .

---

(١) روح المعاني ٢٦/ ١٥٢ .

(٢) بعض الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٣) القاموس المحيط (لمز) .

(٤) روح المعاني ٢٦/ ١٥٣ .

(٥) مفتاح العلوم ١٨٣ .

ويرد المسند إليه اسم إشارة لأغراض بلاغية عدة ، منها قصد التهكم والسخرية من المشار إليه وإلحاق الهوان والحقارة به ، أو رميه بصفات النقص والبلادة والغباوة .

فمن ذلك قصد المتكلم إلى أن السامع غبي لا يتميز الشيء عنده إلا بالحس ، فيشير إليه ويعينه ويمثله أمامه محسوسا ، وكأنه يقول له : إنك بلغت من الغباوة درجة لا تفهم معها إلا إذا أُحضرت لك صورة الشيء ومُثلت أمامك تمثيلا ، فأنت ممن لا يفهم بالتلميح بل لابد معه من التصريح ، ومن ذلك قول الفرزدق يفخر على جرير بآبائه : (١)

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا ياجرير المجامع

والتعريض بالغباوة ناشئ من استعمال اسم الإشارة في آبائه وهم غائبون لموتهم(٢) ، وجرير من أعلم الناس بآباء الفرزدق ، والفرزدق يعلم أن جريرا يعلم ذلك ، إلا أنه لما كان في مقام الفخر بنفسه والاعتداد بآبائه ، وفي مقام الهجاء والسخرية من خصمه أراد أن يظهر خصمه في مظهر الغبي ، ويشعره بذلك متعاليا عليه مدلا برفعة آبائه ، فهو ينظر إليه ويخاطبه من ذلك البرج العالي الذي صنعه له آباؤه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه** ﴾(٣) .

بعد أن ذكر الله خلق السموات والأرض والجبال ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات الزرع بعد أن ذكر هذه النعم العظيمة الظاهرة توجه بالخطاب إلى المشركين بالإشارة إلى هذه المخلوقات ليحضرها أمامهم ؛ رميا لهم بالغباوة والبلادة والغفلة ، فهم لايميزون الأشياء إلا بالإشارة ، ولو كانوا غير ذلك لميزوا بين من هذا الخلق العظيم بعض

---

(١) ديوان الفرزدق ١/ ٤١٨ .

(٢) بغية الإيضاح ١/ ٩١ .

(٣) الآية (١١) من سورة لقمان .

صنعه وبين من يدعون من دونه ممن زعموا من الشركاء ، وهذا الخطاب خطاب تبكيت كما يقول الزمخشري (١) .

ومن أغراض مجيء المسند إليه معرفا باسم الإشارة ، بيان حاله في القرب ، أو البعد ، أو التوسط ، كقولك : هذا زيد ، وذلك عمرو ، وذاك بشر .

ثم يذكر البلاغيون أن هذه الأبعاد الحسية المكانية ربما استخدمت للدلالة على معان شعورية ، وذلك لأسرار بلاغية معروفة ، وأغراض بيانية مقصودة ، من ذلك قصد التحقير والسخرية فيعرف المسند إليه بالإشارة للقريب تنزيلا لدنو منزلته وانحطاط مرتبته منزلة قرب المسافة ، وقد يكون مع التحقير السخرية والتهكم ، فالمقام يحتمله بل ويقتضيه في كثير من الأحوال وذلك بحسب دلالة السياق ، وقرائن الأحوال ، ولننظر في هذه الأمثلة :

يقول الله سبحانه وتعالى ، يحكى مقالة الكافرين وهزءهم بالنبي ﷺ : ﴿ **وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهٰذا الذي يذكر ءالهتكم** ﴾(٢) .

وفي موضع آخر : ﴿**وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهٰذا الذي بعث الله رسولا** ﴾(٣) .

وكأن في اسم الإشارة للقريب في الموضعين مايشير إلى أن هذا الشخص القريب منا والذي نعلم من أموره وخفاياه ما نعلم ، ليس أهلا بأن ينال هذه المنزلة ، فلو أن الله حقا أراد أن يبعث رسولا لما كان هذا أحق بها ، فلو أنزل هذا القرآن على رجل من

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٣/ ٢١١ .

(٢) الآية (٣٦) من سورة الأنبياء .

(٣) الآية (٤١) من سورة الفرقان .

القـريتين عظيم ، أما هـذا فإنه ليس أهلا لهـا ، وفي الآيتين تصريح واضح أن المقالة هنا مقالة هازئ ساخر ، واشترك في الدلالة على هذه السخرية ذلك الاستفهام التهكمي ، وتلك الإشارة الساخرة ، ولا ريب أن عناصر وأطرافا كثيرة تشترك في الدلالة على معاني السياق .

ومن التعريف باسم الإشارة الذي وضع للقريب لقصد التحقير والتهكم ، وهو من غير باب المسند إليه ، من ذلك قول الهذلول بن كعب العنبري على لسان زوجته حينما رأته يطحن بالرحى لأضيافه ، والطحن من عمل النساء والإماء ، فأنكرت عليه وسخرت من حاله ، فضربت صدرها وقالت : أبعلي هذا ! « وفي الإشارة بالقريب إليه معنى الاستخفاف » (١) ، يقول الهذلول(*) : (٢)

تقولُ ودقَّتْ صـدرَها بيمينِهَا : أَبَعْلِي هـذا ، بالرَّحى المُتَقَاعِسُ

فرد عليها بقوله : (٣)

فقلتُ لهـا لاتَعْجلـي وتبيَّني فَعَـالي إذا التفَّتْ عليَّ الفوارسُ
لَعَمْـرُ أبيكِ الخيرِ ، إني لخـادمٌ لضيفي ، وإنِّي إنْ رَكبتُ لفارسُ

ومما يزيد المعنى وضوحا تصويره لحركتها ودهشتها حين رأته على تلك الحالة ، فدقت نحرها بيمينها ، ثم ذلك الاستفهام الذي فيه معنى التوبيخ والاستبعاد ، وأخيرا تصويرها للحالة المضحكة التي رأت زوجها عليها ، فهو مشمر اليدين ، مجموع الثياب ، منكبا على الرحا ؛ بحيث برز صدره إلى الأمام ، وتأخرت أردافه إلى الخلف ، وهو

---

(١) خصائص التراكيب أبوموسى ١٥٥ .

(*) الهُذلول بن كعب العنبري شاعر من أعيان العرب في الجاهلية . شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ١١٦ ، الأعلام ٨/ ٧٩ .

(٢) الحماسة ١/ ٣٥٣ .

(٣) المرجع السابق .

غارق في عمله ، « والقعس ضد الحدب ، وهو خروج الصدر ودخول الظهر » (١) وهذه الصورة الوضيعة لا تصلح للرجال .

وكما جعل القرب المكاني ذريعة للتحقير والسخرية ، فإن البعد يمكن أن يكون ذريعة لذلك أيضا ، كما يقال : « ذلك اللعين فعل كذا » تنزيلاً لبعده عن ساحة الحضور والخطاب وسفالة محله ، منزلة بعد المسافة ، فيعرف بالإشارة التي وضعت للبعيد للدلالة على معنى التحقير ، بقصد التهكم والسخرية (٢) .

ومن أغراض تعريف المسند إليه باسم الإشارة ، قصد التهكم والسخرية ، كقول من يهزأ بأعمى : هذا الهلال في السماء ! (٣) .

مع أنه يعلم أن المخاطب أعمى لايبصر ، فخطابه بالإشارة التي تفيد إحضار المشار إليه ماثلاً للعيان ليس سوى خطاب سخرية واستهزاء .

ثالثا - التعريف بالإضافة :

الإضافة هي أخصر طريق إلى إحضار المسند إليه في ذهن السامع ، وذلك متى لم يكن للمتكلم سبيل إلى إحضار المسند إليه في ذهن السامع سوى الإضافة (٤) .

---

(١) القاموس المحيط « قَعَس » .

(٢) انظر حاشية السيد على المطول ، السيد الشريف الجرجاني ٤٥ .

(٣) علوم البلاغة ١٠٧ .

(٤) مفتاح العلوم ١٨٦ .

ولتعريف المسند إليه بالإضافة معان أخرى ، وأغراض شتى تفهم من السياق ، فمن هذه المعاني أن تتضمن الإضافة الاستهزاء والتهكم ، نحو قوله تعالى على لسان فرعون يجادل موسى عليه السلام ، ويسخر منه ويتهكم به ، ويرميه بالجنون ، يقول عز وجل : ﴿ **قال فرعون وما رب العٰلمين ، قال رب السمٰوٰت والأرض وما بينهمآ إن كنتم موقنين ، قال لمن حوله ألا تستمعون ، قال ربكم ورب ءابآئكم الأولين ، قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾(١) .

فبعد هذه المجادلة ، وبعد ذلك التصعيد والانفعال من جانب فرعون ، وبعد أن أفحم لجأ كعادة المفحمين إلى إغلاق باب الحوار والتحول إلى السخرية ، والتهكم ، والتهجم ، والرمي بالتهم ، وادعاء الرفعة ، فسمى موسى رسولا بطريق الاستهزاء والسخرية ، وأضافه إلى مخاطبيه ترفعا وتعظيما لنفسه ، وتحقيرا لخصمه من أن يكون مرسلا إليه ، وأكد ذلك بالوصف ، وفيه إثارة لغضب المخاطبين وتهييجاً لهم ، واستدعاء لإنكارهم رسالته ، كيلا يتأثروا بصدق موسى ، ويترفعوا بأنفسهم عن أن يكونوا أهلا لأن يرسل إليهم مجنون (٢) .

والإضافة قد تفيد التحقير والاستهزاء بالمضاف ، كقولك : أبو الخائن حضر ، إذا قصدت التشهير به على الملأ والسخرية منه ، وقد يقصد بها التحقير والاستهزاء بالمضاف إليه كقولك : أخو إبراهيم لص ، وقول الشاعر يسخر من مهجوه :(٣)

---

(١) الآيات (٢٣ - ٢٧) من سورة الشعراء .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٩ ، وروح المعاني ١٩/ ٧٢ ، وتفسير التحرير والتنوير ١٩/ ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) شرح ديوان جميل ٥٥ قدم له إبراهيم جزيني .

أبوك حباب سارق الضيف برده وجدي يا حجاج فارس شمرا

فالإضافة في (سارق الضيف) أفادت التحقير والتهكم بأبي المخاطب الذي هو (حباب) .

وقد يقصد التحقير والاستهزاء بغير المضاف والمضاف إليه كقولك : (ولد اللص صاحب زيد) ففي الإضافة إهانة لزيد لأن ابن اللص من أصحابه .

وقد تفيد الإضافة توبيخ المخاطب والاستهزاء به (١) كما في قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أسٰطير الأولين ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا سآء مايزرون ، قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيٰنهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتٰهم العذاب من حيث لا يشعرون ، ثم يوم القيٰمة يخزيهم ويقول أين شركآءي الذين كنتم تشٰقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكٰفرين** ﴾(٢) .

يضحك المشركون من النبي ﷺ ويسخرون من الوحي ، فيقول بعضهم لبعض ، ساخرين ومتهكمين « ماذا أنزل ربكم ! » ويجيبون أنفسهم ساخرين « أساطير الأولين » كما قال فرعون من قبل : « إن رسولكم » بالإضافة ، فيرد الحق سبحانه وتعالى على سخريتهم هذه بذكر سنته في المستكبرين الساخرين ، فإنه يحصى أوزارهم ، بل ويزيد عليها من أوزار أولئك الأتباع الذين كانوا سببا في ضلالهم ، وأن ذلك المكر الذي يمكرونه، وتلك الأقاويل التي يفترونها ويتفكهون بها ، سيكون كل ذلك وبالاً عليهم في الدنيا ، وسيرد عليهم في الآخرة عذابا وخزيا وسخرية فيقول لهم الحق متهكما وموبخا وفاضحا : « أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم » ويردد على مسامعهم مقولتهم الآفكة، ويضيف لفظ الشركاء إليه تعالى حكاية لما كانوا يقولونه في الدنيا ، توبيخا لهم ، واستهزاء بهم ، ولا يخفى ما في هذه الإضافة من زيادة في توبيخهم والتهكم بهم ليست

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٢/ ٣٢٧ .

(٢) الآيات (٢٤ - ٢٧) من سورة النحل .

في أين أصنامكم مثلا لو قيل ، وفي ذلك خزي وإهانة بالقول ، وسبقه الخزي الفعلي بالتعذيب بالنار ، فجمع لهم بين الخزيين القولي والفعلي ، فعذاب الفعل يكون للبدن ، وعذاب القول يكون للنفس(١) .

ومثله قوله تعالى : **﴿ويوم يقول نادوا شركآءى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا﴾**(٢) .

رابعا - التعريف بالموصولية :

يقول عبدالقاهر في بيان أهمية الصلة وما فيها من أسرار : « اعلم أن لك في (الذي) علما كثيرا ، وأسرارا جمة ، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس وتثلج الصدر ، بما يفضي بك إليه من يقين ، ويؤديه إليك من حسن التبيين»(٣) .

وصلة الموصول ينبغي أن تكون معلومة عند السامع ؛ لأنها معرفة ولا يعرف بالمجهول فإنك إذا أردت أن تصل (الذي) بجملة من الكلام لا تصله إلا بجملة قد سبق للسامع علم بها وأمر قد عرفه ، نحو أن تجد عنده رجلاً ينشده شعراً فتقول له من غد : ما فعل الرجل الذي كان عندك بالأمس ينشدك الشعر ؟

ولكن (الذي) قد يأتي خبراً فتكون الجملة التي بعده غير معلومة للسامع علماً تاماً بل قد يكون علمه بها على الجملة كأن تقول : « هذا الذي قدم رسولاً البارحة » .

والحالة التي تقتضي كون المسند إليه موصولا « هي متى صح إحضاره في ذهن السامع بواسطة ذكر جملة معلومة الانتساب إلى مشار إليه واتصل بإحضاره بهذا الوجه

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٢/٣٢٦ ، ٣٢٧ ، وأبي السعود ٥/١٠٧ ، ١٠٨ ، وروح المعاني ١٤/١٢٢ - ١٢٧ .

(٢) الآية (٥٢) من سورة الكهف .

(٣) دلائل الإعجاز ١٩٩ .

غرض »(١) ، والأغراض التي تتصل بإحضار المسند إليه على ذلك الوجه كثيرة يدل عليها السياق .

ومن هذه الأغراض قصد التهكم والسخرية كما في قوله تعالى : ﴿ **وقالوا يأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾(٢) .

نادوه بهذا الوصف تشهيرا به ، فهم لم يسلموا أو يعتقدوا ذلك بل استهزاء به عليه السلام ، وإشعارا بعلة حكم الباطل ، وتقديماً وتبريراً للتهمة التي سيرمونه بها ، واختيار الموصولية لما في الصلة من المعنى الذي جعلوه سبب التهكم وهو قولهم بنزول الوحي عليه ، وقرينة التهكم قولهم « إنك لمجنون » ولقد أرادوا الاستهزاء بوصفه ، فأنطقهم الله بالحق فيه صرفاً لألسنتهم عن الشتم ، وصيانة لعرض نبيه عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا إسناد الصلة إلى الموصول بحسب ما يدعيه صاحب اسم الموصول لا بحسب اعتقاد المتكلم على طريقة التهكم (٣) .

ومن الأغراض التي تتصل بتعريف المسند إليه بالموصول ، قصد الإيماء إلى وجه بناء الخبر ، أي طريق بنائه ، كما تقول ، عملت هذا العمل على وجه عملك وعلى جهته ، أي على طرزه ، وعلى طريقته ، يعنى أن تأتي بالموصول والصلة للإشارة إلى أن بناء الخبر عليه من أي وجه وأي طريق من الثواب ، والعقاب ، والمدح ، والذم ، وغير ذلك من المعاني التي تفهم من السياق ، فالمتكلم قد يقصد إلى أن يقدم للسامع ما يشعره بنوع الخبر قبل مجيئه ، فيعمد إلى تعريف المسند إليه بالموصولية ، لتحصل له تلك الإشارة إلى نوع الخبر ومضمونه ، وذلك لما يكون في الصلة مما يشعر بذلك . ثم إن هذا الإيماء ربما جعل ذريعة ووسيلة إلى الإهانة لشأن الخبر ، نحو قولك تعريضا بإهانة شخص وسخرية من تصديه لما لا يحسن تقول : إن الذي لا يحسن الحديث

---

(١) مفتاح العلوم ١٨١ .

(٢) الآية (٦) من سورة الحجر .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٥/ ٦٦ ، ٦٧ ، والتحرير والتنوير ١٤/ ١٦ .

ألقى خطبة والذي لا يتذوق الجمال ألف في البلاغة ، والذي لا يعرف الفقه قد صنف فيه(١) .

فإن قولك : إن الذي لا يحسن الحديث ، يشد السامع إليك ، ويومئ إليه بالخبر الذي سيأتي ، ولكنك لم تقصد مجرد الإيماء فقط ، بل قصدت إلى أن تثير اهتمام السامع ، وتشد انتباهه إلى أن من اتصف بصفة النقص هذه تصدى لما لا يحسن ، فأعرضت عن تسمية الشخص باسمه بل وصفته بصفة ذم ونقص ، فهو عندك الذي لا يحسن فقط ، فليس له اسم أو صفة أخرى إن الإيماء والإشارة هنا جعلت وسيلة إلى الإهانة والسخرية بمن اتصف بهذه الصفة ، والسياقات وقرائن الأحوال هي التي تظهر هذه المعاني وتحددها .

---

(١) انظر المطول ٧٥ - ٧٧ .

السخرية في وضع المظهر موضع المضمر

إن ظاهرة وضع الاسم الظاهر موضع الضمير وإن كانت تبدو مسألة نحوية إلا أن وراءها أسراراً بلاغية جمة ، وللمسألة جانبان أحدهما يتعلق بالإعراب ، والآخر يتعلق بالمعاني .

وقد نبه إلى ذلك العلوي حينما تناول المسائل التي تتعلق بالإضمار ، فقال : «والمسألة الخامسة وهي الإظهار في موضع الإضمار : واعلم أن هذا وإن كان معدوداً من علم الإعراب لكن له تعلق بعلم المعاني ، وذلك أن الإفصاح بإظهاره في موضع الإضمار له موقع عظيم ، وفائدة جزلة »(١) فهي من المسائل النحوية ولكن يظهر بها حسن ومزية ، وتتكشف للمتأمل والمتذوق أسرار وأنماط من الحسن لا تدرك إلا بالذوق ، وإحساس النفس .

ومن هذا الباب ، ما أورده عبدالقاهر الجرجاني ، أن الصاحب بن عباد قال : كان الأستاذ أبو الفضل يختار من شعر ابن الرومي وينقط عليه ، قال : فدفع إلي القصيدة التي أولها :

أَتَحتَ ضُلُوعي جمرةٌ تتوقَّدُ

وقال : تأملها ، فتأملتها ، فكان قد ترك خير بيت فيها ، وهو :

بجهلٍ كجهلِ السيفِ والسيفُ مُنتضىً ... وحِلْمٍ كحِلْمِ السيفِ والسيفُ مُغْمَدُ

---

(١) الطراز ٢/ ١٤٨ .

فقلت : لم ترك الأستاذ البيت ؟ فقال : لعل القلم تجاوزه . قال : ثم رآني من بعد ، فاعتذر بعذر كان شراً من تركه ، قال : إنما تركته لأنه أعاد السيف أربع مزات ، قال الصاحب : لو لم يعده أربع مرات فقال : (بجهل كجهل السيف وهو منتضى وحلم كحلم السيف وهو مغمد) لفسد البيت (١) .

ثم يعلق عبدالقاهر على ذلك بقوله : « والأمر كما قال الصاحب ، والسبب في ذلك أنك إذا حدثت عن اسم مضاف ، ثم أردت أن تذكر المضاف إليه ، فإن البلاغة تقتضي أن تذكره باسمه الظاهر ولا تضمره » (٢) ثم يفسر قوله هذا ويمثل له ، فيرى أن الذي هو الحسن الجميل أن تقول : (جاءني غلام زيد وزيد) ويقبح أن تقول : (جاءني غلام زيد وهو) ويمثل بقول دعبل الخزاعي :

أضياف عمران في خصب وفي سعة وفي حباء وخير غير ممنوع

وضيف عمرو وعمرو يســهران معاً عمرو لبطنته والضيف للجوع

[ويعلق عليه بقوله] ليس بخفي على من له ذوق أنه لو أتى موضع الظاهر في ذلك بالضمير فقيل : (وضيف عمرو وهو يسهران معا) لعدم حسن ومزية لاخفاء بأمرهما (٣) .

وواضح أن دعبلاً يهجو عمراً ويسخر منه من خلال مقارنة بخله بجود عمران ، ولا شك أن هذه السخرية مبنية على الإيجاع والإيلام النفسي ، لأن إظهار اسم عمرو وتكراره يعمق الإحساس بالمذمة ، ولذلك عد هذا من أعظم التهكم (٤) .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ٥٥٤ ، ٥٥٥ .

(٢) المرجع السابق ٥٥٥

(٣) المرجع السابق .

(٤) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٤٥ .

والكلام كما عند البلاغيين قد يكون خارجا على مقتضى الظاهر ، وقد يكون خارجاً على خلاف مقتضى الظاهر ، ولذلك أغراض بلاغية ، ومعان أسلوبية مقصودة .

ومن الصور التي يخرج فيها الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، إذا وضع الاسم الظاهر موضع الضمير ، فقد يكون مايعود عليه الضمير موجوداً ظاهراً لا لبس فيه ، ولكن الأديب يؤثر أن يأتي بالاسم الظاهر ، مخرجاً الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وقاصداً إلى أغراض وأسرار بلاغية يؤديها هذا التصريح ولا يقوم بها أو يؤديها ذلك الإضمار .

يقول الزملكاني(*) : « لن يبلغ الضمير العائد مبلغ المظهر ، وإن اعتراك شك في ذلك فعليك بقوله تعالى : (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) فإن فيه من النبل مالا يخفى على بصير » (١) .

وهذا الظاهر إما أن يكون اسم إشارة أو لا يكون ، فإن كان اسم إشارة فإنه يوضع موضع الضمير لعدة أغراض ، منها قصد التهكم بالسامع والسخرية منه « كما إذا كان فاقد البصر ، أو لم يكن ثم مشار إليه أصلا ، كأن يقول لك أعمى : أتشهد أن زيداً ضربني ؟ فتقول له : نعم ذلك الذي في جانبك - سواء كان بجانبه أم لا - » . (٢) .

وقد يكون القصد من وضع المظهر موضع المضمر التنبيه على كمال بلادة السامع بأنه لا يدرك غير المحس ، فيكون هذا التنبيه سخرية منه ، وتهكما به ، وتعريضاً بغفلته ونقص عقله من ذلك قول الفرزدق يهجو جريراً :(٣)

(*) كمال الدين عبدالواحد بن خلف بن نبهان ، تولى قضاء صرخد وبرع في النحو والبلاغة وله شعر عادي ، توفي سنة ٦٥١ هـ . شذرات الذهب ٥/ ٢٥٠ .

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، للزملكاني ، تحقيق الحديثي ومطلوب ٢٤٨ .

(٢) بغية الإيضاح ١/ ١٤٩ .

(٣) ديوان الفرزدق ١/ ٤١٨ .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أخذ الفرزدق يذكر أجداده ويعدد مآثرهم ، ويقول منا فلان ، ومنا فلان ، في سبعة أبيات قبل هذا البيت ، ثم يلتفت بالخطاب إلى جرير ، فكان مقتضى الظاهر أن يقول (هم) لكنه عدل عن ذلك إلى اسم الإشارة « أولئك » ؛ لأنه في موقف الافتخار على خصمه ، فكان مناسباً أن يعرض بغباوة هذا الخصم وكمال بلادته ، فيسخر منه ويستهزئ به ، واسم الإشارة هنا يفيد التهكم « لأن الإشارة إلى شيء موجود أو غير موجود بما يشار به إلى المحس المرئي مما يدل على قصد السخرية والتهكم ، فجرير في نظر الفرزدق لا يدرك إلا الأمور المحسوسة » (١) .

وإذا كان المظهر الذي وضع مكان المضمر غير اسم الإشارة ؛ فإنه قد يرد على جهة السخرية والتهكم ، كالتهكم بحال الكافرين ، والتعجب من عنادهم وجحدهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **ص والقرءان ذي الذكر ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق ، كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ، وعجبوا أن جآءهم منذر منهم وقال الكفرون هذا سحر كذاب** ﴾ (٢) .

ذكر الله الكافرين في قوله « بل الذين كفروا » ثم قال بعد ذلك : « وقال الكفرون » وهذا إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، إذ مقتضى الظاهر أن يقال « هم قالو » ولكن عدل إلى ذلك لغرض بلاغي وهو إفراط النكير عليهم ، والتهكم بهم

---

(١) انظر من سمات التراكيب ، د. عبدالستارز موط ٢٢١ .

(٢) الآيات (١ – ٤) من سورة ص .

وبعنادهم وعدم اعتبارهم ، وفيه تعريض بأنهم الكفرة حقا أهل التمرد الذي لاشك فيه ، والمراء الذي لا مدفع له(١) .

ومما جاء إهانة وتحقيراً وتهكماً بالشيطان الرجيم وكيده ، قوله تعالى : ﴿ **وقل لعبادي يقولوا التى هى أحسن إن الشيطـٰن ينزغ بينهم إن الشيطـٰن كان للإنسـٰن عدواً مبينا** ﴾(٢) .

ففي تكرار لفظة (الشيطان) مع إمكان الاستغناء عنها بالضمير معنى زائد مقصود وهو الإهانة والتحقير إذ اللفظ قبيح ، فتكراره إهانة للشيطان وتنفيراً لعباد الله المؤمنين من نزغه وكيده .

---

(١) انظر الطراز ٢/١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) الآية (٥٣) من سورة الإسراء .

الاستفهام الساخر

جاء في اللسان : الفهم : معرفتك الشيء بالقلب . فَهِمَه فَهْما وفَهَماً وفَهامة : عَلِمَه . . .

واستفهمه : سأله أن يفهمه ، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً (١) .

والاستفهام هو طلب الفهم وهو بمعنى الاستخبار (٢) .

والاستخبار - طلب خبر ما ليس عند المستخبر وهو الاستفهام ، وقيل إن بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق ، ذلك أنك تستخبر فإن أجبت ولم تفهم وسألت ثانية فأنت مستفهم (٣) .

والتعريف المشتهر للاستفهام عند المتأخرين : « أنه طلب حصول صورة الشيء في الذهن » (٤) .

والألفاظ الموضوعة له : الهمزة ، وهل ، وما ، ومن ، وأي ، وكم ، وكيف ، وأين ، وأنَّى ، ومتى، وأيان (٥) ، ومن أداوات الاستفهام : مهما ، وكأين ، وكذلك يستفهم بلعل عند الكوفيين (٦) .

---

(١) لسان العرب (فهم) .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٨٨٣ .

(٣) الصاحبي ٢٩٢ .

(٤) التعريفات ١٨ ،والمصباح في المعاني والبيان والبديع ، لبدر الدين ابن مالك ٨٣ - ٨٥ ، حققه حسني يوسف ، شرح عقود الجمان ١/ ١٧٤ ، ومختصر السعد ٢/ ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٥) الإيضاح ، للقزويني ٢/ ٢٤٧ . ضمن شروح التلخيص .

(٦) شرح عقود الجمان ١/ ١٧٤ ، وعروس الأفراح ٢/ ٢٤٦ .

وهذه الأدوات كثيراً ما تستعمل في غير الاستفهام مما يناسب المقام بحسب معونة القرائن(١) فهي لا تقتصر في دلالتها على الاستفهام الذي هو طلب فهم المستفهم فحسب، وإنما تتعدى ذلك إلى معان كثيرة « لأنها إذا تجردت عنه تولد عنها بمعونة القرائن ما يناسب المقام»(٢).

« ولابدع في صدور الاستفهام ممن يعلم المستفهم عنه ؛ لأن طلب الفهم : إما طلب فهم المستفهم ، أو وقوع فهم لمن لم يفهم كائنا من كان » (٣) ، فالاستفهام البلاغي لا يقف عند حد الطلب ، بل يتجاوز ذلك إلى التعبير عما في النفس من معان . وهذه المعاني لا يكشف عنها ويدل عليها نوع أداة الاستفهام فحسب ولا نوع ألفاظ الجملة وطريقة تركيبها فقط ، ولا رؤية المستفهم وحدها ، بل كل ذلك وغيره يشارك في الكشف عن دلالة هذه الجملة .

ووجه دلالة الاستفهام على هذه المعاني تعددت فيه آراء العلماء : فقيل إنه من قبيل المجاز المرسل ، وقيل إنه كناية ، وقيل إنه مستفاد من مستتبعات التراكيب (٤) ولا يخفى أن الحمل على أحد هذه الآراء الثلاثة جائز في كل هذه المعاني (٥) وإن كان أولاها اعتباراً أنها من مستتبعات التراكيب مع أن القول به لا يسلم من اعتراض عليه (٦) .

---

(١) مختصر السعد على تلخيص المفتاح ، لسعد الدين التفتازاني ٢/ ٢٩٠ ، ضمن شروح التلخيص.

(٢) زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع ، أحمد المحلاوي ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٨٩٠ .

(٤) حاشية الدسوقي ٢/ ٢٩٣ ، وبغية الإيضاح ٢/ ٤٣ .

(٥) بغية الإيضاح ٢/ ٤٤ .

(٦) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، د. محمد أبوموسى ٣٦٥ .

وقد ناقش كثير من البلاغيين وجه دلالة الاستفهام على هذه المعاني ، فمنهم من قال إن خروج الاستفهام إلى هذه المعاني عن طريق المجاز ، وأخذ يتكلف ويتعسف ويجهد نفسه في بيان العلاقات بين هذه المعاني والاستفهام . يقول السيد الشريف : «إنكار الشيء بمعنى كراهته والنفرة عن وقوعه في أحد الأزمنة وادعاء أنه مما لا ينبغي أن يقع فيه يستلزم عدم توجه الذهن إليه ، المستدعى للجهل به المفضي إلى الاستفهام عنه ، أو نقول ، الاستفهام عنه يستلزم الجهل به المستلزم لعدم توجه الذهن إليه المناسب لكراهته والنفرة عنه وادعاء أنه مما لا ينبغي أن يكون واقعا ، وقس على هذا حال الإنكار بمعنى التكذيب » (١) .

وغير خافٍ هذا التكلف في تصحيح هذه العلائق ، وهذا التكلف يعترف به السيد الشريف نفسه حينما يعلق على قول التفتازاني بصعوبة تحديد نوع المجاز هنا ، يقول : «وذلك لصعوبة بيان علاقة المجاز وكيفية المناسبة المجوزة له » (٢) ثم يذكر بأنه سوف يقتصر على المواضع التي سيتضح وجه المجاز فيها ويستعين به في فيما عداها من المواضع التي لم تتضح يقول : « ونحن نذكر في هذه المواضع مايتضح به وجه المجاز فيها وتستعين به فيما عداها » (٣) .

وهناك نوع آخر من الصعوبة يواجه من يتصدى لتحقيق وجه الدلالة في هذه الأدوات ، إذ إن الاستفهام قد يفيد معاني متعددة في نص واحد ، فإذا قلنا إن الأداة مجاز في إحدى هذه المعاني فما موقفنا من غيرها(٤) ونحن نعلم أن استعمال أدوات الاستفهام في معان مجازية متعددة في نص واحد أمر لا يقبله المحققون من العلماء ، يقول الشهاب

---

(١) حاشية السيد على المطول ١٣٩ .

(٢) المرجع السابق ١٣٨ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) انظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٦٤ .

معلقاً على فهم البيضاوي لدلالة الاستفهام على عدة معاني مجازية هي التقرير والإنكار والاستبعاد في قوله تعالى ﴿ **أينكم لتشهدون أن مع الله ءالهة أخرى** ﴾(١) يقول : «وفيه جمع بين معاني الاستفهام وهي معان مجازية لايجمع بينها ، وإن في ذلك التجوز خفاء . . . إلا أن يقال إنه يستعمل في أحد هذه المعاني وغيره مأخوذ من السياق » (٢) .

ومن البلاغيين من يرى أن دلالة الاستفهام على هذه المعاني من قبيل الكناية أو هو مفاد من مستتبعات التراكيب ، فالدسوقي نقل في حاشيته على شرح السعد قولاً عن السيد مفاده ، أن وجه دلالة الاستفهام على هذه المعاني من قبيل المجاز ، ونقل قولاً آخر عن عبدالحكيم فيه أن وجه استعمال الاستفهام هنا من قبيل الكناية أو هو من مستتبعات التراكيب ، يقول الدسوقي : « قال السيد فاستعمال صيغة الاستفهام في التنبيه المذكور من استعمال الملزوم في اللازم ، قال عبدالحكيم : ولك أن تجعل اللفظ مستعملاً في الاستفهام ليتوصل به إلى التنبيه على طريق الكناية ، أو يجعل اللفظ مستعملاً في الاستفهام مع التنبيه على أنه من مستتبعات الكلام » (٣) .

ثم أخذ الدسوقي يحلل كل الأمثلة التي خرج فيها الاستفهام إلى معان أخرى ، ويأتي بكل هذه الوجوه الثلاثة ويقلب الأمر بينها على أنها جائزة ، وأنه يمكن الدلالة على المعنى عن طريق أي منها (٤) .

والأظهر أن هذه المعاني تستفاد من مستتبعات التراكيب فالسياق هو الذي يحدد المعنى ، ويتضح ذلك جلياً في هذا المثال الذي يقف فيه إبراهيم عليه السلام موقفين

---

(١) الآية (١٩) من سورة الأنعام .

(٢) انظر حاشية الشهاب ٤/ ٣٧ .

(٣) حاشية الدسوقي ٢/ ٢٩٣ .

(٤) انظر المرجع السابق .

مختلفين ، يحدد السياق وقرائن الحال فيهما المعنى تحديداً واضحاً ، فهو عندما دخل على الأصنام كما في آية الصافات خاطبها هازئاً ومتهكماً بقوله ﴿ **ألا تأكلون ..** ﴾(١) يهزأ بها وبانحطاطها عن حال عبدتها وعندما دخل - كما في الموقف الآخر في آية الذاريات - على ضيفه ولم يكن يعلم أنهم من الملائكة فقرب إليهم العجل قال لهم ﴿ **ألا تأكلون** ﴾ (٢) إنكاراً أو حثاً لما رأى أيديهم لا تصل إليه ، فالذي حدد المعنى هنا وهناك هو السياق وقرائن الأحوال في كل (٣) .

والمعاني التي تفيدها أدوات الاستفهام كثيرة لا يمكن الإحاطة بها وإنما يذكر العلماء منها ما يرشد إلى طريقة تفهمها والوعي بها (٤) . والمدار في معرفة هذه المعاني على تتبع التراكيب وسلامة الذوق (٥) . وقد أشار العلامة السعد إلى ذلك عقب الانتهاء من الحديث عن المعاني التي يخرج فيها الاستفهام ، وذلك في قوله «والحاصل أن كلمة الاستفهام إذا امتنع حملها على حقيقتها تولد منه بمعونة القرائن مايناسب المقام»(٦) .

وقد عد منها القزويني : الاستبطاء ، والتعجب ، والتنبيه على الضلال ، والوعيد ، والأمر ، والتقرير ، والإنكار ، والتهكم ، والتحقير ، والتوبيخ والتعجيب جميعا (٧) .

إلا أن التوبيخ والتعجيب ليسا معنى واحداً ، فالتوبيخ يكون مع الإنكار ، والتعجيب ناشئ من التعجب .

ولا شك أن الإنكار والتهكم والتحقير معان تأتي منها السخرية فإذا خرج إليها الاستفهام أكسبها قوة وتأثيرا ، لأن الاستفهام البلاغي فيه قوة وانفعال ، فإذا كان ساخرا

---

(١) الآية (٩١) .
(٢) الآية (٢٧) .
(٣) انظر تفسير الكشاف ٤/ ٣٠ ، وروح المعاني ٢٣/ ١٢٣ .
(٤) انظر دلالات التراكيب ، أبوموسى ٢١٦ .
(٥) زهر الربيع ص ٦٩ ، ٧٠ .
(٦) انظر المطول ٢٣٨ ، ٢٣٩ .
(٧) الإيضاح ٢/ ٢٩٠ - ٣٠٦ .

جاء في أغلب الأحيان عنيفاً ، فهو إما إهانة أو تقريع أو تهكم أو تحقير ينزل بالمسخور منه قوياً كالصاعقة فيزلزله ويبلغ أثره فيه مدأ بعيداً .

ولذلك نجد هذا الأسلوب يتكرر كثيراً في القرآن الكريم يدمغ الله به المشركين ، ويفضح المنافقين ، ويرد به على سخرية الساخرين وهزء المستهزئين (١) .

ومن المعاني الاستفهامية التي تأتي منها السخرية الإنكار ، « وهو استفهامك أمراً تنكره » (٢) .

ويقال أنكر عليه إذا نهاه (٣) وهو كراهة الشيء والنفرة من وقوعه في أحد الأزمنة .

والتفسير البلاغي للإنكار فصله عبدالقاهر - بعد تحليله لأمثلة عدة في الإنكار - بقوله : « واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإن الذي هو محض المعنى : أنه لتنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه فإذا ثبت على دعواه قيل له : فافعل ، فيفضحه ذلك ، وإما لأنه هم بأن يفعل مالا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه وقيل له : فأرناه في موضع وفي حال وأقم شاهدا على أنه كان في وقت » (٤) .

« والمعنى في الإنكار على النفي وما بعده منفي » (٥) وهو نفي بلاغي إنشائي .

---

(١) أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ، فودة ٢٤١ .

(٢) القاموس (نكر) .

(٣) حاشية الدسوقي ٢/ ٣٠٠ .

(٤) دلائل الإعجاز ١١٩ ، ١٢٠ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٨٨٤ ، ٨٨٥ .

ويتميز النفي البلاغي عن النفي الخبري ؛ ذلك أنه أكثر بلاغة وأقوى دلالة منه ، فالنفي الاستفهامي أقوى في دلالته النفسية يظهر انفعال المتكلم وتفاعله مع ما أنكره ، فهو إما مكذب ، أو موبخ ساخر ، أو متهكم ، أما النفي الخبري فإنه لا يظهر ذلك التفاعل بتلك الدرجة ، كأن تقول مثلاً « فلان لا يصلي ولا يصوم » ليس هنا انفعال ظاهر فحسبك أن تقرر واقعاً . « أما الاستنكار أو النفي الاستفهامي فهو وطيد الصلة بمشاعر المتحدث لا يصدر منه استنكار إلا بعد أن يكون قد بلغ به التفاعل ذروته » (١) وذلك كقول لوط عليه السلام موبخاً قومه على أفعالهم الشنيعة :

﴿أتأتون الذكران من العـٰلمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون ﴾(٢) فهو يحمل الذهن على التفكير والمشاعر على أن تتجاوب معه ليتأمل القوم في منكراتهم الشنعاء التي يفعلونها ، وهي تناهض الفطرة وتتمرد على ماشرعه الله تعالى .

والنفي الاستفهامي الإنكاري يكون في الغالب مزيجا من عدة معان : فالتكذيب والتوبيخ والتعجب والتهكم والسخرية والتحقير والتمني وغيرها قد يصحب أحدها أو عدد منها النفي الاستفهامي ، أما في الخبر فالنفي نفي ليس غير (٣) .

ومن أسرار أسلوب النفي عن طريق الاستفهام والعدول عن أسلوب النفي المباشر « أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في موضعه ، ولما كان المسئول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي ، كان في توجيه السؤال إليه حملاً له على الإقرار بهذا النفي ، وهو أفضل من النفي ابتداءً »(٤) .

---

(١) انظر أساليب النفي في القرآن الكريم ، البقري ٢٩٨ .

(٢) الآيتان (١٦٥ ، ١٦٦) من سورة الشعراء .

(٣) انظر أساليب النفي في القرآن الكريم ٣٠٠ .

(٤) من بلاغة القرآن ١٦٣ .

وإذا كان الاستفهام يكسب الإنكار قوة في دلالته النفسية ، فيظهر انفعال المتكلم وتفاعله مع ما أنكره ، فإن هذا الإنكار إذا صاحبته السخرية كان أقوى في دلالته النفسية ، إذ إن وراء السخرية دوافع قوية ترفع درجة الانفعال ، وتقوي التأثير ، فتتضافر دلالات السياق وهذه الانفعالات في إخراج أسلوب قوي مؤثر ينبض بالحياة ، تتحرك في ثناياه أحاسيس ومشاعر ودلالات كثيرة ، يكون لها أبلغ الأثر في نفسية المخاطب ، إذ إن هذا الأسلوب يمتلك والقدرة على تحريك المشاعر والاستئثار بالانتباه وحمل الأذهان على التفكير والمشاعر على التجاوب معه .

تناول بعض علماء البلاغة أسلوب الاستفهام تحت باب التقديم والتأخير ، وذلك لأنهم أدركوا ما للتقديم والتأخير من تأثير على معاني الجملة ، وما فيه من دقائق وأسرار ، فترتيب عناصر الجملة له دور كبير في تحديد المعنى .

وفي الاستفهام الإنكاري بالهمزة ، إذا بدئ بالفعل كما في قوله تعالى : ﴿ **أصطفى البنات على البنين** ﴾(١) كان الإنكار في نفس الفعل ، وأما إذا قدم الاسم ففيه يتوجه الإنكار إلى الفاعل كقولك : أأنت قلت هذا الشعر ؟ كذبت ، لست تحسن شعرا مثله . فأنكرت أن يكون القائل هو ولم تنكر الشعر . وإذا كان الفعل المنكر مضارعاً فإنه يحتمل وجهين :

الأول : إنكار وجود الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ **أنلزمكموها وأنتم لها كرهون** ﴾(٢) فالمعنى إنكار أصل الفعل .

---

(١) الآية (١٥٣) من سورة الصافات .

(٢) الآية (٢٨) من سورة هود .

والثاني : الاستقباح : فإن بدأت بالفعل كان المراد توجيه الإنكار إلى وجود الفعل نحو : أتخرج في هذا الوقت ؟ ، أتذهب في غير الطريق ؟ أما إذا بدأت بالاسم فإن الإنكار يتوجه إلى الفاعل ، إما للمبالغة في الاستحقار كقولك لمن تستحقره : أأنت تمنعني ؟ أأنت تضربني ؟ أو للمبالغة في التعظيم كقوله : أهو يسأل الناس ؟ أهو يمنعهم حقوقهم ؟ أو للمبالغة في بيان الخساسة كقوله : أهو يسمح بمثل هذا ؟ أهو يرتاح للجميل؟(١) .

والمبالغة في الاستحقار غالباً ما تؤدي معنى السخرية والتهكم فقولك لشخص ادعى بأنه قادر على منعك - أأنت تمنعني ؟ فيه تصغير لشأنه وتهكم وسخرية من دعواه ، ذلك لأنه وضع نفسه في غير موضعه فصرت - كما يرى عبدالقاهر - كأنك قلت له إن غيرك الذي يستطيع منعي والأخذ على يدي ولست بذاك ، ولقد وضعت نفسك في غير موضعك وذلك لعجزه وحقارته وصغر قدره وقصر همته فكان كل ذلك مسوغاً لأن يسخر منه ومن دعواه (٢) .

والإنكار المستفاد من الاستفهام إما للتوبيخ أو للتكذيب ، وكل واحد منهما إما في الماضي أو في المستقبل ، فالأقسام أربعة : (٣)

فالتوبيخ يكون على أمر وقع في الماضي أو هو بصدد الوقوع في الحال ، ولا يوبخ على أمر سيحدث في المستقبل إلا إذا كان المخاطب ماضياً إليه مصمماً عليه بدلالة القرائن ، ويقع كذلك على ترك فعل كان ينبغي أن يقع .

ومعنى التوبيخ هو التعيير والتقريع على أمر قد وقع في الماضي ، أو على أمر خيف وقوعه في المستقبل ، والغرض منه الندم على ماضٍ والارتداع عن مستقبل والنفي

---

(١) انظر نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ٢١٤ . تحقيق د. أحمد حجازي السقا .

(٢) انظر دلائل الإعجاز ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) شرح عقود الجمان ١/ ١٨٧ .

فيه متوجه إلى الانبغاء ومدخول الهمزة واقع أو كالواقع ، وإذا كان التوبيخ على أمر مضى فإنه يكون بمعنى ماكان ينبغي أن يكون ، ويقصد به التعيير والتقريع على أمر قد وقع، ولذلك يقال إنه يتضمن التقرير أي التثبيت والتحقيق ؛ لأن العرف يقتضي أنك إنما تقول ماكان ينبغي لك هذا يافلان إذا صدر منه ذلك ، أما التوبيخ على أمر يقع في الحال أو الاستقبال فإنه يكون بمعنى لا ينبغي أن يكون ، والتوبيخ هنا لا يقتضي وقوع الموبخ عليه بالفعل كما هو ظاهر ، وإنما يقتضي كون المخاطب بصدد الفعل لذلك يصح أن يقال ذلك لمن هم به ولم يقع منه ، وضابط هذا القسم أن يكون مايلي الهمزة فيه واقعاً لكنه مستقبح(١) والاستفهام التوبيخي « يثير في النفس التفكير ويدفعها إلى تدبر الأمور حتى تقتنع بتفكيرها الخاص بأنه ماكان ينبغي أن يقع ماوقع أو كان الصواب أن يقع ما لم يقع »(٢).

وأما الإنكار التكذيبي فإنه يسمى بالإنكار الإبطالي أيضا ، وضابطه أن يكون مايلي الهمزة يدعى أنه واقع وقصد تكذيبهم فيه ، ويكون على أمر مضى بمعنى لم يكن ، ذلك أن المخاطب إن ادعى وقوع شيء فيما مضى ، أو نزل منزلة المدعي ، أتي بالاستفهام الإنكاري تكذيباً له في مدعاه ، وكذلك يكون على أمر يدعى وقوعه في المستقبل أو في الحال ، وهو بمعنى لا يكون وذلك أن المخاطب إذا ادعى أو نزل منزلة من ادعى أن أمرا من الأمور يقع في المستقبل أو في الحال ، أتي بالاستفهام الإنكاري تكذيبا له فيما ادعى وقوعه في الحال أو الاستقبال (٣) .

---

(١) انظر حاشية الدسوقي ٢/ ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٢) من بلاغة القرآن ١٦٤ .

(٣) انظر مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، لابن يعقوب المغربي ٢/ ٣٠١ . ضمن شروح التلخيص .

وهناك نوع من الإنكار يتوصل فيه إلى إنكار الفعل أصلاً بإنكار وقوعه على متعلقاته التي ليس له معمولات سواها ، لأن تعلقه منحصر فيها ، وذلك مع التهكم والتوبيخ وذلك كقوله تعالى : **﴿ قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾**(١) ، فالمراد إنكار التحريم أصلاً مع التهكم بذلك المدعي وكان ذلك بإنكار وقوعه على جميع متعلقاته التي ارتبط بها على طريق القصر (٢) .

ويندرج تحت الإنكار أغراض ومعان أخرى عديدة تناسب المخاطب وحاله الخاصة ويدل عليها السياق وقرائن الأحوال « فيكون مع الإنكار التقبيح ، أو التوبيخ أو التكذيب ، أو التعجيب ، أو التشنيع ، أو التبشيع ، أو التهكم اللاذع أو الخفيف الراحم ، أو التهديد الراعد ، أو التحقير النافذ ، أو التجهيل ، أو التهويل إلى غير ذلك ، وقد عني العلماء بتقسيم الإنكار إلى توبيخ وتكذيب طلباً للتوضيح والإبانة دون تحييد للمعاني أو تحديد لكنهم عند التحليل يذكرون من المعاني الفرعية ضروباً مما قدمناه » (٣) ، « والغالب على الإنكار أن يكون مزيجاً من عدة معان » (٤) فالتكذيب والتوبيخ والتهكم والسخرية والتحقير غالباً ماتمتزج به وتصاحبه .

وقد جرى هذا الأسلوب في القرآن كثيراً ، فالاستفهام الإنكاري أكثر أساليب الاستفهام شيوعاً وأوسعها تصرفاً في القرآن « فجملة أساليبه ثمان مائة وسبعة ، وكثر في المكي إذ بلغت أساليبه ستمائة وثلاثين ، أما باقي الأساليب وهي مائة وسبعة وسبعون فمدنية » (٥) .

---

(١) الآية (١٤٣) من سورة الأنعام .

(٢) انظر عروس الأفراح ٢/٢٩٨ - ٣٠٠، وأساليب الاستفهام في القرآن الكريم ٢٠٦ .

(٣) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ١٣٠ ، ١٣١ .

(٤) أساليب النفي في القرآن الكريم ٣٠٠ .

(٥) أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ٢٠٧ .

وقد تناول القرآن الكريم في طياته قضايا كثيرة ، واستعمل في تناوله لها أساليب لها وقع ونفاذ في النفس البشرية ، فالله الذي أنزل الكتاب هو أعلم بخبايا تلك النفس وأسرارها ، ما يصلح لها ويؤثر فيها ، فلذلك تعددت الأساليب القرآنية وتنوعت ، ومن تلك الأساليب الكثيرة في القرآن الكريم أسلوب الإنكار ، إذ ينكر القرآن على المشركين شركهم وعلى المنافقين شكهم وشبههم ، وعلى اليهود زيغهم وضلالهم وطريقة تفكيرهم ، ويوبخ كل هؤلاء على مواقفهم المعادية للحق وأهله ، وكذلك كان القرآن ينقل ردود أفعالهم تجاه آيات الله ورسله « فيصور انفعالاتهم المتلونة العجيبة حين سفه القرآن أقدس ماعندهم ، وفضح خططهم ومؤامراتهم ، فقابلو الإنكار بالإنكار ، ثم زادوا بما يناسب جهلهم المتنوع المتدني ، فكان الإنكار صارخاً لابساً كثيراً من المعاني التي تصحب الإنكار عادة ، كالتهكم ، والسخرية ، والتحقير وغيرها » (١) .

وانظر إلى هذا الأسلوب التوبيخي التهكمي الذي يسخر من عقول المشركين وزعمهم يقول عز وجل في سورة النجم : **﴿أفرءيتم اللٰت والعزىٰ . ومنٰوة الثالثة الأخرىٰ ألكم الذكر وله الأنثىٰ تلك إذا قسمة ضيزىٰ ﴾**(٢) .

لما قدم سبحانه وتعالى بذكر الآيات الكبرى ، من إسراء بالنبي الكريم ، ومعراج به إلى السماء ، وبلوغه سدرة المنتهى ، ورؤيته لآيات عظيمة ، وشؤون جليلة ، وذكر جبريل وشرفه ، وصحبته ومنزلته ، إذ وصف بصفات الكمال ومنازل العزة ، كان ذلك مما يثير موازنة هذه الأحوال الرفيعة بحال أعظم آلهتهم الثلاثة في زعمهم ، والتي هي أحجار مقرها الأرض ، لا تملك تصرفاً ولا يعرج بها إلى رفعه ، والفاء في « أفرأيتم » لتفريع الاستفهام ، و « رأى » بصرية واقعة على الأصنام المشاهدة ، والإحالة على الأمور

---

(١) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن ١٣٠ .

(٢) الآيات من (١٩ - ٢٢) من سورة النجم .

المشاهدة الواضحة الفساد دليل على شدة الإنكار ، والمعنى أي ، كيف ترون اللات والعزى ومناة بالنسبة لما وصف من عظمة الله تعالى وشرف ملائكته وشرف رسوله ﷺ ، وهذا تهكم بهم وإبطال لإلهية تلك الأصنام بطريق الفحوى ، ودليله العيان .

وتتابع الاستفهامات في قوله « ألكم الذكر وله الأنثى » فيه ارتقاء في الإبطال والتهكم والتسفيه ، وهي مجاراة لاعتقادهم أن تلك الأصنام الثلاثة بنات الله وأن الملائكة بنات الله ، أي أجعلتم لله البنات خاصة وأنتم تعلمون أن لكم أولاداً ذكوراً وإناثاً وأنكم تفضلون الذكور وتكرهون الإناث وقد خصصتم الله بالإناث دون الذكور ، والله أولى بالفضل والكمال لو كنتم تعلمون ، فكان في هذا زيادة تشنيع لكفرهم إذ كان كفراً وسخافة عقل ، فالاستفهام مفصحٌ عن شدة الإنكار والسخرية وإيقاع الأسلوب معين على ذلك ، وهذا يمهد لهذه الحقيقة الساخرة الثابتة : « تلك إذن قسمة ضيزي » والقسمة متخيلة ؛ لأنها تكون في الحسيات بلوغاً بالسخرية مدى كبيراً ، والكلمة « ضيزي » غريبه الوزن ، غريبة الهيئة ، غريبة الجرس والدلالة ، تناسباً مع غرابة الزعم والقسمة الجائرة(١) .

وادعاء الولد لله سبحانه وتعالى ونسبة الإناث إليه من قضايا الإنكار الكبرى في القرآن الكريم ، فالقرآن ينكر على أولئك المفترين قولهم ، فينفي نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى ، ثم يكر بالتشنيع والتسفيه والسخرية من عقول المشركين الذين جعلوا لله مايكرهون ، فيأتي الاستفهام تكذيبا وتقريعاً وسخرية من أصحاب هذا القول الباطل وتلك القسمة الجائرة .

---

(١) انظر البحر المحيط ٨/ ١٦١ ، ٦٢ ، والتحرير والتنوير ٢٧/ ١٠٢ - ١٠٦ ، والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ١٣٣ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، وأساليب النفي في القرآن ٣٠١ .

ومواقف الإنكار هذه في القرآن عديدة ، ومنها تلك الآيات البينات التي يتفجر سياقها بالإنكار والتكذيب والسخرية من دعاوى المشركين الباطلة ، يقول تعالى - آمرا نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بتبكيت قريش والتهكم بهم بطريق الاستفتاء رداً على إفكهم :

﴿ فاستفتهم ، ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملئكة إنثاً وهم شهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكذبون ، أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لهم سلطن مبين ، فأتوا بكتبكم إن كنتم صدقين ﴾(١) .

إنها استفهامات متوالية قوية لعظم الجرم وشناعة القول ، بدأ باستفتاء القوم على سبيل التهكم بهم والسخرية من عقولهم ، إذ كيف سوغت لهم هذه العقول الضالة أن ينسبوا إلى الله الولد، بل ويقسموا له أوضع الجنسين في ظنهم ويجعلون لأنفسهم أرفعهما ، فإن ذلك مما لايقول به من له أدنى شيء من العقل وقوله تعالى : **﴿ أم خلقنا الملئكة إناثاً وهم شهدون﴾**، إضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا ، ومعناه أي أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق، وأبعدهم من صفات الأجسام ورذائل الطباع إناثا، والأنوثة عندهم من أخس صفات الحيوان ، توبيخاً لهم وسخرية من ضلالهم ، وتجهيلاً لعقولهم ، ثم عقب على الاستفهام بقوله : «وهم شهدون» يقصد الاستهزاء بهم وتجهيلهم والسخرية من تمسكهم بهذه الدعوى، حيث أن نسبتهم الإناث لله تعالى وقولهم هذا يتطلب وجودهم وشهودهم لهذه الولادة، وحيث أن ذلك مستحيل ولاسبيل لمعرفته بالعقل وانتفاء النقل مما لا ريب

---

(١) الآيات (١٤٩ - ١٥٧) من سورة الصافات .

فيه ، فإن قولهم هذا من الإفك الواضح والافتراء على الله بغير علم ، « ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكذبون » ثم تتابع الاستفهامات المشحونة بكل معاني التكذيب والتوبيخ والسخرية والتجهيل(١) .

وهذه الآيات - كما يقول الزمخشري - : « صادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع ، واستبعاد لأقاويلهم شديد ، وما الأساليب التي وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش ، وتجهيل نفوسها ، واستركاك عقولها ، مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بال ، ويحدث به نفساً ، فضلاً أن يجعله معتقداً ، ويتظاهر به مذهباً » (٢) .

ومن الأساليب التي كثر فيها إنكار القرآن على الكافرين والمعاندين بالتكذيب والتوبيخ وبالتهكم والسخرية من مواقفهم المتصلبة ، تلك الاستفهامات العديدة التي تنصب على الكافرين وهم يعانون آلام العذاب في جهنم ، فينادون ويستغيثون يطلبون المساعدة ، فيأتيهم الرد قاسيا مذكرا إياهم بمواقفهم من رسلهم واستكبارهم عليهم وأنفتهم من قبول الحق ، معيداً على أسماعهم تلك العبارات وتلك الشائعات التي طالما رموا بها دعوة الرسل ، ساخراً ومتهكماً وموبخا لهم على تلك المواقف وهذا مما يزيد في عذابهم ويقطع رجاءهم في الخلاص فتنزل عليهم تلك الاستفهامات نزول الصواعق ، ومن ذلك هذه الصورة التي يصورها القرآن لحال الكافرين المكذبين بعذاب الآخرة والذين كانوا يسخرون حينما يخوفون في الدنيا من ذلك العذاب الأخروي . يقول الحق عز وجل :

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٣/ ٣١٢ ، وتفسير ابي السعود ٧/ ٢٠٦ - ٢٠٨ ، وتفسير التحرير والتنوير ٢٣/ ١٨٠ - ١٨٥ .

(٢) تفسير الكشاف ٣/ ٣١٢ .

﴿إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع ، يوم تمور السمآء مورا ، وتسير الجبال سيرا ، فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم في خوض يلعبون ، يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هـٰذه النار التي كنتم بها تكذبون ، أفسحر هـٰذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ماكنتم تعملون﴾(١) .

يقسم الحق جل وعلا أن العذاب نازل حتماً لا راد له ، والمقصود هو عذاب الآخرة ، ثم يصور طرفا من تلك الأهوال التي تحدث في ذلك اليوم ، فالسماء تمور أي تدور وتضطرب والجبال تسير وتزول ، فإذا وقع ذلك فويل للذين كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهذا اليوم وكانوا كلما دعوا إلى التصديق بذلك اليوم اندفعوا يكذبون ويلعبون ويستهزئون بذلك القرآن وما فيه من وعد في هذا اليوم ووعيد بذاك العذاب ، فكان جزاء هذا التكذيب وذلك الاستهزاء والاستكبار هذا العذاب الذي يدفعون إليه دفعاً عنيفاً ويجرون إليه جراً غير لطيف ، وذلك بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار إهانة لهم وغلظة عليهم ، والذي يصنع بهم ذلك هم الملائكة الغلاظ الشداد ، ثم بعد أن يلقوا بهم في النار فيصلون لهيبها ويتجرعون ويلها يخاطبهم الملائكة موبخين لهم ومتهكمين بهم : إن هذا الذي أنتم فيه هو ذلك الوعيد الذي جاءكم في القرآن فكنتم تخوضون وتلعبون مكذبين مستهزئين به وتقولون إنه سحر ، أفهذا العذاب الذي تعانون غصصه سحر أيضاً ! أم أنكم لا تبصرونه كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ! وهذا قمة في التقريع والتهكم كما يعبر عن ذلك الزمخشري (٢) .

ومن المعاني التي يخرج إليها الاستفهام التهكم : وهو السخرية والاستهزاء (٣)،

---

(١) الآيات (٧ – ١٦) من سورة الطور .

(٢) انظر تفسير الكشاف ٤/ ٣٤ ، وأبي السعود ٨/ ٤٦ ، ١٤٧ ، والتحرير والتنوير ٢٧/ ٣٦-٤٤ .

(٣) حاشية الدسوقي ٢/ ٣٠٣ .

والتهكم فيه قوة وشدة ومعانٍ زائدة على مجرد السخرية والاستهزاء لأن فيه معنى التهدم والاقتحام ، وهو ناتج عن شدة الغضب (١) .

وأما العلاقة بين الاستفهام والتهكم فيرى ابن يعقوب أنها من المجاز المرسل لعلاقة اللزوم ويذكر ذلك في معرض تعليقه على تهكم قوم شعيب - عليه السلام - به فيقول : « والعلاقة أن الاستفهام عن كون الصلاة آمرة يناسب اعتقاد المخاطب أنها آمرة ، واعتقاد ذلك يقتضى الاستهزاء بالمعتقد ، إذ ليست مما يأمر أو ينهي ، فهو من المجاز المرسل لعلاقة اللزوم في الجملة » (٢) .

أما الدسوقي فيرى أن الاستفهام عن الشيء يقتضي الجهل به ، والجهل به يقتضي الجهل بفائدته ، والجهل بفائدته يقتضي الاستخفاف به ، وهو ينشأ عنه الهزء ، فهو مجاز مرسل ، ولكنه لايرى هذا الرأي ، لذلك قال « كذا قيل » ثم يستحسن أن يكون استعمال أداة الاستفهام في التهكم من باب الكناية ، أو يجعله من مستتبعات التراكيب (٣) .

والأظهر أن الاستفهام التهكمي الساخر إنما يفهم من السياق والتركيب وقرائن الأحوال .

---

(١) أساس البلاغة (هكم)

(٢) مواهب الفتاح ٢/ ٣٠٣ .

(٣) انظر عروس الأفراح ٢/ ٣٠٤ .

ومن المعاني التي يخرج إليها أيضاً التحقير ، وهو استصغار الشيء وعده حقيراً(١) فالسائل إذا كان عارفاً بالمسئول عنه وقال في مقام السخرية : من هذا ؟ أو نحو ذلك ، فإنه قد استخف وتجاهل ماكان به عارفاً ، أو لم يرض عن حاله ، فالسؤال هنا يعد استخفافاً وتحقيراً (٢) ومناسبة التحقير للاستفهام هي أن الاستفهام عن الشيء يستلزم الجهل به المناسب لحقارته من وجه ، لأن الحقير لا يلتفت إليه فلا يعلم (٣) ، والسائل هنا يقصد من سؤاله تحقير المسئول عنه والسخرية منه مع معرفته به ، ومن ذلك قول هشام بن عبدالملك - الذي حكاه الفرزدق - عندما رأى زين العابدين بن الحسين بن علي في الحرم وهو يشق الصفوف فيوسع له الناس ويستقبلونه ببشاشة وبشر ، فخشي عبدالملك من أن يفتتن أهل الشام به ، فقال لمن معه : من هذا ؟ مع معرفته به ، فهو ابن مكة ، ولكنه قصد أن ينكره ، ويستصغره ، ويحقر من شأنه ، فأجابه الفرزدق بقوله :

وليسَ قولكَ : منْ هذا ؟ بِضَائِرِه   العُربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجمُ (٤) .

ومن الاستفهامات الساخرة التي جاءت على لسان الكافرين يهزءون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما حكاه عنهم رب العزة والجلال في قوله : **﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهٰذا الذي بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن ءالهتنا لولا أن صبرنا عليها . وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾**(٥) .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (حقر) .

(٢) انظر حاشية الدسوقي ٢/ ٣٠٤ .

(٣) حاشية السيد على المطول ١٣٩ .

(٤) الأغاني ٢١/ ٣٧٦ .

(٥) الآية (٤١) من سورة الفرقان .

ساق الله سبحانه وتعالى قصصا وعبرا قبل هذه الآية ، حيث أورد أخبار قوم موسى ونوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرس ، وغيرهم ، ولكن المشركين لم ينتفعوا، واستمروا في مزيد السخرية والاستهزاء برسولهم ﷺ، وفي هذه الآيات يعرض القرآن نوعاً من هذا الاستهزاء ، وهو الاستهزاء به عند رؤيته ، والباعث عندهم على هذا النوع من الأذى رؤيتهم له في غير زي الكبراء والمترفين ، لا يجر المطارف ، ولا يركب النجائب ، ولا يمشي مرحاً ، ولا ينظر خيلاء ، ويجالس الصالحين ، ويعرض عن المشركين ، ويرفق بالضعفاء والفقراء ، لذا لم يخل حاله عندهم من الاستهزاء به إذ رأو حاله ليست حال من يختاره الله لرسالته دونهم ، ولا هو أهل لقيادتهم وسياستهم ، لذا عبر عن موقفهم القرآن : ﴿**إن يتخذونك إلا هزوا**﴾ حيث قصر معاملتهم معه ﷺ على اتخاذهم إياه هزوا ، وحين يورد القرآن نموذجا من هذا الاستهزاء أورد العبارة التي لفظوها : ﴿**أهٰذا الذي بعث الله رسولا**﴾، فالإشارة للتحقير ، وإبراز بعث الله رسولا في معرض التسليم والإقرار وهم في غاية الجحود والنكران سخرية واستهزاء ، وإلا لقالوا : أبعث الله هذا رسولا .

ويزيدون في الاستهزاء حيث يقررون ثباتهم على مبدئهم ، وأن هذا المدعي للرسالة ضال ، فقد صبروا على تلك الآلهة حتى نجو من مكره ، فيأتي الرد عليهم : عندما يأتي العذاب يعرف الضال من المهتدي (١) .

ومثله في التحقير والهزء برسول الله ﷺ ماحكاه الله من قولهم حين رؤية النبي ﷺ :

---

(١) تفسير الكشاف ٣/ ٩٨ ، والبحر المحيط ٦/ ٥٠٠ ، وأبي السعود ٦/ ٢٢٠ ، والتحرير والتنوير ١٩/ ٣٢ .

﴿وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهٰذا الذي يذكر ءالهتكم وهم بذكر الرحمٰن هم كٰفرون﴾(١) .

هذه الآية أيضاً على نسق سابقتها في بيان نوع من سخريتهم ، وبالتحديد سخريتهم منه صلى الله عليه وسلم عند رؤيته ، وقد انحصر اتخاذهم إياه عند رؤيته في الاستهزاء به دون أن يخلطوا ذلك بحديث آخر ، والاستفهام (أهذا) مستعمل في التعجيب ، واسم الإشارة يفيد التحقير بقرينة الاستهزاء وهم يقولون « يذكر ءالهتكم » ويقصدون الذكر السيء الذي يسوءهم في ءالهتهم ، فإن الذكر يكون بخير وبشر ومعلوم أنهم يقصدون الذكر السيء ، ولذا هم غاضبون ويعبرون عن هذا الغضب بهذا الاستهزاء ، حيث يرون آلهتهم أكبر من أن تصل إليها سخرية ساخر ولذا عرضوا به ولم يذكروا أنه رسول البته وإنما أشاروا إليه إشارة ساخرة ، والذكر الثاني « وهم بذكر الرحمن» مستعمل في الثناء والتمجيد ، وهم غافلون عن هذا الذكر ولذلك هم يستهزئون برسول الله ﷺ (٢) .

ومن الأساليب الساخرة التي يمارسها المشركون في الصد عن دعوة النبي ﷺ ، ماحكاه الله من قولهم عن نبيه ﷺ :

﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد . أفترىٰ على الله كذباً أم به جنة بل الذين لايؤمنون بالآخرة في العذاب والضلٰل البعيد . أفلم يروا إلى مابين أيديهم وما خلفهم من السمآء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لاية لكل عبدٍ منيب ﴾(٣) .

---

(١) الآية (٣٦) من سورة الأنبياء .

(٢) انظر تفسير الكشاف ٣/ ١١ ، وأبي السعود ٦/ ٦٦ ، والتحرير والتنوير ١٧/ ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) الآيات (٧ - ٩) من سورة سبأ .

ما فتئ المشركون من قريش يصدون الناس عن نور دعوة محمد ﷺ ويسلكون لذلك شتى السبل ، فعندما يواجهون بالعقل والحوار المنطقي ويجدون الحجج الدامغة والحوار المقنع ، يغلقون هذا الباب متجهين إلى السخرية والتهكم .

لقد وقف هؤلاء المشركون موقفا عنيدا من « البعث والنشور » والحجة عندهم في ذلك أن عقولهم لم تسلم بهذا ، وحواسهم لم تدرك مثل هذا ، ويعبر عن هذا الموقف هذه الآيات التي تحكي لنا أحد أساليبهم بعد أن أعيتهم الحيلة والحجة ، ولم تستطع عقولهم إدراك هذه الحقيقة ، فالله خلقهم أول مرة ، وهذا يجعل العقل يستنتج أنه قادر على بعثهم مرة أخرى ، ولكن المشركين يلجئون إلى السخرية والتهكم ، فيستخدمون هذه المرة أسلوبا جديدا وهو أسلوب الأحاجي والألغاز ، يقف أحدهم أمام الناس قائلا : هل تعلمون أي رجل يقول إننا إذا متنا وأصبحنا رمما وعظاما بالية سنبعث من جديد ! ، فيجيب أحدهم : من ؟ فيقول آخر : أعرف هذا الرجل ، إنه محمد ، فيعلوا الصراخ والضحك والصخب .

هذا أسلوب العاجز الذي انتهجوه ليجروا الناس إلى حمأة الجاهلية ، استخدموا فيه التشويق « الاستفهام » وتنكير المسئول عنه « أي رجل » وفيه تناسى لشخصية النبي ﷺ واستهتار به ، هذا مع علمهم به وشهرته بينهم ، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم ومع ذلك نكروه ، وعرضوا الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول ، وإنما كانوا يقصدون الطنز والسخرية فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي .

ثم بدأ بعضهم يوحي إلى بعض أن هذا الأمر كذب بين وأن القائل (قد كذب على الله) وفي هذا مزيد سخرية ، بل يتعداها إلى أنه إنكار شامل لرسالته لا لموضوع البعث .

ولا يكتفي المشركون بذلك ، بل يعرضون عن حديثهم هذا ويضربون عنه إلى ماهو أبلغ منه ترقيا من الأهون إلى الأغلظ حيث نسبوه إلى الجنون ، وحاشاه ﷺ ،

فكأنهم قالوا دعوا حديث الافتراء فإن هاهنا ماهو أهم منه ، لأن العاقل كيف يحدث بإنشاء خلق جديد بعد الرفات والتراب (١) .

ومن هذه الأساليب قول أصحاب الأيكه في معرض ردهم على نبي الله شعيب عليه السلام: **﴿قالوا يٰشعيب أصلوٰتك تأمرك أن نترك ما يعبد ءاباؤنا أو أن نفعل في أموٰلنا مانشـٰؤا ﴾**(٢).

وهذا رد واضح التهكم بين السخرية في كل مقطع من مقاطعه ، فهم لم يكتفوا بتكذيب الوحي وما أمرهم به بل قالوا متهكمين وساخرين : إنه لا آمر له بذلك إلا هذه الصلاة التي هي بزعمهم ضرب من الجنون والوسوسة ، لأنهم لايدركون أن الصلاة من مقتضيات العقيدة ومن صور العبودية فهي لاتقوم بغير توحيد الله ، وتنفيذ شرائعه في التجارة وغيرها لذلك استهزءوا بها وتهكموا به ، وساقوا الكلام مساق الطنز وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم (٣) .

والاستفهام عن كون صلاته آمرة له بذلك يناسب ادعاء أن المخاطب معتقد له ، وادعاء اعتقاده إياه يناسب الاستهزاء والتهكم ، وبالجملة استعلام هذه الحال منه يناسب التهكم به (٤) .

والتهكم سلاح قوي يستعمله أولياء الله ضد أعداء الله ، حينما تعيا الحيل وتسد السبل أو حينما يقف الداعية أمام منظر كهذا الذي وقفه إبراهيم الخليل عليه السلام :

﴿ وإن من شيعته لإبرهيم . إذ جآء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أيفكا ءالهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العٰلمين . فنظر نظرة في

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٢٥٢ ، وأبوالسعود ٧/ ١٢٢ ، وروح المعاني ٢٢/ ١٠٩ .

(٢) الآية (٨٧) من سورة هود .

(٣) انظر تفسير الكشاف ٢/ ٢٢٩ ، وأبوالسعود ٤/ ٢٣٢ ، وفي ظلال القرآن ٤/ ١٩١٩ .

(٤) حاشية السيد على المطول ١٣٩ .

النجوم . فقال إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى ءالهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لاتنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾(١) .

هذه الآيات تحكي قصة إبراهيم مع قومه ومع أبيه آزر حيث رآهم يعبدون أصناما ينحتونها بأيديهم ، فهو يستفهم منهم استفهام إنكار وسخرية من سفاهة عقولهم أن صنعوا أصناما بأيديهم ثم عبدوها ، وهذا غاية في السخف ، ولذا لم يجد إبراهيم عليه السلام بعد إفحامهم وقطع حججهم إلا أن يضعهم وجها لوجه أمام ضعف هذه الأصنام التي يرجون منها دفع الضر ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها ، ويدعونها للنفع ولا تملكه لنفسها ، ولذا ذهب خلسة إليها وأجرى معها حوارا سريعا برزت فيه روح السخرية بهذا المعتقد الفاسد ، فهو عندما وقف أمامها غاظه شأنها فقال (ألا تأكلون) وفي هذا سخرية واضحة من وجوه - حيث أراد أن يضع ويقرر أنها لا تنفع نفسها فهي لا تأكل . وهو عندما يعرض عليها الأكل يخاطبها مخاطبة العقلاء منزلا لها منزلة عابديها فهم يأكلون ، وهو وإن كان يرفعها في الحقيقة إلى منزلة العقلاء وهي لا تعقل فإنه قد حط من قدرها ومنزلتها بهذه الطريقة .

وهو في طلبه منها الأكل يسخر منها حيث أن في عابديها قدرة نفع أنفسهم أكثر منها أما هي فلا ، وعابدوها ينطقون أما هي فلا تجيب ، ولذا يسألها حينما لم يجد جوابا : (مالكم لا تنطقون) سخرية واستهزاء بها إذ لم تجبه ، فكان بعد هذا الحوار الساخر المشحون بالغضب والتهكم أن انهال إبراهيم على هذه الآلهة العاجزة ضرباً باليمين (٢) .

---

(١) الآيات (٨٣ - ٩٣) من سورة الصافات .

(٢) انظر تفسير الكشاف ٣/ ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، وأبي السعود ٧/ ١٩٨ ، وروح المعاني ٢٣/ ١٢٣ .

ولما لهذا الأسلوب من شيوع وقوة تأثير ، كما رأينا في أثناء حديثنا عن الأمثلة القرآنية ، فقد أكثر الشعراء من استعماله في هجائهم ، فمن الاستفهام التهكمي الساخر قول عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي يسخر من امرئ القيس وقومه : (١)

ياذَا المُخَوِّفُنَا بقــتلِ أبيهِ إذْلالاً وحَيْنَا

أزعمتَ أنك قد قتلتَ سُـرَاتَنا كذبـاً ومَيْنَا

هَلاَّ سألتَ جُمُوعَ كِنْدَ ةَ يومَ ولَّوْا أينَ .. أيْنا !

يهزأ عبيد من امرئ القيس ويستخف به ، فلا يناديه باسمه وكأنه نكرة مجهول ليس له اسم قد طبق الآفاق ، بل يشير إليه إشارة تهكم ، ويصفه ساخراً « بالمخوفنا » وكأن هذا التخويف بذاته أصبح مصدر سخرية ، ثم يستفهم منه منكراً عليه ، ومكذباً له في مادعاه من قتل سادتهم ، ويوجهه إلى أنه بدل أن يتفرغ لإطلاق الشائعات الكاذبة ، أولى له أن يسأل قومه الذين فروا من المعركة حين شعروا بالهزيمة النكراء ، وحينما ألهبتهم الضربات ، فانهزموا لايلوون على شيء ، ويكرر الشاعر هذا الاستفهام الساخر « أين أينا » تهكما وسخرية من هذا الفرار الجماعي .

ومن سخريات المتنبي الشهيرة من كافور الأخشيدي قوله : (٢)

مِنْ أيَّةِ الطُّرْقِ يأتي نَحوكَ الكرمُ أَينَ المحاجِمُ يا كافورُ والجَلَمُ

يستفهم المتنبي ساخراً ، فيوجه استفهامه إلى كافور الذي تبدى للمتنبي تمثالاً من المخازي لا طريق للكرم إليه ، فأية طريق للكرم نحو من هذه صفاته ، ثم يستفهم ثانية يسأل كافور عن محاجمه وأدواته التي لا يصلح أمره إلا بها ، أما الكرم فمما لا يصلح له ، بل ولا يهتدي لطريقه .

---

(١) الصناعتين ٢١٣ ، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، البغدادي ٢/ ٢١٣ .

(٢) ديوان المتنبي ، بشرح العكبري ٤/ ١٥٠ .

ومنها أيضا قوله في كافور : (١)

من علم الأسود المخصي مكرمة	أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه في يد النخاس دامية	أم قدره وهو بالفلسين مردود
أولى اللئام كويفير بمعذرة	في كل لؤم وبعض العذر تفنيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة	عن الجميل فكيف الخصية السود

يهزأ المتنبي بكافور ويعبث ، فيتساءل : من علم هذا العبد الآبق المخصي ارتقاء المكارم عمن ورثها ، أمن قومه البيض ! أم آبائه السادة الكرام ! أم من النخاس تدمى أذنه في يده حين يعرضه للبيع بأزهد الأثمان ، فلسين فقط ، ولكن مع هذا الكساد لا يجد له مشترياً ، فكثير فيه هذا الثمن ؛ لأن من عرف قدره استكثر فيه الفلسين ، ثم يعتذر المتنبي لهذا الكويفير ، فيرى أنه أحق اللئام بالعذر ، إذ إن الكرام السادة النجباء لتعجز عن هذا الجميل ، فكيف بهذا الخصي الآبق .

ومن هذه الاستفهامات التي تدل على التجاهل والتحقير ، بقصد السخرية والتجهيل والحط من القدر ، ما قاله محمد بن يزيد الحصني في الرد على عبدالله بن طاهر لما افتخر بقومه الفرس وبآبائه وأجداده الذين يمن بفضلهم على بني العباس ، يقول محمد بن يزيد : (٢)

لايرعك القال والقيل	كل مابلغت تهويل
أيها البادي بنسبته	ما لما قد قلت تحصيل
يابن بنت النار موقدها	ما لحاذيه سراويل
من حسين ! أو أبوك ! ومن	مصعب ! غالتهم غول

---

(١) ديوان المتنبي ، بشرح العكبري ٢/ ٤٦ .

(٢) الفرج بعد الشدة ، للتنوخي ٢٣٤ .

وزريـــق إذ تخلّفـــــه نســب عمـرك مجهــول
تلك دعــوى لاتناقشــها وأبـــوات مراذيـــل
أســرة ليست مباركـــة غيرهــا الشــم البهاليــل

يردد ابن يزيد هذه الاستفهامات الساخرة محقرا ومستخفا بشأن هؤلاء الآباء النكرات المجاهيل ، فليس بمثلهم فخر ، لأن الفخر بغيرهم من السادة الأعزة البهاليل .

ومن السخريات الشهيرة قول ابن أبي عيينة يسخر من ذاك الذي تهدده وتوعده ، وهو علي بن محمد العلوي ، وكان قد دعاه إلى نصرته فلم يجبه الشاعر ، فتوعده ، فقال له هذا الشعر : (١)

أعلي ، إنك جاهــل مغــرور لا ظلمـــة لك لا ، ولا لك نــور
فدع الوعيد فما وعيدك ضائري أطنين أجنحــة الذبـاب يضـير !

ينادي الشاعر مهجوه نداء استخفاف فهو إنسان مغرور جاهل بقدر نفسه ، سمج لايستطيع نفعا ولاضرا ، ثم يأمر ابن أبي عيينة خصمه بأن يترك عنه التهديد والوعيد ، وهو أمر احتقار واستخفاف ، ذلك لأن هذا الوعيد لاقيمة له ، ومعنى ذلك أن صاحبه الذي صدر عنه أيضا لا قيمة له ، فهو أشبه بطنين الذباب إذا ما حرك جناحيه ، وهل هذا الطنين مما يضر ، إن ذاك الوعيد كهـذا الطنين . سخرية كان قوامها ذلك الأمر بالترك والتشبيه الساخر للوعيد بطنين أجنحة الذباب والاستفهام التهكمي .

ومن ذلك أن زياد الأعجم(*) الشاعر كان قائماً يخطب في مسجد البصرة يوماً

---

(١) دلائل الإعجاز ١٢١ .

(*) زياد بن سلمى ، قيل له الأعجم للكنة فيه ، كان خطيباً وكاتبا داهية وشاعراً أكثر شعره الهجاء، توفي في حدود المائة . معجم الأدباء ١١/ ١٦٨ .

فدخل عليه أبو قلابة الجرمي(*) ، فقال : من هذا العلج ؟ فقال زياد : من هذا ؟ قالوا : أبو قلابة الجرمي ، فقام على رأسه فقال : (١)

قُمْ صاغِراً ، ياشــيخَ جَرْمٍ ، فإنما ... يُقال لشيخ الصِّدقِ : قُمْ غيرَ صَاغِرِ

فمـــنْ أنتمُ ؟ إنا نسينا مـــن أنتمْ ... وريحُكُمْ من أيِّ ريحِ الأعَاصِـــرِ

أأنتم أُولَى جئتُم مع النَّمْلِ والدَّبى ... فطارَ ، وهذا شيخُكُم غـيرُ طائِـرِ

قَضَى اللهُ خلـقَ النـاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمُ ... بقيّــةَ خَلْقِ اللهِ آخــرَ آخِــــرِ

فلم تَسْمَعُوا إلا بمن كان قبلكـــم ... ولــم تُدْرِكُــوا إلا مَـدَقَّ الحَوَافِرِ

التهكم غضب وتقحم ، وتعرض للناس بالشر (٢) وقد أبلغ زياد في التهكم بهذا الشيخ الجرمي ، إذ يأمره أن يقوم صاغراً لأنه شيخ سوء ، ويرد عليه إهانته وهزءه بأبلغ منه ، فيجهله هو وقومه ويتناساهم ، بل ويهزل ويتماجن باستخفاف حينما يسأله أأنتم الذين جئتم مع النمل والدبى مع هذه الطيور الحقيرة التي تظهر فجأة وتختفي فجأة ، فلا أصل لكم ولا فصل . فأنتم آخر الخلق وفي هذا التكرار « آخر ، آخر » مبالغة وتأكيد لهذا التأخر المزعوم ، فهؤلاء القوم ليسوا سوى بقية وحثالة ليس لهم في الفضل والمكرمات قدم سبق لأنه قد ذهب بها من كان قبلهم من أهلها أما هم فقد أبطأ بهم أصلهم الوضيع فلم يدركوا إلا آثار من سبق بالفضل فعجزوا عن اللحاق بهم .

كما يحكى عن المستنصر الفاطمي حاكم مصر ، أنه لما كتب كتاباً إلى الخليفة

(*) عبدالله بن زيد البصري ، تابعي ثقة عالم بالحديث والقضاء توفي بالشام سنة ١٠٤ هـ . تهذيب التهذيب ٥/ ١٩٧ .

(١) انظر العمدة ٢/ ٨٥٠ ، ٨٥١ .

(٢) معجم مقاييس اللغة (هكم) .

ببغداد المسمى بالقائم بأمر الله ، وكتب عنوانه « من ابن عمه » ووصل كتابه إلى القائم بأمر الله ، ورأى العنوان فكتب إلى جانبه سطراً يقول فيه :(١)

ومن أنتم إنا جهلنا من أنتم   وريحكم من أي ريح الأعاصر

يستشهد ببيت زياد الأعجم السابق تحقيراً لذاك الفاطمي المدعي وحطاً من قدره ، وتهكماً بدعواه تلك .

من خلال الأمثلة السابقة يتضح أن المعاني الاستفهامية يمكن أن تتعدد في نص واحد ، وهذا أمر طبعي في كثير من الأساليب البلاغية ، فكثيراً ما تتعدد المعاني البلاغية في الأسلوب الواحد ، ويندر أن يكون المعنى واحداً ، لذلك نلجأ عند تحليلنا لأسلوب استفهامي إلى ذكر جملة من المعاني ، فنقول مثلا ، إنه إنكار ، وتوبيخ ، وعتاب ، وتعجب ، وذلك « لأن المعاني التي يفيدها الاستفهام كثيراً ما تكون خفية وسانحة ومتفلته» (٢) .

والدلالة كما قيل بنت السياق ، والسياق إنما هو تركيب له خصائص وعناصر وعلاقات ، والتعرف على تلك الخصائص والعناصر والعلاقات يساعد على معرفة دلالة السياق والكشف عن تلك المعاني .

وهذه المعاني البلاغية للاستفهام كثيرة لا يمكن حصرها ؛ لأن « كل جملة استفهامية تمثل نموذجاً مستقلاً له خصوصيته من حيث كونها استفهامية ، ومن حيث كونها تنسيقاً جديداً للألفاظ ولذا فإن حصر المعاني الاستفهامية في معان محددة يجعلها قاصرة عن استيعاب أطراف الدلالة وأبعادها » (٣) .

---

(١) جوهر الكنز ٣١٣ .

(٢) دلالات التراكيب ٢١٨ .

(٣) انظر أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي ١٦ ، ١٧ .

وقد قسم بعض الباحثين هذه المعاني إلى معان أصلية وأخرى فرعية (١) والأقرب إلى الصواب أن المعاني كلها سواء يمكن أن يدل على أحدها أي سياق استفهامي ، نعم هناك معان في السياق تكون أكثر وضوحاً من غيرها ، ولكن ليس معنى ذلك أن هذا الوضوح مقتصر على معان أصلية دون غيرها فالتعجب – وقد عد في المعاني الفرعية – يمكن أن يكون أوضح من غيره من المعاني في سياق ما ، كما في قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله و كنتم أموتاً فأحيـكم** ﴾(٢) .

وفي السياق البلاغي يغلب أن يكون هناك « معنى أو إحساس مسيطر أكثر ظهوراً من غيره ولا ينفي معاني أخرى متولدة ممتدة متصلة به ، ذلك لأن المعاني البلاغية للاستفهام معاني شعورية انفعالية تموج بها النفس البشرية ، متداخلة متعانقة أو متقاربة»(٣) .

وقد عد القزويني للاستفهام البلاغي عشرة معان يخرج إليها ، ثلاثة منها معان يغلب عليها الدلالة على التهكم والسخرية ، وهي الإنكار ، والتهكم ، والتحقير ، ولكن الدلالة على السخرية ليست مقصورة في هذه المعاني الثلاثة ، بل قد يكون الغرض من تقرير شخص تبكيته والتهكم به والسخرية منه . « وحقيقة استفهام التقرير أنه إنكار»(٤) .

وعبدالقاهر الجرجاني عندما علق على مقولة إبراهيم عليه السلام مع قومه قال : «واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه»(٥) والآيات هي قوله تعالى : ﴿ **قالوا ءأنت فعلت هـذا بالهتنا يـإبرهيم ، قال**

---

(١) أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ٢٤٧ .

(٢) بعض الآية (٢٨) من سورة البقرة .

(٣) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ١٢٥ .

(٤) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، د. فتحي عامر ٣٦٧ .

(٥) دلائل الإعجاز ١١٤ .

بل فعله كبيرهم هـٰذا فسئلوهم إن كانوا ينطقون ﴾ (١) ، ويعلق عليها الزمخشري بقوله : «هذا من معاريض الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني ، والقول فيه إن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلا أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك - وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط - : ءأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة ، فقلت له : بل كتبته أنت ! كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي أو المخرمش ؛ لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر » (٢) .

وفي الآيات التالية يتعانق التقرير مع السخرية ، ويعقبها الإنكار الموبخ الساخر ، في نسق قوي مسكت ، وسياق يفضي إلى تقرير يتولد معه التهكم بأولئك الذين اتخذوا من دون الله أولياء عاجزين ، فهم لضلالهم لايدركون الفرق بين الأعمى والبصير ولا بين الظلمات والنور والآيات هي :

﴿ قل من رب السمٰوٰت والأرض قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أوليآء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا قل هل يستوي الأعمىٰ والبصير أم هل تستوي الظلمٰت والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشٰبه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الوٰحد القهٰر ﴾ (٣)

---

(١) الآيات (٦٢ - ٦٣) من سورة الأنبياء .

(٢) تفسير الكشاف ٣/ ١٥ .

(٣) الآية (١٦) من سورة الرعد .

وقل مثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ **أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله** ﴾(١) . فهذا تقرير معه تهكم وتوبيخ .

وقد يصحب الاستفهام الساخر أو يكون مع التنبيه على الظلال ، فيكون تنبيها لذلك الضال وسخرية من تماديه وسيره في طريق الضلال ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون . ولقد رءاه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون** ﴾(٢) .

تبين الآيات أن القرآن من عند الله نزل به جبريل الذي هذا وصفه على محمد الذي هذا وصفه ، فأين تذهبون حين تقولون إنه إفك وأساطير الأولين ؟ والاستفهام هنا ليس تنبيها على ضلال فحسب ، وإنما هو بجانب ذلك إنكار ونفي واستجهال وتشهير بغفلتهم وتضييق عليهم (٣) .

وقد يصحب الاستفهام الساخر أو يكون مع الاستبعاد فكلمة « أيان » التي يقول البلاغيون إنها تستعمل في « المواضع التي يعظم المتكلم فيها الشيء الواقع في الزمان » (٤) يستعملها الكفار في السؤال عن يوم القيامة استهزاء وسخرية واستبعاداً لذلك اليوم ، «وكان المشركون يسألونه عليه السلام استعجالاً واستهزاء ويسأله اليهود امتحانا لما أن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وسائر الكتب »(٥) ويحكى الله سبحانه وتعالى ذلك على

---

(١) الآية (٥٠) من سورة النور .

(٢) الآيات (١٩ - ٢٦) من سورة التكوير .

(٣) انظر دلالات التراكيب ٢٢١ .

(٤) شرح عقود الجمان ١/ ١٨٤ .

(٥) انظر تفسير أبوالسعود ٧/ ١١٦ .

لسان الكافر : ﴿ **بل يريد الإنسـٰن ليفجـر أمامه يسـئل أيان يوم القيامة** ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ **يسئلون أيان يوم الدين** ﴾(٢) وهو أيضا سؤال استهزاء واستبعاد . وإنكار الوقت في « أيان » يعني « إنكار الحدث الواقع فيه وهو البعث وهذه الأسئلة تمثل غاية الاستبعاد والسخرية الهازئة والإنكار العنيد والاستعجال الهازل » (٣) .

وإفادة « أيان » – في الموضعين – للتفخيم لا تناقض كون هذا الاستفهام صادر من منكر ومكذب للبعث إذ أن التفخيم هنا وارد باعتبار أن هذا القائل يقول هذا السؤال بناء على اعتقاد المخاطب استهزاء به وإنكارا عليه ، فالنبي ﷺ كان يتلو عليهم آيات الله ونذر القرآن التي تصور يوم القيامة وهوله ، كل ذلك في أساليب جليلة مهولة ، فجاء رد الكافر محاكيا هذا الأسلوب ، وذلك الاهتمام مستفهما « بأيان » إمعاناً في السخرية والاستبعاد والتكذيب (٤) .

ومن الأساليب التي يخرج إليها الاستفهام الأمر وقد يكون معه السخرية والتوبيخ لأن المخاطب قد ترك أمرا ماكان ينبغي أن يتركه فاستحق أن يوبخ على هذا الترك ، ويفيد أيضا هذا الأسلوب طلب ذلك الفعل المتروك ، ومن ذلك أساليب : ألا تتقون ، وأفلا تعقلون ، أفلا تبصرون .

فالمراد بالاستفهام هنا الإنكار على من لم يتق ولم يعقل ويبصر وتوبيخه على هذا الترك وطلب الاتقاء والعقل والبصر .

---

(١) الآيتان (٥ ، ٦) من سورة القيامة .

(٢) الآية (١٢) من سورة الذاريات .

(٣) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ١٧٣ .

(٤) انظر شروح التلخيص ٢/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

ومن أساليب الاستفهام التي خرجت إلى الأمر وقصد بها السخرية قول إبراهيم للأصنام عندما دخل عليها ﴿ **ألا تأكلون** ﴾(١) أي كلوا ، يطلب منها الأكل مع علمه بأنها لا تأكل سخرية بها وبعابديها (٢) .

وبعد فإن دراسة الاستفهام بعيداً عن التطبيق والتحليل تعد دراسة قاصرة مالم تشفع بالنظرة التحليلية ؛ لأن ذلك لايتفق وطبيعة أسلوب الاستفهام « ذلك الأسلوب الذي تتعدد فيه دلالات الجملة الواحدة ، فنرى أن بعضها يرتبط بإطار عام ثم يتفرع بحيث تتداخل المعاني وتتراكب وتتسع » (٣) ، لذلك أكثرت في هذا المبحث من الأمثلة والتحليل ، ونوعت الأمثلة ، فأمثلة قرآنية وأخرى شعرية ، واعتمدت في ذلك بعد النظر في أصح الأقوال على الاستقصاء في التحليل والتعليل .

---

(١) بعض الآية (٩١) من سورة الصافات .

(٢) انظر أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ٥٣ - ٥٦ .

(٣) أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي ١٠ .

الأمـــــر الساخر

من أساليب الإنشاء الطلبي التي تأتي منها السخرية الأمر ، ويعرفه البلاغيون بأنه : « طلب فعل - غير كف - على جهة الاستعلاء » (١) .

والاستعلاء المقصود هو « عد الآمر نفسه عاليا ، سواء كان عاليا في نفسه حقيقة أم لا ؛ لتبادر الفهم عند سماع صيغته إلى ذلك ، والتبادر علامة الحقيقة ، هذا هو الأصح عند علماء الفن » (٢) .

وصيغته ، كل فعل أو اسم دل على طلب فعل - غير كف - استعلاءً . وهي أربع صيغ فالفعل نحو : « أكرم » ، والمضارع المقرون بلام الأمر نحو : « ليضرب » ، والاسم نحو : « رويداً » اسم فعل أمر ، والمصدر النائب عن فعل الأمر نحو : « ضربا » (٣) .

وهذه الصيغ قد تستعمل في غير طلب الفعل على جهة الاستعلاء ، فتفيد معاني كثيرة تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال ، أوصلها بعض الشراح إلى خمسة وعشرين معنى (٤) ، ويمكن أن يدخل بعض هذه المعاني في بعض ، فتختصر كما فعل الخطيب القزويني ، فذكر منها :

الإباحة ، والتهديد ، والتعجيز ، والتسخير ، والإهانة ، والتسوية ، والتمني ، والدعاء ، والالتماس ، والاحتقار (٥) .

---

(١) مختصر السعد على التلخيص ٢/٣٠٨ ، ٣٠٩ .
(٢) انظر شرح عقود الجمان ١/ ١٩٠ .
(٣) مواهب الفتاح ٢/ ٣١١ ، وشرح عقود الجمان ١٩٠ .
(٤) عروس الأفراح ٢/ ٣١٢ - ٣٢٢ .
(٥) الإيضاح ٢/ ٣١٢ - ٣١٤ ، ٣١٧ - ٣٢٠ .

ومعلوم أن تعيين معنى بلاغي واحد والنص عليه في أي سياق لا يعني أن السياق لا يحتمل معاني أخرى ، بل إن هذا المعنى أكثر ظهوراً ووضوحاً من غيره ، فالسياق يمكن أن يفيد عدداً من المعاني المتقاربة المتداخلة ، ذلك أن هذه المعاني شعورية انفعالية تتوارد على النفس ويزدحم بها الوجدان .

وخروج الأمر إلى هذه المعاني تعددت فيه آراء العلماء ، فبعضهم يجعله من قبيل الكناية ، وبعضهم يجعله من قبيل المجاز فيحاول أن يؤلف العلاقات بين هذه المعاني ودلالة الأمر عليها وبعضهم يجعله من قبيل مستتبعات التراكيب ذلك أن هذه المعاني سياقية تفهم بقرائن الأحوال ودلالة التراكيب (١) . والأقرب إلى الصواب أنها معاني سياقية تفهم وتستفاد من مستتبعات التراكيب .

وقد يخرج الأمر عن معناه الأصلي لغرض السخرية والتهكم ، وغالبا ما تصاحب السخرية كذلك أغراضاً مثل : التسخير ، والإهانة والتحقير ، مع أننا لا ننفي أنها قد تصحب أغراضاً أخرى مثل ، التهديد ، والتعجيز ، والتكذيب ، ذلك لأن هذه المعاني سياقية تكون في موضع أكثر وضوحاً منها في موضع آخر ، ثم إنها يمكن أن تصنف في مجموعة المعاني الانفعالية الغاضبة التي تهدف إلى التقويم أو التوضيع عن طريق السخرية .

ومن المعاني التي يخرج إليها الأمر الإهانة ، أي الإذلال ، وهي إظهار ما فيه تصغير المهان وقلة المبالاة به . وحاصله أن صيغة الأمر ترد للإهانة إذا استعملت في مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور على أي وجه كان ، والعلاقة بين الأمر والإهانة واضحة ؛ لأن

---

(١) انظر شروح التلخيص ٢/ ٣١٣ ومابعدها .

طلب الشيء من غير قصد حصوله لعدم القدرة عليه مع كونه من الأحوال الخسيسة يستلزم الإهانة (١) .

« والإهانة يلزمها غالبا التهكم والسخرية بالمهان » (٢) ذلك لأنه بلغ من المهانة بحيث يؤمر ولكن ليس لقصد أن يمتثل للأمر ، بل ليشعر باستعلاء الآمر عليه وتهكمه به ، وبحقارة نفسه وهوانها ، فالآمر لا يقصد إلا إنزال الهوان والسخرية بالمأمور ، والمأمور به هنا يكون خسيساً أولاً ، وغير مقدور عليه في الغالب (٣) .

والفرق بين الإهانة والتسخير ، أن التسخير « يحصل فيه الفعل حال إيجاد الصيغة ، والإهانة لا يحصل فيها الفعل أصلا ؛ لأن المقصود فيها تحقير المخاطبين وقلة المبالاة بهم لا حصول الفعل »(٤) .

وكم تكون هذه الإهانة قاسية ومتهكمة هازئة ، وذلك حينما يؤمر المهان فلا يجيب ، ومعلوم أن الأمر حقه الفور كما قال السكاكي (٥) . ذلك أنك إن قلت لغلامك : افعل ، ولم يفعل ، فأمرته بأمر فلم يطعك فهو عاصٍ ، لذلك عرفه ابن فارس بقوله : « ما إذا لم يفعله المأمور به سمي المأمور به عاصيا » (٦) ، لكن المأمور هنا حينما يراد من الأمر الإهانة يقف صامتاً يتلقى تلك الأوامر التي تنزل به أقسى الإهانات ، فتجعله في موقف مضحك مزرٍ ، إذ يطلب منه أن يفعل ولكنه لا يتحرك ؛ لأنه يدرك

---

(١) انظر حاشية الدسوقي ٢/ ٣١٧ ، وشرح عقود الجمان ١/ ١٩١ .

(٢) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ٤٦ .

(٣) البلاغة الاصطلاحية : د. عبده قلقيلة ١٥٨ .

(٤) انظر حاشية الدسوقي ٢/ ٣١٨ .

(٥) انظر مفتاح العلوم ٣١٨ .

(٦) الصاحبي ٢٩٨ ، ٣٠٢ .

بأن قصد الآمر بأمره ليس هو حصول المأمور به ، بل إنزال الهوان بالمأمور ، والتهكم به ، والسخرية من حاله في أغلب الأحيان .

ومن المعاني التي يخرج إليها الأمر التسخير ، وهو « السياقة إلى الغرض المختص قهراً » (١) والتبديل من حالة إلى أخرى فيها مذلة ومهانة . والفرق بينه وبين التكوين أن التسخير تبديل من حالة إلى أخرى أخس منها ، والتكوين إنشاء من عدم لوجود (٢) .

والتسخير قد يكون إخباراً بالحقارة والمذلة وانحطاط القدر ، وسخرية بالمسخرين الذين بلغوا من الخساسة والمذلة بأن يقال فيهم إنهم أذلاء محتقرون ممسوخون (٣) .

والتسخير أخص من الإهانة إذ فيه يحدث المأمور به ، كتحويل بعض اليهود قردة وجمهور المفسرين على أن المسخ حقيقي ، ويضاف إلى التسخير سرعة التكوين ، أو كما قالوا سرعة الكون على هذا الوصف نكالاً لهم وموعظة للمتقين (٤) .

والتسخير تبديل من حالة إلى حالة أخرى أخس ، ففي هذا التبديل إهانة وإذلال واحتقار للمسخَّر ، وهذه المعاني كثيراً ما يصاحبها التهكم ، كما في قوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل الذين قيل لهم لا تعدوا في السبت ، فعمدوا إلى حيلة سخيفة ، حيث كانوا يلقون شباكهم يوم الجمعة ويستخرجونها يوم الأحد ، وهذا من فرط استخفافهم وعدم مبالاتهم بأوامر الله عز وجل ، فغضب الله تعالى من صنيعهم ، فأحالهم إلى قردة وخنازير إذلالاً وإهانة لهم ، وسخرية من حيلهم التي لا تجوز على الله سبحانه وتعالى(٥) .

---

(١) مفردات الراغب ٢٢٧ .

(٢) انظر مواهب الفتاح ٢/ ٣١٧ .

(٣) انظر عروس الأفراح ٢/ ٣١٧ .

(٤) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ٤٨ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ١/ ١٠٥

وأساليب الإهانة الساخرة المتهكمة كثيرة ومتنوعة في القرآن الكريم ، وقد تكون لوناً من ألوان التعذيب يوم القيامة ، فمن أساليبها عند الإمام القزويني قوله تعالى على لسان المكذبين بالبعث والنشور وهم يسخرون من ذلك(١) ، قوله جل وعلا :

﴿ وقالوا أءذا كنا عظٰما ورفٰتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسىٰ أن يكون قريبا ﴾(٢) .

هذا لون من ألوان السخرية والاستهزاء يمارسه المشركون ضد النبي ﷺ وعلى الأخص ضد حقيقة (البعث والنشور) فهم يتساءلون جهاراً وسراً ، والوجه الذي يكون سخرية واضحة منهما هو الجهر حيث يكون فيه إيلام واستهزاء ، والدليل الأمر بالقول رداً على القول المسموع وهو سؤالهم **﴿ أءذا كنا عظٰما ورفٰتا أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾** .

فيأتي الجواب مجانسا ومشاكلا لسؤالهم بقوله (كونوا) لأنهم قالوا (أءذا كنا) فجاء الرد آمرا لهم بقوله (كونوا) وفيه استهانة مشابهة لقول الله تعالى في آية أخرى (ألقوا ما أنتم ملقون) وهو أمر إهانة وتهكم .

ويراد من هذا الأمر المتهكم أن يدحض حجة هؤلاء ، فإن كانوا يظنون أن العظام والرفات لا تعاد فليكونوا حجارة أو حديداً أو أي هيئة يرونها تصلح بعد موتهم أن تعاد ؛ لأنهم استصعبوا ذلك ورأوه محالاً ، توصلاً منهم إلى إنكار بعثهم ، فأمرهم الله أن

---

(١) الإيضاح ٢/٣١٧ .

(٢) الآيات (٤٩ - ٥١) من سورة الإسراء .

يكونوا حجارة أو حديدا ، وهي ضد ليونة العظام والرفات ، أو يختاروا شيئا أكبر في عقولهم لايزول بعد الموت ، فالله قادر على إعادتهم لأنه قد بدأهم أول مرة .

فالأمر عند الله سيان ، حديد أو رفات ، الكل مبعوث ، وما قوله في هذه الآية (قل كونوا) إلا سخرية بأحلامهم وعقولهم ، وسر بلاغة التعبير إظهار التهكم بهم حتى يتلفتوا إلى ما هم فيه من المهانة والذلة فيقلعوا عن عنادهم وتكبرهم .

ثم يتبع الحديث حيث يسأل المشركون فى سخرية « من يعيدنا » فيأتي الجواب مفحما : ﴿ **الذي خلقكم أول مرة** ﴾ ، وإعادة الخلق أهون من بدئه ، وإن كان يستوى الأمران عند الخلاق العليم .

ثم يأتي السؤال الساخر من المشركين عن يوم القيامة حيث يسألون (متى هو) ولم يقولوا (متى الساعة) وإنما أرادوا مزيداً من السخرية ، فجاءهم الرد الذي أقفل كل مجالات الجدل ، وتركهم في ريبهم يترددون (قل عسى أن يكون قريبا) (١) .

ودلالة الأمر على التهكم والسخرية كثيرة في الذكر الحكيم ، يقول الزمخشري في معرض تعليقه على قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدآءكم من دون الله إن كنتم صـٰدقين** ﴾(٢) .

يقول : « وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن المعجز بفصاحته غاية التهكم بهم » (٣) ، والسخرية هنا منشؤها هذه المفارقة المضحكة ، أن يُطلب منهم الاستعانة بأصنام صماء لمجارات وتحدى كلام معجز ، فكأن هذه السخرية

---

(١) انظر تفسير أبوالسعود ٦/ ١٧٧ ، ١٧٨ ، وروح المعاني ١٥/ ٩١ ، ٩٢ ، والتحرير والتنوير ١٢٣-١٣٠ ، ومن بلاغة النظم العربي ، د. عبدالعزيز عرفة ٢/ ٧٩ .

(٢) الآية (٢٣) من سورة البقرة .

(٣) تفسير الكشاف ١/ ٤٩ .

تضعهم أمام عقولهم وتهزها هزة عنيفة علها توقظهم من غفلتهم فيعودوا ليتفكروا في شأن هذه الأصنام العاجزة .

وأمر المشركين بأن يدعوا شركاءهم يوم القيامة ، يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ، إنما قصد به السخرية والتهكم بهم كما هو واضح من سياق الآيات وأقوال المفسرين فيها ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا** ﴾(١) .

الخطاب للنبي ﷺ ، قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر « وذلك على سبيل التهكم » (٢) . وكثيراً ما يتكرر هذا الأسلوب في القرآن الكريم فيكون لونا من ألوان التعذيب النفسي يوم القيامة ، إضافة إلى العذاب الجسدي الذي يعانيه المكذبون والمعاندون .

وقد يكون تهكما وسخرية على ألسنة الرسل والناصحين بمن يرى الحق لا مرية فيه ثم ينكص عنه تكبراً وعلواً . والصور التي تسخر من مآل المشركين يوم القيامة كثيرة أيضاً وهي تصور المشركين في أوضاع تثير كثيراً من مشاعر النفس وانفعالاتها . وهناك صور كثيرة للقادة الذين تزعموا حملة الشرك وحرب الإسلام ، وكانوا أكثر صلفاً وإعراضاً وصداً من غيرهم ، وكانوا يرون لأنفسهم العزة والقوة والتسلط ، ويعدون بين أتباعهم مثالاً للكبر والجبروت ، ولكن القرآن يصور لهؤلاء المتكبرين المتجبرين حالهم يوم القيامة وما هم فيه من ذلة ومهانة ، فيفضح حقيقتهم أمام أتباعهم في الدنيا بسخريته منهم ويفزع قلوبهم بذكر ذلك الهوان والمصير الذي ينتظرهم .

---

(١) الآية (٥٦) من سورة الإسراء .

(٢) انظر التفسير الكبير ، للفخر الرازي ٢٥/ ٢٥٤ .

ومن ذلك ، تكرار الفعل « ذق ، وذوقوا » بصيغة الأمر خطاباً للمتكبرين ، والذوق وجود الطعم بالفم ، وهو لا يكون إلا لمطعوم يساغ ، وقد ورد بصيغة الأمر في القرآن ثلاثاً وعشرين مرة ، في أساليب قوية ساخرة متهكمة (١) . نعرض لصورتين منها ، تُظهر أولئك الزعماء المستكبرين وهم يعالجون غصص العذاب ومرارة المذلة والهوان ، ويتلقون التهكم والسخرية التي تزيد في عذابهم .

أول هذه الصور تتحدث عن مصير ذلك المشرك المعاند ، فتصوره وهو يتلقى جزاء عناده وإعراضه وعداوته للحق وأهله ، فتصوره الآيات وهو يتلقى ذلك البلاء والعذاب الذي لا يطاق ، وهو مسلوب الإرادة لا يستطيع أن يفر أو يهرب ، ومن الطبعي أن الإنسان حينما يحس بقرب خطر أو حدوث ألم يسارع إلى تحريك يده ليتقي بها ذلك الخطر ، ولكن الآيات تصور ذلك المشرك وهو عاجز مستسلم لا يستطيع أن يرد بيديه ؛ لأنهما مغلولتان ، فلا يملك إلا أن يرد ويتقي ذلك العذاب بوجهه ، يدفع به عن نفسه يمنة ويسرة ، ما أفظعها من صورة ! شخص يأتيه العذاب من كل مكان وهو مغلول لا يستطيع أن يدافع عن نفسه إلا بوجهه ﴿ **أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب** ﴾(٢)، وتأتي السخرية بعد ذلك في التعليق التالي لهذه الصورة لتزيد المعاناة وتزلزل مابقى في النفس من رجاء ﴿ **وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون** ﴾ فأمْرُ مَن هذا حاله بأن يذوق العذاب وهو منغمس فيه سخرية بالغة ، تنزل عليه كالصاعقة فتطفئ ما في نفسه من أمل في الخلاص ، وتزيد في عذابه وتحطم نفسيته (٣) .

---

(١) انظر مفردات الراغب : (ذق) ، و المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : (ذاق) .

(٢) الآية (٢٤) من سورة الزمر .

(٣) انظر في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤٩ ، وأساليب السخرية في القرآن الكريم ١٠٨ ، ١٠٩ .

والصورة الثانية ، يرسم فيها القرآن الكريم صورة لذلك الزعيم المتغطرس المتكبر الذي يدعي لنفسه العزة والكرامة ، فيظهره في منظر مهين ، حيث نرى هذا الزعيم المتكبر الذي كان لا يرى سلطانا فوق سلطانه ، نراه يقف ذليلاً أمام سلطان الله ﴿ **إن شجرت الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سوآء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم، ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾(١) .

تبدأ الآيات بوصف طعام هذا الأثيم ، والذي أعد له خصوصا ، فهو لايزال يحظى بنوع من الخصوصية والعناية حيث أضيف الطعام إليه ﴿**إن شجرة الزقوم طعام الأثيم** ﴾ فيجر هذا الأثيم إلى حيث الطعام المعد جراً ، ويسحب سحبا ، ثم يلقى في النار كأي شيء تافه ثم يصب من فوق رأسه العذاب صبا ، وهو مستكين ذليل لايملك دفعاً عن نفسه ولا صدا ، وتأمل إيحاءات الألفاظ الرهيبة : خذوه ، اعتلوه : أي فقودوه بعنف وغلظة ، والعتل أن يؤخذ بتلابيب الرجل فيجر إلى حبس أو قتل ، ثم يصب عليه العذاب النفسي في صورة سخرية واستهزاء صاعق ، وذلك حين يدعى - وهو النزيل العزيز المكرم - إلى أن يذوق هذا الطعام المهين ، الذي هو كدردي الزيت المغلي أو كذائب الفضة والنحاس ، يغلي في بطنه فيقطع أمعاءه ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ هكذا بأسلوب القصر وضمير الفصل تأكيدا لتلك الخصوصية ، حيث تؤكد له عزته وكرمه بعدة مؤكدات (إن) والضمير (أنت) (والألف واللام) في (العزيز الكريم) هذا مع أنه يرسف في هذا الهوان الشديد . وتبدو روعة الصورة في الموازنة بين مجد هذا الزعيم وجبروته في الدنيا ، وبين حاله الذليلة المهينة عند الله وقد جمع عليه عذابان ، العذاب

---

(١) الآيات (٤٣ - ٥٠) من سورة الدخان .

الحسي الذي يصب على الجسد ، والعذاب النفسي الذي ينصب على النفس والحس ، فيزيد من معاناتها وعذابها ، وعنصر العذاب المعنوي هو ما تشير إليه تلك الألفاظ : خذوه ، فاعتلوه ، ذق ، من سخرية وتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه فإذا أعيدت على مسامعه كلمات العزة والكرامة والكبرياء طعنت قلبه وزلزلت كيانه (١) .

ومن هذه الصور القرآنية التي تتحدث عن حال الكافرين يوم القيامة وما يجدونه من سخرية وتهكم جزاء سخرياتهم في الدنيا بأنبياء الله ورسله وشرائعه ، قول الله تعالى : **﴿ فإنما هي زجرة وٰحدة فإذا هم ينظرون . وقالوا يٰويلنا هٰذا يوم الدين . هٰذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون . احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم إلى صرط الجحيم . وقفوهم إنهم مسئولون . مالكم لا تناصرون . بل هم اليوم مستسلمون ﴾(٢)** .

يتحدث القرآن قبل هذه الآيات عن المشركين وهم في إعراضهم وكفرهم بالبعث والنشور ، وفي غمرة هذا الإعراض ينقل القرآن مشهدهم فجأة وقد بدت عليهم الدهشة والفزع ، إذ هم الآن فيما انكروه قبل لحظات ، وعند ذلك فالكلام لغيرهم والقرار ليس بأيديهم . ويؤمر الملائكة حينها بأن يقرنوا كلاً مع آلهته ، أو من يشابهه ويناظره في العمل، ثم يسخر منهم ، حيث يأمر الملائكة بهدايتهم إلى النار ، والهداية لا تكون إلا للمحبوب من الأمور ، التي يستبشر بالدلالة عليها ، أما هؤلاء فهدايتهم إلى أمر مكروه، والمقصود تعريفهم بطريقها ، وأن يروها ، وكذلك التعبير (بالصراط) تهكم بهم ، إذ هم من قبل قد اتبعوا سبلاً كثيرة، وتنكبوا عن صراط الحق ، فهاهم اليوم يسلكون (صراطاً)

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٣/ ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، في ظلال القرآن ٥/ ٣٢١٧ ، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ٤٦ ، أساليب السخرية في القرآن الكريم ١٠٩ ، ١١٠، المعاني الثانية ٣٧٨ .

(٢) الآيات (١٩ – ٢٦) من سورة الصافات .

واحداً إلى النار ، ولمزيد التهكم بهم يوقفون للسؤال بعد أن عرفوا مصائرهم ومثواهم الأخير ، وهذا الإيقاف يقصد منه الإهانة لهم والسخرية بهم ، ثم يأتي السؤال في هذه اللحظة الحاسمة مقرعاً لهم ومتهكماً من ادعائهم التناصر في الدنيا :

﴿ مالكم لا تناصرون ﴾ . أي لا ينصر بعضكم بعضا ، والخطاب لهم ولآلهتهم أو لهم فقط ، وقد تأخر سؤالهم إلى هذا الوقت ؛ لأنه وقت تنجيز العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة ، وهي حالة انقطاع الرجاء ، ولذا كان التقريع والتوبيخ والتهكم أشد وقعا وتأثيرا (١) .

ومن تهكم الذين كفروا من بني اسرائيل برسلهم هذا الحوار الذي يقصه الله تعالى في محكم التنزيل بين موسى وقومه :

﴿ وإذ قال موسى لقومه يقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وءاتكم ما لم يؤت أحدا من العلمين . يقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خسرين . قالوا يموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا دخلون . قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غلبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقتلآ إنا هَهنا قعدون ﴾(٢) .

دأب قوم موسى (بنو اسرائيل) على التعنت وكثرة الأسئلة والعناد وليٍّ اعناق الأحاديث ثم تكذيب هذه الأحاديث ، وقتل الأنبياء ، وسؤالهم رؤية الله جهرة ، ووقوفهم من موسى عليه السلام موقف التزمت من الأمر بذبح بقرة وتبديلهم قول الله .

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٣/ ٢٩٨ ، وأبوالسعود ٧/ ١٨٨ ، وروح المعاني ٢٣/ ٨٠ .

(٢) الآيات (٢٠ - ٢٤) من سورة المائدة .

وهؤلاء القوم الذين رأوا بأعينهم معجزات لم يرها أحد من خلق الله مثل انشقاق البحر ، ورفع الجبل فوقهم ، وإنزال المن والسلوى طعاماً لهم وغير ذلك ، ومن تلك المواقف التي يقصها القرآن الكريم عن عنادهم ومكابرتهم هذا الموقف الذي يقف فيه موسى عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل مذكرا لهم بنعم الله عليهم حيث جعل فيهم كثيرا من الأنبياء الذين لم يوجدوا في غيرهم من الأمم ، وجعلهم ملوكا بعد إهلاك فرعون وجنده ، وآتاهم كثيرا مما لم يؤت أحداً من العالمين ، من فلق للبحر ، وإغراق للعدو ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى وغيرها .

ثم يناشدهم ويناديهم أن يدخلوا بيت المقدس الذي قد كتب الله لهم ، وقد قدم لهم البشارة بفتحه وتمليكه لهم ، ويريد أن ينسيهم ما قيل عن طغيان العماليق فيه فلا ينكصون على أعقابهم ولكن الخوف منعهم فرفضوا ، وظهر من بينهم رجلان يحثانهم على الجهاد ، ويشيران عليهم بدخوله ولكن لا مجيب ، وعندما تفتر أفواههم عن الحديث يكون ذلك الحديث سخرية وتهكما من كل أولئك الداعين ، إذ يقولون : ﴿ **قالوا يٰموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها** ﴾ ، وهم بهذه الطريقة قد أقفلوا الطريق المؤدي إلى القدس ، فاتحين لأنفسهم طريق العودة ، ليس هذا فحسب ، بل شرعوا في السخرية من موسى وربه بقولهم ﴿ **فاذهب أنت وربك فقٰتلا إنا هٰهنا قٰعدون** ﴾ .

قولهم : « فاذهب أنت وربك » أمر لموسى بالذهاب وهو تهكم وهزء واضح ، وإضافة الرب إلى موسى فيه تمادي وزيادة في ذلك الهزء وتلك السخرية ، وقد قصدوا ذهابهما حقيقة لا مجازا وأرادوا من ذلك السخرية والاستهزاء ، كأن موسى لا يأوي إلى ركن شديد ينصره ويؤيده ، فبدونهم لا ينصر موسى وقولهم ﴿ **أنت وربك فقٰتلآ** ﴾ مزيد من السخرية حيث قرن موسى بالله في منزلة واحدة وفي قتال واحد ، والذي يدل على سخريتهم البغيضة أنهم قالوا بعد ذلك : ﴿ **إنا هٰهنا قٰعدون** ﴾ إمعانا في العناد ، فإن

موسى سلك سبيل الغي وهم قد سلكوا سبيل الرشاد . وقولهم (أنت وربك) وحصرهم للقتال فيهما فقط مع تناسي هارون والرجلين اللذين نصحا وبينا . فيه سخرية منهم ، حيث يشيرون ضمنا إلى عدم أهليتهم للقتال ، وأنهم لن يخرجوا معهم أو لم يعبئوا بقتالهم (١) .

ومن تهكم الكافرين وجرءتهم على الله وسخريتهم بنبيه هذا القول الذي يحكيه الله عز وجل على ألسنتهم : **﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هٰذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السمآء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾**(٢) .

هذه الآية تشير إلى ظاهرة دأب المشركون على تردادها عبر العصور وهي طلبهم العذاب من الرسل . والغرض من هذا الطلب تكذيب الرسل فالعذاب إن لم يأت اعتبر هذا حجة على الرسل عند الناس . ومعلوم أن العذاب لا يملكه الرسول ولا يقرره بل الآمر والمدبر هو الله تعالى .

وهكذا يكابر هؤلاء عند طلب العذاب فهم في دواخلهم خائفون وجلون ، وعلى هذا النسق هذه الآيات ، حيث يدعون الله في تهكم واستخفاف أن ينزل عليهم العذاب إذا كان ما أنزل من القرآن هو من عنده ، والمراد نفي كونه حقا ، وفيه تهكم بمن يقول بأن القرآن حق من عند الله ولذا هم يسألون الله بفعل الأمر : (فأمطر) والمطر يكون عذاباً وضده الغيث الذي هو نعمة . وهم في سخريتهم هذه يطلبون أشد العذاب إمعانا في تكذيب كون القرآن حقاً ، فهم يطلبون حجارة من السماء أي من سجيل ، ثم يتمادون في

---

(١) انظر الكشاف ١/ ٣٣٠ - ٣٣٢ ، وأبوالسعود ٣/ ٢٢ - ٢٤ ، وروح المعاني ٦/ ١٠٤ - ١٠٨ .

(٢) الآيتان (٣٢ ، ٣٣) من سورة الأنفال .

هزئهم واستخفافهم فإن لم يكن العذاب حجارة من السماء فأي عذاب أليم، ولو كانوا يقصدون غير السخرية لقالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له) وهم في صيغة الأمر هذه التي كرروها (أمطر ، أئتنا) مع تعليقها بكون الحق من عند الله، مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك : إن كان الباطل حقا فأمطر علينا حجارة ، وهذا تهكم وتكذيب فاضح (١) .

وأسلوب الأمر الساخر كثيرا ما يتكرر في الشعر العربي ، وقد أكثر الشعراء من استخدامه تهكماً وسخرية ، يصبونها على مهجويهم ليتجرعوا غصصها ، ويتألمون لتلك الإهانات التي تنالهم بتلك السهام الرائشة .

فهذا أبو نواس المعروف بفسقه ومجونه ، وإسرافه في ذكر الخمر وشربها يتعرض له مرة أحد الفقهاء يلومه على إسرافه في المجون وشرب الخمر خاصة ، ولكن أبا نواس ذا النفسية النرجسية الساخرة يهزأ من هذا الفقيه وورعه ، فيقول له إن كنت حقا من الناصحين الذين يرجون لي الخير فدع لومي واتركه ، وبادرني بكأس تشفيني من هذا اللوم ، وكأنه يلمح إلى قول الأعشى :

وكأسٍ شربتُ على لذّةٍ وأخرىٰ تداويتُ منها بها

ثم يلتفت أبو نواس إلى لائمه وناصحه ، فيناديه هازئا ومحسرا ، بأنك قد عرفت شيئا في هذه الدنيا ، وغابت عنك أشياء هي أسرار الخمر ومتعها وملذاتها .

فأي سخرية ومجون أقبح من هذين اللذين يجعلان صاحبهما المذنب يدعو إلى رذيلته ، بل ويجرؤ متهكما على دعوة من ينصحه ، بأن يغنم من هذه الرذيلة ، فإن فيها أسرارا تخفى على الكثير أمثاله . والأبيات هي قوله : (٢)

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ١٢٤ ، التحرير والتنوير ٩/ ٣٣١ - ٣٣٥ .

(٢) ديوان أبي نواس ، أحمد عبدالمجيد الغزالي ٦ .

دع عنك لومي فإن اللومَ إغراءُ   ودَاوِني بالتي كانتْ هـي الداءُ
فقلْ لمنْ يدّعي في العلمِ فلسفةً   حفظتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياءُ

ومن أمثلة الأمر الساخر الشعرية أن زياد الأعجم الشاعر ، كان ينشد بعجمته في مسجد البصرة فدخل أبو قلابة الجرمي ، فقال : من هذا العلج ؟ فقال زياد : من هذا ؟ قالوا : أبو قلابة الجرمي ، فقام زياد على رأسه فقال : (١)

قُمْ صاغراً ، ياشيخَ جَرْمٍ ، فإنما   يُقالُ لشيخِ الصِّدقِ : قُمْ غيرَ صاغرِ

وهذا الأمر المصاحب للصغار ، قصد منه الإهانة والاستحقار والاستخفاف كما يرى ابن رشيق ، فزياد وإن كان يصح أن يقصد قيام هذا الشيخ وخروجه من المسجد إلا أن دلالة النص هنا تقتضي أن يكون ذلك منه إهانة واستخفافا ، والسياق يشير إلى أن زياد إنما أراد أن ينتقم لنفسه من تلك الإهانة والتهكم الذي سبق من الشيخ الجرمي ، حينما سأل عنه متهكما .

ومن الشعراء الذين برعوا في استخدام هذا الأسلوب الساخر جرير بن عطيه ، الذي كان يصلي في نقائضه خصومه بوابل غزير من سخرياته ، وقد تفنن في السخر فبرع في معظم أساليبه لأنه كان صاحب موهبة صادقة ونفس ساخرة ، ومن سخرياته تلك الأوامر الساخرة التي كان يسلطها على خصميه الفرزدق والأخطل ، ومن ذلك تهكمه بالفرزدق وقومه في قوله : (٢)

---

(١) العمدة ٢/ ٨٥٠ .

(٢) ديوان جرير ٢/ ٥٥٠ .

خذوا كحلاً ، ومجمرة ، وعطراً   فلستُم يافرزدقُ بالرجالِ
وشُمُّوا رِيْحَ عَيْبَتِكُمْ ، فلستُم   بأصحابِ العِنَاقِ ولا النِّزالِ

الكحل والمجمرة والعطر من شئون النساء ، فعندما يؤمر بأخذها رجل فإن القصد من ذلك إهانته والتهكم به ، وأنه يعد في جملة النساء . وهذا ما أراده جرير بل وصرح به حين قال (فلستم يافرزدق بالرجال) ويتمادى جرير فيفحش ويبالغ في تحقير قوم الفرزدق وإهانتهم حين يأمرهم بأن يشموا ريحهم ، لأنهم ليسوا أهلا للمكرمات ، وفي هذين الأمرين اللذين يسلطهما جرير على الفرزدق وقومه لم يقصد جرير الأمر على حقيقته وإن كان يمكن أن يحتمل ذلك ، بل قصد إهانتهم وتحقيرهم والتهكم بهم .

ولجرير أيضا في هذا الأسلوب أبيات من قصيدته التي دمغ بها الراعي النميري وفضحه حتى سمتها العرب بالقصيدة « الفاضحة » لأنها فضحت بنى نمير وأخزتهم بما فيها من هجاء وتهكم وسخرية ، حتى إن أحدهم قبلها كان إذا سئل من أين هو ؟ فخم لفظه ، ومد صوته ، وقال : من نمير كما ترى ، إلى أن صنع جرير فيهم هذه القصيدة التي دمغتهم ، فكان الناس يسخرون منهم ، من ذلك أن امرأة مرت ببعض مجالس بني نمير ، فأداموا النظر إليها ، فقالت : قبحكم الله يابني نمير ، ما قبلتم قول الله عز وجل : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصٰرهم** ﴾(١) ولا قول الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير

فكانت هذه القصيدة سببا في ضعتهم بين الناس ، وقد كانوا من قبل جمرة من جمرات العرب (٢) .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة النور .

(٢) انظر العمدة ١/ ١٢٦ ، ١٢٧ .

ومن الأساليب التي اعتمدها جرير في السخرية من بني نمير في هذه القصيدة أسلوب الأمر الساخر يكرره في ثناياها ، بل إن أشهر بيت فيها كان مشتملاً على الأمر الساخر ، يقول جرير : (١)

ولو وزنت حلـــوم بني نمير   علـــى الميزان ما وزنت ذبابا

فصـــبرا ياتيـــوس بني نمير   فإن الحـــــرب موقدة شهابا

ألم ترني صـــببت على عبيد   وقـــد فارت أباجلـــه وشابا

فغض الطـــرف إنك من نمير   فـــــلا كعبا بلغت ولا كلابا

ألم ترني وســـــمت بني نمير   وزدت علـــى أنوفهم العلابا

إليـــك إليـــك عبد بني نمير   ولما تقتـــدح مني شــــــهابا

سفه أحلامهم واستخف بها ، فهي لا تساوي وزن ذبابه ، وهذا كناية عن السفه وانحطاط القدر ، ثم يلقبهم بالتيوس فيأمرهم متهكما أن يصبروا على حربه وسخره ، فإنه سيصبه عليهم وعلى شاعرهم ، ويسومهم بهذه السخريات حتى تنتفخ أوداجهم وعروقهم غضبا لما أصابهم ، ومع ذلك الواحد منهم لايملك إلا أن يغض بصره ويمشي منكسراً ذليلاً لايرفع نظره أو يمده فما هم إلا من نمير ، وهذا تشهير ببني نمير فكأنهم صاروا أحط العرب وأحقرهم .

ويرد الفرزدق على هجاء جرير وسخره فينهج نفس الأسلوب ، ويجعل من الأمر الساخر أسلوبا يتوصل به إلى إهانة خصمه والتهكم به ، يقول الفرزدق : (٢)

---

(١) ديوان جرير ٢/ ٨١٣ - ٨٢٥ .

(٢) ديوان الفرزدق ١/ ٤١٩ .

فياعجبي حتى كليبٌ تسُـتبني كأن أباها نهْشَـــلٌ أو مُجَاشِعُ

أتفخـُر أنْ دَقتْ كُليبٌ بَنهْشَلٍ وما مِــنْ كُليبٍ نهشلٌ والرَّبائِعُ

ولكنْ هُمَا عَمَّايَ مـن آلِ مالكٍ فأقْـعِ فقدْ سُدَّتْ عليكَ المَطَالعُ

ألا تسألُونَ الناسَ عــنّا وعنكمْ إذا عظِّـمَتْ عند الأمورِ الصّنَائعُ

تعالَوا فَعُدّوا ، يعلــمِ الناسُ أيُّنا لصـــاحِبِهِ في أوَّلِ الدّهْرِ تابِعُ

تَنحَّ عن البطْـــحَاءِ ، إنَّ قَديمَها لنا ، والجبالُ الباذِخَـاتُ الفوارعُ

شحنت هذه القصيدة بالانفعال وبألفاظ الفخر والتهكم ، وفي أول هذه الأبيات يعجب الفرزدق هازئاً ومحقرا لشأن كليب ، ثم يلتفت إلى شاعرهم منكراً عليه فخره بما ليس له فيه فخر ، بل الفخر للشاعر نفسه ، ثم يرمي خصمه بهذا الأمر الذي لا يقصد منه حقيقة الفعل ، بل السخرية والتهكم بخصمه وبدعواه تلك ، فيأمره أن يقع ، أي يجلس على مؤخرته كما يقعد الكلب على مؤخرته ، وهذا غاية في الإهانة والتهكم ، ثم يأمره هازئاً أن يتنح عن الأرض فإن قديمها لهم ، وألا يفكر في اللجوء إلى الجبال العالية الفارعه فإنها أيضا لهـم ، وما هـذا إلا مبالغـة من الشاعر في الفخر على خصمه والتهكم به .

ومن أمـثلة الأمـر الذي خـرج إلى التـهكـم ، قـول جـرير يخـاطب عـمـرو بن لجـأ التميمي : (١)

خَلِّ الطريقَ لمنْ يبني المنارَ بها وابرُزْ ببَرْزَةَ حيثُ اضطَرَّكَ القدرُ

---

(١) ديوان جرير ١/ ٢١١ .

مازلت تحفز أقــوالا وتبلغني   ذيخ المريرة حتى استحصد المرر

يأمره ساخراً بأن يترك طريق الفضل والمكرمات فهو ليس أهلا له ، ويتركه لمن هو أحق منه ، يبني مناره وشرفه ، ثم يأمره ثانية بأن يبرز بأمه « برزة » فيفخر بها ، وقد كان جرير يرميها بالخنا ، ثم يتهدده فيقول : أنت حين تعرضت لي إنما جنيت على نفسك فكنت كالضبع الذي يخرج رأسه من جحره فيجعل الحبل في عنقه .

وقد ذكر ابن فارس (١) بيت جرير الأول حينما عقد باباً لأسلوب الأمر ، ولكنه جعل هذا الأمر في البيت من قبيل التعجيز ، وليس كذلك بل هو تهكم وسخرية واضحة .

ومثل ابن فارس أيضا بقول عبيد بن الأبرص :

حتى سقيناهُم بكأسٍ مُرَّةٍ   فيها المثملُ ناقعاً ، فليْشربُوا

والتهكم هنا أيضا واضح في قوله : « فليشربوا » أي فليشربوا هنيئا هذه الكأس المرة التي كني بها عن الموت ، فيها السم الناقع المهلك ، ولكن ابن فارس جعل هذا الأمر من قبيل التهديد (٢) .

وبعد فإن أسلوب الأمر الساخر من الأساليب البلاغية الشائعة في القرآن والشعر وغيرهما، ومما سبق من الأمثلة تتضح تلك الأهمية وهذا الشيوع .

---

(١) انظر الصاحبي ٣٠٠ .

(٢) المرجع السابق ٣٩٩ .

النهي الساخر

النهي هو طلب الكف عن الفعل استعلاء ، وله صيغة واحدة هي الفعل المضارع المسبوق بـ(لا) الناهية ، وهو كالأمر في الاستعلاء ، إلا أن الأمر يكون بمعنى (افعل) والنهي بمعنى (لاتفعل)(١) .

والنهي الحقيقي ماكان من الأعلى إلى الأدنى على سبيل الإلزام ، وذلك مثل قوله تعالى :

﴿ يـٰأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسىٰ أن يكونوا خيراً منهم ﴾(٢).

وقوله : **﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقٰب ﴾**(٣) .

ومقتضى صيغة النهي ومدلولها الحقيقي ، هو طلب الكف عن الفعل فوراً، على وجه الاستعلاء طلبا جازما (٤) ، وقد تأتي صيغته طلبا للكف لكن لا على جهة الاستعلاء ، ولا الإلزام ، ولا الجزم ، وإنما لأغراض ومعان أخرى ، تلتمس من سياق الكلام ، وقرائن الأحوال ، ويمكن إدراكها في ظل الجو النفسي الذي ورد فيه النهي (٥) .

---

(١) انظر شروح التلخيص ٢/ ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٢) بعض الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٣) نفس الآية .

(٤) انظر الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية ، د. عبدالعزيز أبوسريع ٣١٣ .

(٥) انظر مستتبعات التراكيب بين البلاغة القديمة والنقد الحديث ، د. عبدالغني بركة ٦٦ .

ذلك لأن المعاني والأغراض الثانية التي يدل عليها النهي ، إنما هي معان سياقية ، تستفاد من مستتبعات التراكيب وقرائن الأحوال « لأنها في حقيقتها نقل للمشاعر التي تجيش بها النفس ، فإذا استطعنا أن ندرك جانبا من هذه المشاعر عرفنا المعنى البلاغي الذي يدل عليه هذا الأسلوب أو ذاك » (١) .

ولما كان القرآن الكريم حافلاً بالتشريع فقد كثرت فيه النواهي ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **وما ءاتـٰكم الرسول فخذوه وما نهـٰكم عنه فانتهوا** ﴾ (٢) ، وقد بلغت هذه الصيغ في القرآن أربع مائة وصيغة واحدة ، تناولت كثيرا من قضايا التشريع ، وأمور العقيدة ، والأمور العامة (٣) .

ولأن هذه النواهي محل رعاية الشارع الحكيم واهتمامه ، فقد جاءت صيغ النهي في القرآن كثيراً مسبوقة بالنداء ، فيكون النداء طلبا للمدعو ليصغى لأمر مهم(٤) وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ **يـٰأيها الذين ءامنوا لا تتبعوا خطوٰت الشيطـٰن ....** ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ **يـٰأيها الذين ءامنوا لا تحرموا طيبـٰت مآ أحل الله لكم** ﴾ (٦) .

وتخرج صيغة النهي عن معناها الحقيقي إلى معان أخرى سياقية ، منها قصد التحقير والإهانة ، والسخرية والتهكم بالمخاطب ، والنهي الساخر فيه

---

(١) انظر بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ، السيد عبدالرحيم عطية ٩٢ .
(٢) الآية (٧) من سورة الحشر .
(٣) انظر بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ٦ .
(٤) المرجع السابق ١٠٠ ، ١٠١ .
(٥) الآية (٢١) من سورة النور .
(٦) الآية (٨٧) من سورة المائدة .

استعلاء وترفع من المتكلم ، لأن الساخر إنما يسخر بمن يرى أنه أدنى منه منزلة ، بل إنه لا يسخر إلا بمن يستخفه ويحتقره ويستذله .

وهذه المعاني البلاغية التي يخرج إليها النهي ، يمكن أن يبقى في بعض صيغها معنى الاستعلاء واضحا جليا ، ويرجع ذلك لاعتبارات كثيرة ، منها منزلة المتكلم ، ومنزلة المخاطب ، ثم السياق وقرائن الأحوال ، ثم الغرض الذي يدل عليه ، فمقام الدعاء مثلا يخلو تماما من أي معنى للاستعلاء ، بل هو تذلل وضراعة وخضوع ، ومقام الإلتماس ليس فيه تذلل ولا خضوع ، وهو أيضا لايحتمل الاستعلاء ، أما مقام السخرية فإنه مقام هزء وتهكم وتهجم ، من لوازم هذا الاستعلاء .

وقد يكون النهي الساخر ليس طلبا للكف عن الفعل على وجه الإلزام والجزم ، بل يكون الكلام فيه خارجاً مخرج النصح والتماجن ، كما فعل الحطيئة ، فالحطيئة حينما خاطب الزبرقان بقوله (١) :

دع المكارم ، لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

يبدو هذا البيت للسامع أنه خال من التهكم والسخرية ، لولا إضاءة من حسان رضي الله عنه حينما سئل عن هذا القول ، أهجي الرجل أم لا ؟ قال : «لم يهجه بل سلح عليه » ، تدفعنا هذه الإضاءة الذكية إلى التأمل والتفرس في هذا البيت ، فالحطيئة ينهى الزبرقان أن يتعب نفسه في طلب المكارم ، فلا يتعب نفسه وراحلته في طلبها فإنه لن يدركها ، لأنه ينبغي أن يكون في القواعد يطعم ويكسى . ومثله قول الآخر :

---

(١) ديوان الحطيئة ، تحقيق د. نعمان طه ٥٠ .

لا تطلب المجد إن المجد سلمه صعب وعش مستريحا ناعم البال

فهو على نفس نسق البيت السابق ، ينهى الشاعر في سخرية ألبسها ثوب النصح ذلك الكسول الخامل حتى لايتعب نفسه في طلب المجد ، لأن للمجد سلماً صعباً، وثمناً باهضاً ، وتكاليف وتبعات ، لا يقوى على حملها من هذا حاله ، ثم يأمر خصمه بأن لايكدر صفو حياته ، وأن يعيش في راحة لا يشغل باله بالمعالي ، فإنه لايصلح لها ؛ لأنه ليس ممن يصبر على حمل تبعاتها ، فهو يشكك في رجولته وقدرته ، ويرميه بالخمول والكسل الذي يحول دونه ودون بلوغ المكرمات .

ومن النهي الساخر ، قول المتنبي في سخريته من كافور ، يهدي نصيحته وخبرته إلى كل من أراد أن يتعامل مع العبيد ، فيقول : (١)

لا تشتر العبد إلا والعصى معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

يتهكم المتنبي ويسخر من كافور الأخشيدي ، مذكرا إياه بأنه عبد مملوك فوصوله إلى الحكم لا يلغي هذه الحقيقة المرة ، ولا يعني تغير طبيعته وجبلته ولا انسلاخه عن أصله النكد ، وينظر المتنبي في هذا إلى المثل العربي المشتهر «العبد يقرع بالعصى ، والحر تكفيه الإشارة »(٢) ، وإلى قول بشار : « الحر يلحى ،

---

(١) ديوان المتنبي ٢/ ٤٣ .

(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٣٤٥ ، تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم .

والعصا للعبد»(١)، فينهى في سخرية وتماجن كل مشتر للعبيد أن ينسى العصى ، إذ إن الضرب لازم من لوازم العبيد ، لأنهم وسموا بالنكد وسوء الخلق ، وهذا يستلزم تعزيرهم بالعصى ، فالإقناع والتعقل لا ينفع معهم ، وإنما الضرب والتوبيخ، فما إن يسير أحدهم حتى يقف ، فيضرب ليمتثل . والنهي الساخر هنا في البيت جاء متقدما يفيد التشويق للتعليل الذي يوضحه في الشطر الثاني .

وكل المعاني السابقة للنهي الساخر المتهكم ، التي جاءت في الأمثلة إنما تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال وتدرك في ظل الجو النفسي للنص .

---

(١) ديوان المتنبي ٢/ ٤٣ .

النداء الساخر

حقيقة النداء هي طلب إقبال المدعو على الداعي ، بحرف نائب مناب (أدعو) .

وحروفه هي : الهمزة ، وأي ، وهما موضوعان لنداء القريب ، ويا ، وأيا ، وهيا ، وآ ، وآي ، ووا ، وهي موضوعة لنداء البعيد(١) .

والنداء من الأساليب الإنشائية الطلبية ، وهو لون من الخطاب ، والغالب أنك لا تنادي أحدا إلا إلى أمر ذي بال ، فيكون النداء إشعارا بأهمية ذلك الأمر ، وتنبيها للأذهان عليه « وحين يعظم هذا الأمر يصحب النداء أساليب أخرى لها تأثير قوي ، كالأمر والنهي والاستفهام ، وغالبا ما يتقدم النداء على هذه الأساليب لضمَان اهتمام المخاطب وإصغائه والتفاته وتتبعه لما يلقى عليه » (٢) .

لذلك كثر خطاب الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في القرآن الكريم بـ(يأيها) وذلك لأن فيها وجوها من التأكيد ، وأسبابا من المبالغة منها : ما في « يا » من التأكيد والتنبيه ، وما في « ها » من التنبيه ، وما في التدرج من الإبهام في « أي » إلى التوضيح ، ثم إن المقام يناسب المبالغة والتأكيد لأن كل مانادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية ، وغير ذلك ، ومما أنطق الله به كتابه ، أمور عظام وخطوب جسام ومعان واجب عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون ، فاقتضى الحال بأن ينادوا بالآكد الأبلغ » (٣) .

---

(١) انظر شرح ابن عقيل ٣/ ٢٥٥ .

(٢) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ٢٧٦ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٨٩٧ .

وللنداء دلالات نفسية عميقة ، ومعان شعورية عديدة ، وأغراض بلاغية كثيرة ، ولو تتبعناه في القرآن لوجدناه قد استعمل للدلالة على معان وأغراض عجيبة ، منها تلك النداءات اليائسة البائسة من أهل النار ، ينادون أهل الجنة يطلبون الغوث والمساعدة : ﴿ **ونادىٰ أصحٰب النار أصحٰب الجنة أن أفيضوا علينا من المآء أو مما رزقكم الله** ﴾(١) .

ومنها النداءات الفرحة المسرورة بما ناله أصحابها من عاقبة حسنة ، كما في نداء أهل الجنة لأهل النار : ﴿ **ونادىٰ أصحٰب الجنة أصحٰب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم ..** ﴾ (٢).

ومنها نداءات المضطرين المحتاجين ، وما فيها من دعاء ورجاء ، وطلب للعون والغوث ، فهذا أيوب عليه السلام حينما بلغ به الأمر منتهاه ، لجأ إلى ربه ومولاه ، يناديه ويضرع إليه ﴿**وأيوب إذ نادىٰ ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الرٰحمين** ﴾(٣) .

وهذا يونس - عليه السلام - حينما ابتلعه الحوت ، واستقر في الظلمات ، لجأ إلى ربه يدعوه ويناديه ﴿ **فنادىٰ في الظلمٰت أن لا إله إلا أنت سبحٰنك إني كنت من الظٰلمين** ﴾(٤) .

---

(١) بعض الآية (٥٠) من سورة الأعراف .

(٢) الآية (٤٤) من سورة الأعراف .

(٣) الآية (٨٣) من سورة الأنبياء .

(٤) الآية (٨٧) من سورة الأنبياء .

وسمى الله تعالى يوم القيامة « يوم التناد » لأن الكافرين في ذلك اليوم ينادي بعضهم بعضا ويتصايحون بالويل والثبور كما يتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النار (١) .

وأهل الجحيم ينادون الملائكة نداء اليائس البائس ، يتمنون الموت ولا موت **﴿ ونادوا يٰملك ليقض علينا ربك ، قال إنكم مٰكثون ﴾ (٢) .**

ويناديهم رب العزة والجلال يوم القيامة نداء توبيخ وتهكم ، يأمرهم أن يحضروا شركاءه الذين كانوا يدعونهم من دونه في الدنيا ، ويضيف الشركاء إليه حكاية لقولهم في الدنيا ، وذلك على سبيل التهكم بهم : **﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركاءى الذين كنتم تزعمون ﴾(٣) .**

وقوله : **﴿ويوم يناديهم أين شركاءى ، قالوا ءاذنٰك مامنا من شهيد ﴾ (٤) .**

بل إنه يطلب منهم أنفسهم أن ينادوا هؤلاء الشركاء الذين كانوا يدعونهم من دونه ، وذلك سخرية منهم وتهكما بهم : **﴿ويوم يقول نادوا شركاءى الذين زعمتم ﴾(٥) .**

ومن المعاني التي يوحي بها النداء المدح ، كما في نداء الله تعالى لعباده المؤمنين بقوله : (يأيها الذين آمنوا) فإن في ندائهم بأحب صفة لهم وهي الإيمان تمييزا ومدحا لهم .

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٧/ ٢٧٥ ، الآية (٣٢) من سورة غافر .

(٢) الآية (٧٧) من سورة الزخرف .

(٣) الآية (٦٢) من سورة القصص و (٧٤) من نفس السورة .

(٤) الآية (٤٧) من سورة فصلت .

(٥) الآية (٥٢) من سورة الكهف .

وقد يكون النداء ذما كما في ندائه سبحانه وتعالى للكافرين بقوله : (يأيها الذين كفروا) فإن نداءهم بأقبح صفاتهم وهي الكفر ذم وإهانة لهم .

ولما كان للنداء من وقع على النفس وأثر بالغ ، خصوصا المناداة بالألقاب ، فقد وجه الله المؤمنين إلى حسن المناداة مع نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ لأن النداء إذا أسيء استخدامه أصبح مستهجنا ، مشعرا بالتعدي وسوء الأدب وعدم المبالات بالمنادى ، لذلك مدح الله المؤمنين الذين يغضون أصواتهم بنداء النبي ﷺ فينادونه بصوت غضيض ولا ينادونه باسمه كما ينادي بعضهم بعضا ، بل ينادونه بلقب النبوة والرسالة الذي ارتضاه الله له وناداه به في كتابه العزيز ، وذم الله سبحانه وتعالى الذين يرفعون أصواتهم بنداء نبيه ﷺ ويجهرون له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ونفى عنهم صفة العقل ، يقول سبحانه وتعالي : ﴿ **يـأيها الذين ءامنوا لا ترفعوا أصوٰتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعملكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصوتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ، إن الذين ينادونك من ورآء الحجرت أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم** ﴾(١) .

قيل إن هذه الآيات نزلت في وفد من بني تميم قدموا المدينة فأتوا منزل النبي ﷺ فنادوه من وراء الحجرات ثلاثا بصوت جاف ، يا محمد ، اخرج إلينا ، يامحمد إن مدحنا زين ، وإن شتمنا شين ، نحن أكرم العرب (٢) .

---

(١) الآيات (٢ - ٥) من سورة الحجرات .

(٢) انظر روح المعاني ٢٦/ ١٣٤ - ١٤١ .

والمناداة بالألقاب من أقدم صور السخرية وأساليبها لذلك نهى الله عنها ، وسماها فسوقا ، قال تعالى : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقـٰب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمـٰن ومن لم يتب فأولـئك هم الظـٰلمون** ﴾(١) . والتنابز بالألقاب هو التنادي والتداعي والتعاير بالألقاب المؤذية (٢) .

يروي ابن جبيرة ابن الضحاك قال : فينا نزلت في بنى سلمة « ولا تنابزوا بالألقاب » قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان اذا دعا أحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يارسول الله إنه يكرهه ، فنزلت « ولا تنابزوا » (٣) .

ومن تلك المعاني التي تكثر دلالة النداء عليها التوبيخ ، كقول قوم صالح عليه السلام له : ﴿.. **يـٰصـلح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنهـٰنا أن نعبد ما يعبد ءاباؤنا ، وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب** ﴾(٤) .

كان هذا النداء التوبيخي هو إجابتهم عن دعوته لهم ، وافتتحوا كلامهم بالنداء لقصد التوبيخ والملام ، كما تقدم قول قوم هود له : ﴿ **يـٰهود ماجئتنا ببينة** ﴾(٥) ، ولكن قرينة التوبيخ هنا أظهر ، وهي قولهم (قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) فإنه تعريض بخيبة أملهم ورجائهم فيه ، فهو تعنيف (٦) .

---

(١) بعض الآية (١١) من سورة الحجرات .

(٢) روح المعاني ٢٦/ ١٥٤ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) الآية (٦٢) من سورة هود .

(٥) بعض الآية (٥٣) من سورة هود .

(٦) انظر تفسير التحرير والتنوير ١٢/ ١٠٩ ، ١١٠ .

وقد يصعد هذا التوبيخ وتحتد لهجة الخطاب فيصبح تهكما وسخرية ، كما في قول فرعون لموسى عليه السلام : ﴿ **وإني لأظنك ياموسى مسحورا** ﴾ . فرد عليه موسى عليه السلام مباشرة بعدما علم عناده وأحس استهزاءه « وإني لأظنك يافرعون مثبورا » .

والسياق هو : ﴿ **ولقد ءاتينا موسىٰ تسع ءايٰت بينٰت فسئل بنى إسرٰءيل إذ جآءهم فقال له فرعون إني لأظنك يٰموسىٰ مسحورا ، قال لقد علمت مآ أنزل هؤلاء إلا رب السمٰوٰت والأرض بصآئر وإني لأظنك يٰفرعون مثبورا** ﴾(١) .

هذا دأب فرعون ، ودأب كل طاغية عندما يفحم وتعجزه الحجة يعمد إلى وسائل المكر والكيد والبطش ، فبعد أن رأى الآيات أعرض وتوجه بالخطاب والنداء إلى موسى ، راميا إياه بالسحر وفساد العقل والتخبط في القول ، مخرجا كلامه مخرج الظن والظن قد يدل على اليقين ، مناديا موسى مستخفا به ساخرا من عقله وقوله . وهو كقوله : « إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » ، فيخاطبه موسى خطاب الواثق المؤكد كلامه ، موبخا له على موقفه هذا وعلى مقابلته الحجج والآيات بالسخرية والاستهزاء ، ولأن موسى كان قد علم أن فرعون علم الحق ولكنه استكبر وعاند فنراه هنا يصعد لهجته ، ويرد على فرعون بمثل ما قال له ، ويقارع ظنه بظنه ، ويرد عليه سخريته واستهزاءه ، قائلا له : إن كنت تظنني مسحورا فاقد العقل متخبطا فإنني أراك كذلك ناقص العقل هالكا بضلالك .

وشتان مابين الظنين فإن ظن فرعون إفك مبين ، وظن موسى عليه السلام هو اليقين(٢) .

---

(١) الآيتان (١٠١ - ١٠٢) من سورة الاسراء .

(٢) انظر تفسير الكشاف ٢/ ٣٧٧ ، وأبوالسعود ٥/ ٩٨ ، ٩٩ ، وروح المعاني ١٥/ ١٨٥ ، ١٨٦ ، والتحرير والتنوير ١٥/ ٢٢٤ - ٢٢٨ .

ثم إن البلاغيين يقولون إن استخدام حرف النداء « يا » الذي وضع لنداء البعيد في مثل هذه المجادلة والمخاصمة والمواجهة ، يكون من قبيل تنزيل القريب مكانا منزلة البعيد ، لأغراض منها - كما في هذه الآيات - التهكم بالمنادى والإشارة إلى انحطاط شأنه وهوان قدره ومنزلته (١) وما من شك في أن النداءات هنا في هذا السياق البشري جاءت نداءات انفعالية مشحونة بمشاعر الغضب والتهكم والسخرية .

ومثل ذلك قول قوم نوح - عليه السلام - له ، ينادونه ساخرين : ﴿ **يٰنوح قد جٰدلتنا فأكثرت جدٰلنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصٰدقين** ﴾(٢) .

وقول قوم شعيب - عليه السلام - له في خطاب كله سخرية : ﴿ **قالوا يٰشعيب أصلوٰتك تأمرك أن نترك مايعبد ءاباآونا أو أن نفعل فى أمولنا مانشٰؤا إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾(٣) .

ونداء المشركين حينما خاطبوا النبي محمد ﷺ ، مستهزئين ساخرين منه : ﴿**وقالوا يأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾(٤) .

وقد يكون استعمال حرف النداء « يا » لمنادى قريب ، خلافا لأصل وضعها تنزيلا للمنادى القريب المخاطب منزلة البعيد ، وذلك سخرية به وإشارة وتعريضا إلى كونه بليدا بعيدا من التنبه لا يسمع ولا يتنبه (٥) . ومن ذلك قول الفرزدق المشتهر في هجاء جرير والسخرية منه : (٦)

---

(١) شرح عقود الجمان ١/ ١٩٦ ، ١٩٧ ، والإتقان في علوم القرآن ٢/ ٨٩٦ .

(٢) الآية (٣٢) من سورة هود .

(٣) الآية (٨٧) من سورة هود .

(٤) الآية (٦) من سورة الحجر .

(٥) شرح عقود الجمان ١/ ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٦) ديوان الفرزدق ١/ ٤١٨ .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا ياجرير المجامع

في هذا البيت تجتمع أساليب كثيرة ، وتتعاضد للدلالة على التهكم ، فاسم الإشارة « أولئك » والأمر التعجيزي التهكمي ، ثم النداء الذي يوحي بأن المخاطب مع كل تلك الإشارات والأوامر بليد لم يتنبه غافل يحتاج إلى إيقاظ .

ومنه قول الشاعر يسخر من آخر ويثبطه عن طلب المعالي ؛ لأنها لا تصلح إلا للرجال ، ولا يطمع فيها غيرهم ، فجعل من النداء والإشارة والاستفهام سبيلا للسخرية ، يقول : (١)

أيا هذا أتطمع في المعالي   وما يحظى بها إلا الرجال

ومنه أيضا قول الأخطل ، يهجو جريرا ويسخر منه : (٢)

فانعق بضأنك يا جرير فإنما   منتك نفسك في الخلاء ضلالا

ومن ذلك ما أورده ابن فارس (٣) من أن شاعرا تعرض لجرير بقوله :

أبلغ جريرا وأبلغ من يبلغه   أني الأغر وأني زهرة اليمن

فرد عليه جرير ، مبكتا ومتهكما ساخرا :

ألم تكن في وسوم قد وسمت بها   من حان موعظة يازهرة اليمن !

فقوله « يازهرة اليمن » نداء متهكم ساخر ، إذ حول صفة الفخر التي كان يفخر بها خصمه إلى لقب يناديه به على سبيل التندر والسخرية .

---

(١) البلاغة الاصطلاحيه ١٨٧ .

(٢) انظر شرح عقود الجمان ١/ ١٩٦ .

(٣) انظر الصاحبي ٢٩١

وربما كان النداء أسلوبا قديما للمعايبة والقذف والسخرية ، ذا صلة بالعرف الشعبي ، ولغة الحياة اليومية ، وأسلوب القول المتبادل بين عامة الناس ، فالمناداة بالألقاب والصفات والأسماء الساخرة التي تبتكرها أذهان الساخرين ، أسلوب شعبي شائع يحدث بين المتخاصمين في الأزقة الشعبية في عصرنا الحاضر وغير الحاضر ، فأبو نواس يسخر من ابن سابه فيقول : (١)

قـــد عَلَا الديوانَ كَآبَهْ ... مُـــذْ تولّاهُ ابنُ ســـابَهْ
يا غرابَ البين في الشؤ ... م ، وميـــزابَ الجنَـــابهْ
يا كتـــاباً بطـــلاقٍ ... ياعـــزاءً بمُصَـــابَهْ
يا مِثَـــالاً مـــن هُـمُومٍ ... يا تبـــاريحَ كآبَـــهْ
يارغيفـــاً ردَّه البقـــا ... لُ يُبْســـاً وصَـــلَابَهْ
ما علـــى وجـــهٍ به قا ... بِلَتي اليـــوم مَهابَـــهْ
كاتبٌ أيضـــا ، ومامـــرَّ ... علـــى رأسِ الكتابـــهْ

نداءات ساخرة متلاحقة يرمي بها النواسي ابن سابه هذا ، فيخترع له الصفات السيئة يناديه بها ليهزأ منه ويعبث به ، فهو غراب البين في الشؤم ، وهو أثقل من كتاب طلاق ، وعزاء بمصيبة ، بل هو الهموم وتباريح الكآبة ، وهو الخبز اليابس رده البقال .

ومثال ذلك سخرية البحتري من على بن الجهم ، في نداءات ساخرة ، تشبه أسلوب العامة المتبادل في الحياة اليومية ، في طابع شعبي ، يقول البحتري يخاطب ابن الجهم : (٢)

---

(١) ديوان أبي نواس ٥٣٨ .

(٢) ديوان البحتري ٢/ ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، تحقيق حسن كامل الصيرفي .

ياثقيلا علـى القلوب إذا عـــنّ لهـا أيْقَنَتْ بطول الجهـادِ
ياقذًى في العيـون ، ياغُلَّةً بـــين التَّراقي ، حزَّازَةً في الفُـؤَادِ
ياطُلُوع العــدُوّ ، مابين إلْفٍ ياغريماً أتى علـى مِيعـــادِ
يارُكُوداً في يوم غَيْمٍ وَصَيفٍ ياوُجُـوهَ التُّجارِ يوم الكسـادِ
خــلِّ عـنّا فإنما أنت فيـنا واو عمروٍ ، أو كالحديثِ المُعادِ

ولم يكن مثل هذا الأسلوب الساخر ليفوت شاعر السخرية الأول ابن الرومي ، دون أن يضرب فيه بنصيب ، ويرمي فيه بسهم ، يقول ابن الرومي يسخر من ابن أبي الجهم الكاتب :(١)

يابن أبي الجـهم احتقبْ هذا اللَّطفْ
فــإن فـيــه طُرَفـاً من الطُّرفْ
ياجُـثَّـةَ التَّلِّ ، ويا وجـه الهـدفْ
يارَوْثَة الفـيلِ ، ويالحم الصَّـدفْ
ياأُجـرةَ البـيت قـضـاءً وسلفْ
ياليلة الخـانِ إذا الخـان وكفْ
ياغـمَّ آب عند سكان الغُـــرفْ
يابردَ كــانُون لعــارٍ بالنَّجَفْ
ياثلجَ مـاءٍ مـالحٍ فـيـه جِـيَفْ

(١) ديوان ابن الرومي ٤/ ٢٣٦ ، شرح وتحقيق عبدالأمير مهنا .

ياخــزف التنور ياشـــر الخــزف
ياســـوء كـــيل وغـــلاءٍ وحـــشف
ياطيـــرة الشـــؤم ، ويافـــأل التلف
ياســـدة فيَ المنخـــرين من نغف
من كـان يشكو فـرط حب وشـغف
فـــإن بي منك لبـــغـــضـــاً وشنف
أدناهمـــا مـــثل السِّـــقـــام والدَّنف

يجمع ابن الرومي لخصمه هذا كل معاني الانتقاص والطعن والتشويه يوجهها إليه في نداءات ساخرة متكررة ، تفاجئ سامعها واحدة تلو الأخرى ، يوقعها ابن الرومي على أنغام الرجز الراقصة ، تماجنا منه وعبثا ، حتي يزيد في نكاية خصمه .

وبعد كل ماتقدم من نظرية وتطبيق ، يتضح جليا أن النداء ذلك الأسلوب الإنشائي الطلبي يمكن أن يؤدي دلالات ومعاني ساخرة ، يخاطب بها الساخر خصمه ، فيواجهه بالخطاب والتهكم مواجهة مباشرة ، مما يجعل لسخريته تأثيراً قوياً مؤلما .

التكرار الساخر

يعرف ابن الأثير التكرار ، بأنه دلالة اللفظ على المعنى المراد مردداً . ويبين أهميته ودقة مسلكه ، بقوله : واعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان ، وهو دقيق المأخذ . ثم يقسمه إلى قسمين : مفيد ، وغير مفيد ، ويوضح مراده من هذا التقسيم ، فيرى أن التكرير المفيد هو الذي يأتي لمعنى ، فيكون تأكيداً للكلام وتشييداً من أمره ، وذلك للعناية بالشيء المكرر ، إما مبالغة في مدحه أو في ذمه ، أو غير ذلك . أما غير المفيد ، فالذي يأتي لغير معنى ، فلا يكون إلا عيا وضعفا (١) .

ويؤكد الجاحظ على ضرورة الإفادة ، فيرى أن التكرار لابد أن يكون لفائدة ، وإلا كان الكلام عيا وتفاهة ، فلابد من وجود زيادة معنوية وراء زيادة المبنى يقصدها المتكلم من تكراره ، وإلا كان كلامه خارجاً عن نطاق البلاغة والبيان ، داخلاً في باب الحشو والضعف والعي ، يقرر الجاحظ ذلك في أكثر من موضع فيقول في أحد هذه المواضع : « وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعاني عياً » (٢) .

ولكن هذا الأسلوب شأنه مثل كل الأساليب البيانية يحتاج عند استعماله إلى الحذر ، فهو دقيق المسلك ، والإفراط في استعماله يخرجه عن حد البلاغة ، فما هو إلا «رخصة في الأسلوب ، والرخص يجب أن تؤتى في حذر ويقظة » (٣) .

والتكرار يحتوي على كل ما يتضمنه أي أسلوب آخر من إمكانيات تعبيرية ، فهو

---

(١) انظر المثل السائر ٣/٣ ، ٤ ، ٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٠٥ .

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، د. عبدالعظيم المطعني ١/٣٢٢ .

في الشعر مثله في لغة الكلام ، يستطيع أن يغني المعنى ويرفعه إلى مرتبة الأصالة ، ذلك إن استطاع الشاعر أن يسيطر عليه سيطرة كاملة ، ويستخدمه في موضعه ، وإلا فليس أيسر من أن يتحول هذا التكرار نفسه بالشعر إلى اللفظية المبتذلة التي يمكن أن يقع فيها أولئك الشعراء الذين ينقصهم الحس اللغوي والموهبة والأصالة (١) .

وترداد الألفاظ ليس عيا ما لم يجاوز مقدار الحاجة ، ويخرج إلى العبث ويحكى عن ابن السماك أنه جعل يوما يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما انصرف إليها قال لها كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر من ترداده ، قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه ، قالت : إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد مله من فهمه » (٢) .

والتكرار أمر نسبي ، يخضع لاعتبارات عدة ، وليس هناك ضابط معين يحدد مقدار الحاجة إليه ، بل الأمر متروك للمتكلم ، لأنه أمر يتصل « بأقدار المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص »(٣) .

وهو ظاهرة أسلوبية واضحة في القرآن الكريم ، فكثير من القصص القرآني قد تكرر عدة مرات ، قصة آدم - عليه السلام - وزوجه حواء ، واستكبار إبليس عن السجود ، وقصة إبراهيم - عليه السلام - ، وقصة موسى - عليه السلام - تكررت كثيراً، وشعيب وصالح ولوط وهود ، وكل ذلك لحكم عظيمة ، نص على بعضها العلماء، فمن ذلك أن القرآن « خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب »(٤) .

---

(١) قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٠٤ .

(٣) المرجع السابق ١/ ١٠٥ .

(٤) المرجع السابق .

ومن ذلك « أن الله جل ثناؤه جعل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثله ، آية لصحة نبوة محمد ﷺ ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم ، بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلاماً أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاء ، وبأي عبارة عبر »(١) ، ثم إن القصة إذا تكررت زاد فيها شيئاً . ومنها ، أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة . ومنها ، أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام ، فلهذا كررت القصص دون الأحكام . ومنها ، أن القصة الواحدة من هذه القصص ، كقصة موسى مع فرعون - وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى - فقد يوجد في ألفاظها زيادة ، ونقصان ، وتقديم ، وتأخير ، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ ، فإن كل واحدة لابد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه ، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها . ثم إن في تكرار القصص تسلية لقلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم ، قال تعالى : **﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾**(٢) ،(٣)

والزمخشري في تعليقه على الآيات المكررة في سورة القمر ، يقول « فإن قلت مافائدة تكرير قوله : **﴿ فذوقوا عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾** قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ، ادكاراً واتعاظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة ، وهكذا حكم التكرير ، كقوله : **﴿ فبأي ءالاء ربكما تكذبان ﴾** عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن ، وقوله : **﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾** عند كل آية أوردها في سورة المرسلات

---

(١) الصاحبي ٣٤٣ .

(٢) الآية (١٢٠) من سورة هود .

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٥ - ٢٧ .

وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها ، لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في كل أوان » (١) .

ويرد الخطابي على الذين عابوا التكرار المضاعف في القرآن فيرى أن الكلام على ضربين : أحدهما مذموم ، وهو ماكان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول ؛ لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغوا ، وليس في القرآن شيء من هذا النوع . والضرب الآخر ، ماكان بخلاف هذه الصفة ، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار ، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها . ثم استشهد بقول الشاعر :

هلا سألت جموع كنـــــدة يوم ولوا أين أينا !

وقول الآخر :

يا لبكر انشروا لي كليبا　　　يالبكر أين أين الفرار !

ثم يخبر عن سبب التكرار في القرآن بقوله : وقد أخبر الله عز وجل بالسبب الذي من أجله كرر الأقاصيص والأخبار في القرآن فقال سبحانه ﴿ **ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون** ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ **وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا** ﴾(٣) ، (٤) .

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٤/ ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) الآية (٥١) من سورة القصص .

(٣) الآية (١١٣) من سورة طه .

(٤) انظر بيان إعجاز القرآن ، للخطابي ٥٢ ، ٥٣ . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

وللتكرار فوائد يساق لها : (١)

أحدها – التأكيد ، والتكرار أبلغ من التأكيد .

والثاني – زيادة التنبيه على ماينفي التهمة ، ليكمل تلقي الكلام بالقبول ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وقال الذى ءامن يٰقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يٰقوم إنما هٰذه الحيوٰة الدنيا متٰع** ﴾ (٢) فإنه كرر فيه النداء لذلك .

الثالث – إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانياً تطرية له وتجديدا لعهده ، كقوله تعالى : ﴿ **ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهـٰلة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ (٣) .

الرابع – في مقام التعظيم والتهويل ، كقوله تعالى : ﴿ **الحاقة ما الحاقة** ﴾ (٤) .

الخامس – في مقام الوعيد والتهديد ، كقوله تعالى : ﴿ **كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون** ﴾ (٥) .

السادس – التعجب ، كقوله تعالى : ﴿ **فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر** ﴾ (٦) .

السابع – لتعدد المتعلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فبأى ءالاء ربكما تكذبان** ﴾ (٧) ، فإنها وإن تعددت ، فكل واحد منها متعلق بما قبله ، وأن الله تعالى خاطب به الثقلين

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن ٣/ ١١ – ١٨ .

(٢) الآيتان (٣٨ – ٣٩) من سورة غافر .

(٣) الآية (١١٩) من سورة النحل .

(٤) الآيتان (١ ، ٢) من سورة الحاقة .

(٥) الآيتان (٦ ، ٧) من سورة التكاثر .

(٦) الآيتان (١٩ ، ٢٠) من سورة المدثر .

(٧) سورة الرحمن .

من الإنس والجن ، وعدد عليهم نعمه التي خلقها لهم ، فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم طلب إقرارهم واقتضاهم الشكر عليه ، وهي أنواع مختلفة وصور شتى .

والتكرار أسلوب يعبر عن انفعال النفس بالمثيرات الوجدانية « واللفظ المكرر هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة ، لاتصاله الوثيق بالوجدان ، فالمتكلم لايكرر إلا ما يثير اهتماماً عنده ، وهو يحب في الوقت نفسه أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه أو من هم في حكم المخاطبين . فاللفظ المكرر هدفه الإثارة حباً أو بغضاً في أي غرض من أغراض الكلام . وهو يعد وسيلة من وسائل التقرير ، ويرجع ذلك إلى أنه يزيد الشيء المكرر تميزاً من غيره ، فالأشخاص الذين يقع عليهم نظري كثيراً يزدادون وضوحاً في إدراكي وتصبح صورهم بمثابة الصبغة القوية التي تستأثر بذاكرتي ، وكذلك الأقوال أو الأحكام التي تتوافر في سمعي تكون أكثر وروداً على لساني أو خلال تفكيري من الأقوال والأحكام العابرة . ولهذا كان التكرار أو الإلحاح في التكرار هو الركن الأساسي الذي يقوم عليه فن الدعاية . هذا حقيقة لا مراء فيها فليس أثر دقه على مسمار كأثر دقتين ولا رشفة ماء على قلب صاد كرشفتين . هذا الذي يحمل الشعراء أو غيرهم ممن يريدون تقرير إحساسهم بمعاني الحيّاة على أن يتخذوا التكرار أداة معبرة بنجاح عن مرادهم » (١) .

وللتكرار أغراض سياقية كثيرة لايمكن حصرها ؛ لأن التكرار عبارة عن أسلوب تعبيري يصور انفعال النفس ، وانفعالات النفس البشرية يصعب تحديدها في كثير من الأحيان ، ولكن الغرض الرئيس من وراء كل تكرار هو التأكيد ، ثم إنه يأتي لأغراض أخرى منها قصد المبالغة ، أو التحذير ، أو الإغراء ، أو إظهار الحزن والتحسر ، أو التهويل ، أو الوعيد ، أو الانكار ، أو التوبيخ ، وقد يقصد بالتكرار التهكم والسخرية

---

(١) انظر التكرير بين المثير والتأثير ، د. عزالدين السيد ١٣٧ ، ١٣٨ .

«والتهكم أسلوب يعبر عن الشعور بالتعالي ممتزجاً بالبغض وحب الانتقام في بعض الأحيان ، ولهذا يغلب أن نراه قائماً على التكرير ليكون أشفى لنفس القائل وألذع لنفس المتهكم به » (١) .

ومن التكرار ماتكون فيه السخرية ناشئة من المبالغة « فعند انفعالنا بالمواقف تحتجب بالخيال الحقائق الواقعة ، فإذا بها في مقام التفخيم أكبر مما هي ، وفي مقام التهوين أصغر مما هي ، فإذا انطلقنا نعبر عنها تدخل التكرار عنصراً من عناصر التخييل التي توهم أن الحقيقة هي ما نعبر به لا مايراه من يرى ، وهذا النوع مشترك بين المقامات الخطابية القائمة على الانفعالات فقد يسوق إليه قصد التفكه والسخرية » (٢) .

وذلك كقول ابن الرومي يضحك من شخص ويسخر به وينفي عنه أي صلة بعلم النحو ، ويجعل الجهل صفة من صفاته مهما حاول أن يتخلص أو يتملص منها فما تنفك عنه ، يقول : (٣)

لو تلففت في كساءَ الكسائي وتلبست فروة الفراء

وتخللت بالخليل وأضحى سيبويه لديك رهن سباء

وتكونت من سواد أبي الأسود شخصا يكنى أبا السوداء

لأبى الله أن يعدك أهل العلم إلا من جملة الأغبياء

ومن التكرار الساخر المتهكم مايروى عن مؤدب كان يتهكم بمن يحسنون جمع العلم في الكراريس ولا يحسنون جمعه في الصدور يقول : (٤)

---

(١) انظر التكرير بين المثير والتأثير ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ١١٦ .

(٣) ديوان ابن الرومي ١/ ٨٧ .

(٤) أنوار الربيع في أنواع البديع ، لابن معصوم ٢/ ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، حققه شاكر شكر .

صاحب الكتب تراه أبداً غير ذي فهم ولكن ذا غلط
كلما فتشته عن علمه قال علمي ياخليلي في سفط
في كراريس جياد أحكمت وبخط أي خط أي خط

انظر إلى لفتته الساخرة حين يصف الكراريس بأنها « جياد أحكمت » ثم إنه يصور هذا الكاتب بصورة المغفل عديم الفهم كثير الغلط يقف أمامك مسترخيا تفتشه تبحث عن علمه وما حواه من فهم فلا تجد شيئاً وحينما يفطن إلى ماتبحث عنه يعاجلك في لغة باردة بالعذر الذي هو أقبح من ذنب :

علمي ياخليلي في سفط
في كراريس جياد أحكمت
وبخط أي خط أي خط

وهذا التكرار لا يحتاج إلى تعليق ، فالمهجو واثق من أن علمه في كراريس جيدة محكمة قد كتب بخط ولكن أي خط !

ومن التكرار الساخر طريقة تعتمد تكرار الاسم من قبيل الاستخفاف والهزء به ، فكأن مجرد ذكره أصبح باعثا على الضحك والتفكه ، من ذلك هجاء ذي الرمة وسخريته من بني « امرئ القيس » في قصائد كثيرة كان التكرار سمة بارزة وأسلوباً واضحاً من أساليب هذا الهجاء ، فكان يكرر اسم « امرئ القيس » في القصيدة الواحدة مرات كثيرة وكأنه يذكر بلؤمهم ويتفكه بذكرهم ، والقارئ لقصائده في هجاء هؤلاء القوم يجد ذلك أسلوباً واضحاً في هجائه لهم ، ومنه قوله : (١)

---

(١) ديوان ذي الرُّمه ، بشرح الأصمعي ١/ ٥٥٥ - ٥٥٨ ، حققه د. عبدالقدوس أبوصالح .

وقد سميت باسم امرئ القيس قرية كرام صواديها لئام رجالهـــا
يظل الكرام المرملون بجوفهــــا سواء عليهم حملها وحيالهـــا
إذا ما أمرؤ القيس بن لؤم تطعمــت بكأس الندامى خبثها سبالهـــا
وكأس امرئ القيس التي يشربونها حرام على القوم الكرام فضالها
ستعلم أستاه امرئ القيس أنهـــا صغار مناميها قصار رجالهـــا

ومن التكرار ما يسمى تكرار المفارقة « يكون لتأكيد التفريق على وجه التضاد ، وتكرير اللفظ يدل أولاً على توهم التماثل فيما تعلق به ، فإذا اختص كل من اللفظين بما ارتبط به تمت المفارقة وزاد التبين ، لما هو مغروس في النفس والطبع من حب الموازنة»(١) . انظر إلى سخرية دعبل الخزاعي حين يجمع بين عمرو وضيفه في السهر معا ، ثم يفرق بينهما في الحال فعمرو لبطنته أما الضيف فللجوع ، وهو يجعل من اسم عمرو عرضة للسخرية والتهكم حين يكرره في بيت واحد ثلاث مرات حتى يلصق به تلك النقيصة ، حين يسهر ضيفه ويسهر معه ، لكن شتان بينهما فعمرو يشبع من لؤمه ويجوع ضيفه ، يقول دعبل : (٢)

أضياف سالم في خفض وفي دعــة وفي شــراب ولحم غير ممنوع
وضيف عمرو ، وعمرو يسهران معا عمرو لبطنته ، والضيف للجوع

ومن التكرير الساخر هجاء حماد عجرد الشاعر العباسي المشتهر بسخرياته اللاذعة ، في هذه المقطوعة التي يصب فيها جام سخريته على ابن نوح لأنه كان يتعرب ، يقول حماد : (٣)

---

(١) انظر التكرير بين المثير والتأثير ١٣٤ .
(٢) شعر دعبل الخزاعي ، صنعه د. عبدالكريم الأشتر ٣٠٨ .
(٣) أخبار أبي تمام ، للصولي ٢٤٠ . حققه عساكر وعزام والهندي .

قال ابنُ نـــوحٍ لي وقـــد ... أظْهـــر بعض الغضـــبِ :
أنتَ الـــذي نَفَيْتَـــنِي ... في الشـــعر عن نوح أبي
فقلـــتُ : لا ، لا تَرْمِنِـــي ... منكَ بمحْـــض الكـــذبِ
ويْحَـــكَ لـــم أفْعَـــلْ وإنْ ... كنتَ ســـقيمَ الحَسَـــبِ
لكنني كنـــتُ فتًـــى ... علاَّمَـــةً بالنَّسَـــبِ
فقلـــتَ لي : نـــوحٌ أبي ... فقلـــتُ : جَـــاوِزْ بـــأبِ
فلـــم تجُـــاوِزْهُ ، وفي ... ذلـــك بعـــضُ الرِّيـــبِ
فيا ابنَ نُـــوحٍ يا أخَا الـــ ... ـحِلْسِ ويا ابـنَ القَتَـــبِ
ومـــنْ نَشَـــا والـــدُه ... بين الرُّبَـــىٰ والكُثُـــبِ
ياعربـــي ، ياعربـــي ... ياعـــربي ، ياعـــربي

يدير حماد هذا الحوار الماكر بينه وبين بن نوح ، فيحتال فيه ليجر خصمه إلى حوار غير متكافئ ، فهو يطعن في نسبه ، وابن نوح لا يملك سوى أن يستنكر هذا الطعن ، ويمضي حماد في طعنه وهزئه ، فيوجه الخطاب إلى ابن نوح هازئاً ، فينسبه إلى أخوة الحلس وبنوة القتب ؛ لأنه عربي أصيل عاش في البادية ورعى إبلها ، بل إنه ابن أجداد عاشوا بين الربى والكثب ! ثم يختتم حماد هذا الحوار بنداءات ساخرة يتخذ فيها من التكرار أسلوبا يهزأ به من ابن نوح ، فهو ليس عربي مرة أو مرتين أو ثلاثاً بل أكثر من ذلك ، فعروبته لا يماري فيها أحد ، ويبدو أن دعوى العربية قد أغاظت غير حماد ، فهذا مخلد الموصلي يسخر من ادعاء أبي تمام النسب العربي ، ويجعل من أساليبه التي يعتمد عليها في هذه السخرية تكرار بعض الألفاظ ذات العناية الخاصة والدلالة الموحية ، فيقول مخاطبا أبا تمام : (١)

---

(١) أخبار أبي تمام ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

أنت عنـــدي عـربي الـــ   أصـــل مافيـــك كـــلامْ
عـــــربي عـــــربي   أَجَئِـــــيٌّ ما تُـــــرامْ
شَـعْرُ فَخْـذَيْكَ وساقَيْـ   ـــك خُـزامى وثمَـــامْ
وضُـــلوع الشِّـلْوِ من صدْ   رك نبْـــعٌ وبَشَـــــامْ
وَقَـــذَى عَيْنَيْـكَ صَـمْغٌ   وَنَواصِـــيك ثَغَـــامْ
لو تحرَّكـــتَ كَـــذَا لانْـ   جَفَلَـــتْ منـــك نَعَـــامْ
وَظِبَـــــاءٌ مُخْصِـبَاتٌ   ويَرَابِيَـــــعُ عِظَـــــامْ
أنا ما ذنبـــي وإنْ خـــا   لَفَنِـــي فيـــك الأنَـــامْ
وأَتَتْ منـــك سَـجَايَا   نَبَطِيَـــــاتٌ لِئَـــــامْ
وقَفَــــاً يَحْلِـــفُ أَنْ ما   عرَّقَـــتْ فيـــك الكِرَامْ
ثُمَّ قَالـــوا جَاسِـــمِيٌّ   مـــن بني الأنْبَـاطِ خَامْ
كذبُـــوا ما أنـــت إلا   عربـــيٌّ ما تُضَـــامْ
بيتُهُ مابـــين سَـــلْمَى   وحَــــوَاليْهِ سِـــلاَمْ
ولـــــه مـــن إرْثِ آبا   ءِ قِسِـــيٌّ وَسِـــهَامْ
وَنَخِيـــلٌ باسِـــقَاتٌ   قَـــدْ دَنَـــا منهـا صِـرَامْ
أنت عنـــدي عـــربي   عربـــي والسَّـــلامْ

ما هذه العروبة التي مافيها كلام ! يكرر مخلد الألفاظ والمعاني ، يحوكها في التهكم بأبي تمام ، فيصفه بأوصاف الأعراب ، فلا يترك صفة فيها جلافه الأعراب ورثاثتهم وخشونتهم إلا نعت بها أبا تمام ، مبالغة منه في إثبات هذه العروبة الأصيلة ! ثم نراه يردد أسلوبه بين مدح ماكر ، وسخر واضح ، ويلجأ إلى تلك الأوزان والإيقاعات الخفيفة الراقصة التي تضفي على سخريته شعوراً بالخفة والقبول ، ونراه يؤكد هذا الأصل العربي الذي يريد أن يثبته في أول القصيدة وآخرها .

ويقع التكرار في الهجاء على سبيل الشهرة وشدة التوضيع بالمهجو ، كقول ذي الرمة يهجو المرئي وهو رجل من بني « امرئ القيس » يقول (١) :

تسـمي امرأ القيس بن سعدٍ إذا اعْتَزَتْ ... وتأبى السِّبَالُ الصُّهْبُ والآنف الحُمْـرُ
ولكنما أصْـلُ امرئ القيس معشـرٌ ... يَحلُّ لهـم لحم الخنـازير والخمـرُ
نصابُ امرئ القيس العبيدُ ، وأرضُهـم ... مَمَرُّ المسـاحِي ، لا فلاةٌ ولا مِصْـرُ
تخلَّى إلى القفـر امرؤُ القيس إنَّـه ... سواء على الضيفِ امرئُ القيسِ والقَفْرُ
تُحب امرؤ القيس القِـرَىٰ أن تَنالَـهُ ... وتأبـى مَقَارِيهَـا إذا طلـعَ النَّسْـرُ
هـل الناسُ إلا يا امـرأ القيس غادرٌ ... ووافٍ ، وما فيكـم وفـاءٌ ولا غدْرُ

يعمد ذو الرمة إلى تكرار اسم هذه القبيلة في كل بيت ، يلوك اسمها على لسانه ويبتذله عند كل منقصه ، هازئا بهم مظهرا استخفافه لهم عن طريق التكرار الذي قصد به الهجو والتوضيع والتشهير .

وكذلك صنع جرير في قصيدته « الدماغة » التي هجا بها راعي الإبل فإنه كرر «بني نمير» في كثير من أبياتها ما يقرب من ستة عشر مرة ، والتي منها قوله مخاطبا الراعي النميري : (٢)

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومن ذلك أيضا قول جرير يسخر من بنى « تيم » ، وتيم قبيلة اشتهر هجاؤها وقل

---

(١) انظر العمدة ٢/ ٦٨٧ ، ٦٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، وديوان جرير ٢/ ٨١٣ - ٨٢٥ .

بلاؤها حتى أصبحت مثلا يضرب في الذل وقلة الوزن ، فقيل فيهم ذلك البيت الذي أصبح مثلا مشتهراً : (١)

ويُقضي الأمرُ حين تغيب تيـمٌ ولا يُسـتأذنون وهم شهودُ
فإنك لو رأيتَ عبيـدَ تيـمٍ وَتيْمـاً ، قلتَ أيُّهم العبيـدُ !

يقول جرير في السخرية منهم : (٢)

وتيمٌ تماشيها الكلابُ إذا غَدَوا ولم تمش تيمٌ في ظِلالِ الخوافقِ
وتيـمٌ بأبـوابِ الزُرُوبِ أَذلَّـةٌ وما تهتدِي تيمٌ لبابِ السُّـرادِقِ
وتَمسحُ تيمٌ قُصَّةَ التيسِ واسْـتَهُ ولا يَمْسَـحُون الدهرَ غُرةَ سابقِ

إنه أقذع هجاء وأبلغ سخرية . تماشيهم الكلاب فهم رعاة أذلاء لايمشون تحت الرايات وإنما هم بأبواب الزرائب ، فلا يهتدون لأبواب السرادق ، بل شأنهم الاهتمام بالدواب الحقيرة ورعايتها ، أما خيول الحرب فلا شأن لهم بها ، ثم إنه يكرر اسم تيم عندما يسند إليهم كل نقيصة ، تهكما بهم وسخرية منهم .

يتضح مما سبق أن التكرار أحد أساليب التعبير التي تصور انفعالات النفس بشتى معانيها ، وحينما يكون هذا الانفعال سخرية وتهكم فإن التكرار يكون عندها من الأساليب المرشحة للقيام بهذا المعنى .

---

(١) العمدة ٢/ ٨٥١ .
(٢) ديوان جرير ٢/ ٨٠٢ .

الفصل الثاني

السخرية في أساليب علم البيان

ويشمل

- التشبيه الساخر .
- الاستعارة الساخرة .
- الكناية الساخرة

التشبيه الساخر

التشبيه جزء أصيل في بلاغة اللغة وآدابها ، لذلك عني الباحثون به واجتهدوا في دراسته « وهذه العناية راجعة إلى شيوع هذه الخاصية وجريانها في كثير من فنون الكلام وكثرتها في كلام رب العزة والجلال وحديث رسول الله ﷺ » (١) .

والتشبيه لون من ألوان التعبير الممتاز الأنيق ، تعمد إليه النفوس بالفطرة حين تسوقها الدواعي إليه ، يستوي في ذلك العرب والعجم ، والخاصة والعامة ، فهو من الصور البيانية التي لا تختص بجنس ولا لغة ؛ لأنه من الهبات الإنسانية والخصائص الفطرية والتراث المشاع بين الأنواع البشرية جميعاً ، ذلك أن أساسه هذه الصفات المشتركة ، أو المتشابهة ، أو المتضادة التي يراها الإنسان في الأشياء ، ويترتب على ذلك استساغته استعمال الألفاظ بعضها مكان بعض تجوزاً (٢) .

وهو يزيد المعنى وضوحا ، ويكسبه تأكيدا لذلك أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه ، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل مايستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان (٣) .

ومن أبرز صفاته المبالغة ، والبيان ، والإيجاز ، وأما فائدته فإنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه ، أو التنفير عنه ، فإنك إن شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان

---

(١) انظر التصوير البياني ، د. أبوموسى ٢٥ .

(٢) انظر فن التشبيه ، الجندي ١/ ٤٣ .

(٣) الصناعتين ٢٦٥ .

ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيها ، وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا يدعو إلى التنفير عنها (١) .

والتشبيه دقيق المسلك مستوعر المذهب ، وهو مقتل من مقاتل البلاغة ، وسبب ذلك أن حمل الشيء على الشيء بالمماثلة إما صورة وإما معنى ، يعز صوابه ويعسر الإجادة فيه وقلما أكثر منه أحد إلا عثر (٢) .

يقول عبدالقاهر مبينا فضيلة التشبيه والتمثيل ، وموضحا ذلك بالأمثلة على عادته : « واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه ، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وأكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا .

فإن كان مدحا ، كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذما ، كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد . . . . .

وإن أردت أن تعرف ذلك ، فانظر إلى الفضل بين أن تقول : « أرى قوما لهم بهاء ومنظر وليس هناك مخبر ، بل في الأخلاق دقة ، وفي الكرم ضعف وقلة » وتقطع الكلام

---

(١) انظر المثل السائر ٢/ ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق .

وبين أن تتبعه نحو قول الحكيم : (أما البيت فحسن ، وأما الساكن فرديء) وقول ابن لنكك (*) :

في شجر السَّرْوِ منهمُ مثلٌ   له رُواءٌ وما لــــه ثمــــرُ

وانظر إلى المعنى في الحالة الثانية كيف يورق شجره ويثمر ، ويفتر ثغره ويبسم، وكيف تشتار الأرى من مذاقته كما ترى الحسن في شارته » (١) .

والتشبيه أشبه شيء بوسائل الإيضاح التي تهدف إلى زيادة التأثير في النفس، وتثبيت المعاني فيها ، إذ يعقد صلة بين أمرين أو أكثر يشتركان بصفة أو أكثر بقصد إبراز هذه الصفة في أحدهما وتجسيمها وتوضيحها ، فإذا كان ذما جاء مؤثرا موجعا يبرز نقائص المهجو ويصورها واضحة للعيان فتكون الصورة أبلغ في الذم وأكثر تأثيرا في الخصم(٢) . لذلك يقول الزمخشري : « فيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبي » (٣) .

والتشبيه أحد أساليب البيان العالية ، لذلك تكررت صوره في القرآن الكريم كثيرا ، وكان من هذه التشبيهات الصور الساخرة التي يصورها القرآن الكريم لأولئك الكافرين والمعاندين والمستكبرين ، فيسخر من كبريائهم وغرورهم ، ويسفه أحلامهم

(*) محمد بن محمد بن جعفر أبي الحسن المعروف بابن لنكك البصري ، الشاعر الأديب ، عاصر المتنبي وأبو رياش فكسدت بضاعته بنفاق سوقهما فأكثر من هجائهما ، وكان أكثر شعره في شكوى الزمان وهجاء شعراء عصره . معجم الأدباء ١٩/ ٦ .

(١) انظر أسرار البلاغة ١١٥ - ١١٨ . محمود شاكر .

(٢) الصورة بين البلاغة والنقد ، أحمد بسام ٤٥ .

(٣) تفسير الكشاف ١/ ٣٧ .

وعقولهم ، فنراه مرة يشبههم بالدواب والأنعام (١) ، فيسلبهم العقل والتفكير ، ومرة يشبههم ببعض هذه الدواب كالحمار (٢) أو الكلب (٣) أو العنكبوت التى اتخذت بيتا(٤) ، ويسخر القرآن من المنافقين فيشبههم بالخشب المسندة (٥) وهم يتعجبون من أمثال القرآن وتشبيهاته ويرددون « ماذا أراد الله بهذا مثلا » (٦) ونسوا أن « للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى » (٧) ولا شك أن الهدف الديني السامي هو الغرض المقصود من كل تشبيه أو تمثيل في القرآن الكريم .

وينبه الله عز وجل على ضلال المشركين ، فيسخر من شركهم وجهلهم ، يقول سبحانه : **﴿ قل من رب السمٰوٰت والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولیآء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمىٰ والبصير أم هل تستوى الظلمٰت والنور أم جعلوا لله شركآء خلقوا كخلقه فتشٰبه الخلق عليهم قل الله خالق كل شئ وهو الوٰحد القهٰر ﴾**(٨) .

استفهامات إنكارية متوالية تنصب على هؤلاء المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء لايملكون لأنفسهم - فضلا عن غيرهم - نفعا ولا ضرا ، ثم ترتفع درجة الإنكار وتعلو « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . . » . « أم » هنا

---

(١) انظر الآيات (١٧١) من سورة البقرة ، (١٢) من سورة محمد ، (٤٤) من سورة الفرقان .

(٢) انظر الآيات (٤٨ - ٥١) من سورة المدثر ، (٥) من سورة الجمعة .

(٣) الآية (١٧٦) من سورة الأعراف .

(٤) الآية (٤١) من سورة العنكبوت .

(٥) الآية (٤) من سورة المنافقون .

(٦) بعض الاية (٢٦) من سورة البقرة .

(٧) الآية (٦٠) من سورة النحل .

(٨) الآية (١٦) من سورة الرعد .

مقدرة ببل والهمزة للإنكار ، وفي قوله « خلقوا كخلقه » تهكم جاء في سياق الإنكار ، لأن غير الله لايخلق خلقا البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة ولا بطريق الانحطاط والقصور ، وقد كان يكفي في الإنكار عليهم أن الآلهة التى اتخذوها شركاء لا تخلق مطلقا ، ولكن جاء في قوله تعالى « كخلقه » تهكماً يزيد الإنكار تأكيدا (١) .

والمشركون في ضلالهم وغيهم كالأنعام لا تعي ولا تعقل : ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لايعقلون** ﴾ (٢) قيل مثل الذين كفروا كبهائم الذي ينعق والمعنى ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لايسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوى الصوت من غير إلقاء أذهان ولااستبصار ، كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر لها ولا تفقه شيئا آخر ، ولا تعي كما يفهم العقلاء ويعون (٣) .

وتشبيههم بالأنعام والبهائم التي هذا حالها فيه تحقير وإهانة لهم وسخرية وتهكم بعقولهم وحواسهم التي لم ينتفعوا بها ، فالكافر المعاند يلغى عقله ويلغى سمعه وبصره وينساق كما تنساق الدواب ، لذلك جاءت الآيات تشبههم في حالهم هذا بالبهائم : ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾ (٤) ﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعم بل هم أضل سبيلا** ﴾ (٥) .

---

(١) انظر الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، لابن المنير ٢/ ٢٨٤ . ضمن تفسير الكشاف .

(٢) الآية (١٧١) من سورة البقرة .

(٣) انظر تفسير الكشاف ١/ ١٠٧ .

(٤) بعض الآية (١٢) من سورة محمد .

(٥) الآية (٤٤) من سورة الفرقان .

وشبهوا بجنس من البهائم حقير ، اشتهر بالغباء والامتهان « فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » (١) .

يصف القرآن حال الكافرين وإعراضهم عن داعي الهدي وينكر عليهم ، فيأتي الإنكار يصحبه التعجب والسخرية ، ثم يصف نفورهم الشديد من هذه الدعوة وصفا فيه إهانة لهم وسخرية من هذا السلوك العجيب تجاه من يريد لهم الخير ، فيشبههم بالحمير وفي تشبيههم بها مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بيّن وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل ، ثم يخرج من هذا التشبيه صورة مضحكة ، مجموعة من الحمير باغتها أسد كاسر فأخذت تعدو في كل اتجاه ، ولا ترى مثل نفار الحمير إذا رابها رائب (٢) .

ويشبه القرآن الكافر بالكلب إهانة له وتحقيرا لشأنه : ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾(٣) هو عالم من علماء بني إسرائيل وقيل من الكنعانيين أوتي العلم والآيات فانسلخ منها بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره ، فأدركه الشيطان فصار من الضالين ، ومال إلى الدنيا ورغب فيها ، فضرب الله له مثلا يهينه فيه ويشبهه بالكلب ذلك الحيوان الحقير ، بل وهو في أخس حالاته ، فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها ، وهي حال دوام اللهث به واتصاله ، سواء حمل عليه أي شُد عليه وهُيِّج فطرد أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه وتكمن سخرية القرآن في تصوير مآل هذا الشخص ، والحالة التي ألجأ نفسه إليها ، فلا تكتفي بتشبيهه بالكلب وإنما تختار حالة معينة يتميز بها الكلب ، وهي أنه يلهث دائما ، سواء تحمل جهدا أو لم يتحمل ، وهو منظر قبيح في الكلب ، ومصدر قبحه أنه لا تعليل له إلا أنها طبيعة فيه (٤) .

---

(١) الآيات (٤٩ - ٥١) من سورة المدثر .

(٢) انظر تفسير الكشاف ٤/ ١٦٢ ، وأسلوب السخرية في القرآن الكريم ١٠٦ .

(٣) بعض الآية (١٧٦) من سورة الأعراف .

(٤) انظر تفسير الكشاف ٢/ ١٠٣ ، ١٠٤ ، وأسلوب السخرية في القرآن ص ٢٧٨ .

ولئن كان هذا مثلاً عن واحد من اليهود يعبر عن طبيعتهم وخلقهم فإن هناك مثلا لهم جميعا ، يصور موقفهم من كتب الله التي أنزلها عليهم فلم ينتفعوا بها ، فكان مثلهم مثل الحمار الذي يحمل الأسفار ولا ينتفع بها : **﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾**(١) .

والتشبيهات القرآنية التي تسخر من حال المشركين ومآلهم كثيرة ، والقرآن عامر بهذه الصور التي تمثل أمام العيان فتنفر أصحاب العقول من هذا المصير ، وتجعلهم يتفكرون في هذه الحال فينأون بأنفسهم عنها ، لأنها ليست بذات نفع بل إن عاقبتها الخسران ، ومن هذه الصور هذا السياق الذي يشبه فيه القرآن الذين يدعون من دون الله في عدم الاستجابة برجل منحن على سطح ماء وهو ظامئ يكاد يموت من شدة العطش ، ولكنه في بلاهة يمد يديه مبسوطتين إلى الماء ليصل إلى فمه فيرتوي فلا الماء صاعد ولا هو مرتو مع قرب الماء وشدة الحاجة ، وفي السياق تأكيد ذم بما يشبه المدح حيث بدئت الآية بنفي أن يستجيبوا لهم بشيء فأقنطهم ذلك ثم ذكرت أداة الاستثناء ، ومن شأن المستثنى أن يكون مغايرا للمستثنى منه فقال « إلا » فتعلقت الآمال بالآلهة من جديد وانتظروا فكان المستثنى أوقع في اليأس من المستثنى منه(٢) **﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكفرين إلا في ضلال ﴾**(٣) .

والتشبيهات القرآنية الساخرة كثيرة تحتاج إلى بحث مستقل ولعل ماقدمنا فيه نموذج من هذه التشبيهات التي تتناول جانبا من أساليب البيان التي يزخر بها القرآن الكريم .

---

(١) بعض الآية (٥) من سورة الجمعة .

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ٢/ ٢١٩ .

(٣) بعض الآية (١٤) من سورة الرعد .

ولما كان التشبيه فن أصيل في لغة العرب أكثر منه القدماء في شعرهم ونثرهم وكانوا يستحسنون منه ماكان مدركا بالحس أو ماجرت به العادة وألفته النفوس ، وعرفت عندهم تشبيهات مشتهرة مستمدة من بيئتهم وحياتهم ومجتمعهم فسلكوا بها طريقة معينة تناقلوها وألفوها ، من ذلك تشبيهات تستعمل في حال المدح كتشبيه الجواد بالبحر والمطر والشجاع بالأسد ، والحسن بالشمس والقمر ، والماضي بالسهم وبالسيف ، والعالي الرتبة بالنجم ، والحليم الرزين بالجبل ، والحييّ بالبكر ، والفايت بالحلم (١) .

وشهر قوم بخصال محمودة فصاروا فيها أعلاماً يشبه بها في حال المدح فإذا ذكروا انصرفت الأذهان إلى صفاتهم التي اشتهروا بها لا إلى أشخاصهم ، كسموءل في الوفاء ، وحاتم في السخاء ، والأحنف في الحلم ، وسحبان في البلاغة ، وقس في الخطابة ، ولقمان في الحكمة (٢) .

كما أنهم قد استعملوا تشبيهات عديدة في حال الذم فإذا أرادوا ذم أحد أو التهكم به شبهوه بها ، ولا ينصرف الذهن عند إطلاق هذه التشبيهات إلا إلى تلك المعاني المشتهرة المتعارف عليها ، فشبهوا الجبان بالنعام وبالصِّفرد وهو طائر شديد الخوف والحذر والطائش بالفراش ، والذليل بالنَّقَد والنعل والفقع والوتد ، والقاسي بالحديد والصخر والبليد بالحمار ، والبخيل بالأرض المجدبة ، واللجوج بالخنفساء ، والأكول بالفيل(٣) .

كما أن هناك أشخاصاً اشتهروا بخلال ذميمة وخصال قبيحة ، فشبه بهم في حال الذم والتهكم : كباقل في العي ، وهبنقة في الحمق ، والكسعي في الندامة ، والمنزوف ضرطاً في الجبن ، ومادر في البخل (٤) .

---

(١) انظر الصناعتين ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

جاءت هذه التشبيهات كثيراً عن العرب واستعملوها في الشعر والنثر ، وربما قصدوا بها السخرية والتهكم بمن شبهوه بها .

ومن ذلك ما أثر عنهم من الأمثال التي فيها معنى الذم والتحقير أو الإهانة والإذلال مثل قولهم : « أذل من وتد بقاع » (١) ، لأنه يُدق أبداً ، ومنه قولهم : « أذل من حمارٍ مقيد » ، وفي ذلك يقول الشاعر : (٢)

إنَّ الهوانَ حمارُ الأهلِ يعرفه والحرُّ ينكرُهُ والجَسْرَةُ الأجُدُ

ولا يُقيم بدار الذل يعرِفُها إلا الأذلَّان عيرُ الأهلِ والوَتِدُ

هذا على الخسْفِ مربوطٌ برُمَّتِهِ وذا يُشَجُّ فلا يأوِي له أحدُ

وقالوا أيضا : أذل من فقع بقرقرة ؛ لأنه لايمتنع على من جناه ، ويقال : بل لأنه يوطأ بالأرجل ، والفقع : الكمأة البيضاء والجمع فَقْعَة (٣) .

ويُشَبَّه الرجل الذليل بالفقع ، فيقال : هو فقع قرقر ، لأن الدواب تنجله بأرجلها .

قال النابغة يهجو النعمان بن المنذر :

حدّثوني ، بني الشّقِيقة مايمـ ـنع فَقْعاً بقَرْقَرَ أنْ يَزُولا

لأن الفقعة لا أصول لها ولا أغصان ، ويقال فلان فقعة القاع (٤) .

كما يقال أيضا في مولد الأمثال « هو كشوت الشجر » والكشوت نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض ويقال له شجر العليق وهو نوع من

---

(١) مجمع الأمثال ٢/ ١٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

الشجر يعتمد في غذائه وحركته على غيره من الأشجار فيضرب به المثل في عدم الفائدة وفي الاتكال على الغير والتسلق على الأكتاف ، ولاشك أن هذا طبع خسيس وهو طبع اللئام فإذا شبه شخص به كان في ذلك إهانة له وتهكما به ، ومنه قول الشاعر : (١)

هو الكَشُوتُ فلا أصلٌ ولا ورقٌ ... ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ثمرُ

وقالوا أيضاً : « أذل من النقد » ، وهو جنس من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه قال الأصمعي : أجود الصوف صوف النقد ، وقال : (٢)

فـفـيم ياشـرَّ تميمٍ مَـحْـتِـداً ... لو كنتُـمُ ضـأنا لكنتُمْ نَقَـدَا

أو كنتم مـاءً لكنتُمْ زَبَـدَا ... أو كنتُمُ صُـوفـاً لكنتم قَـرَدَا

وقالوا : « أذل من النعل » ، لأنه يمتهن في كل شيء عند الوطء ومن هذا قول البعيث : (٣)

وكلُّ كُلَيبي صفيحةُ وجهـهِ ... أذلُّ على مسِّ الهوانِ من النَّعْلِ

وقالوا أيضا : « أجبن من صفرد »، والصفرد : طائر من خشاش الطير ، قال الشاعر : (٤)

تراه كالليث لدى أَمْنِـهِ ... وفي الوغى أجبنُ من صِفْرِدِ .

وقالوا : « أجبن من نعامة » ، وذلك أنها إذا خافت من شيء لاترجع إليه بعد ذلك الخوف ، وفي ذلك يشبه الشاعر مهجوه بالنعامة هاجيا له ومتهكما به ، يقول (٥) :

---

(١) مجمع الأمثال ٢/ ١٨ ، ١٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ٢/ ٢٠

(٤) المرجع السابق ١/ ٣٢٩ .

(٥) المرجع السابق ١/ ٣٣٣ .

أسد علي وفي الحروب نعامة   فتخاء تنفر من صفير الصافر

وقالوا في الحمق : (أحمق من عجل) ، وهو عجل بن لجيم(*) ، من الحمقى المنجبين ، وذلك أنه قيل له : ماسميت فرسك ؟ فقام ففقأ عينه وقال : سميته الأعور ، وفيه يقول جرثومة العنزي : (١)

رمتني بنو عجـــل بداء أبيهـــم   وأي امرئ في الناس أحمق من عجل

أليس أبوهـــم عار عين جـــواده   فصارت به الأمثال تضرب في الجهل

وشهر في الحمق والغفلة « هبنقة » حتى صار مثلا يضرب في ذلك فقالوا : «أحمق من هبنقة» ، وهو ذو العاهات ، واسمه يزيد بن ثروان ، ويذكرون له قصصا في الحمق كثيرة ، حتى أصبح مثلا يضرب في الحمق والغفلة ، قال فيه الشاعر : (٢)

عش بجـــد ولن يضـــرك نوك   إنمـــا عـــيش من ترى بجـدود

عش بجد وكن هبنقة القيـــــــ   ـــسي نوكا أو شيبة بن الوليد

رب ذي أربـــة مـقـــل مـــن الما   ل وذي عنجـــهـيـــة مـجـدود

واشتهر في البخل (مادر) حتى قالوا : (أبخل من مادر) ، وهو رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة ، وبلغ من بخله أنه سقى إبله فبقى في أسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه ومدر الحوض به ، فسمى مادرا لذلك (٣) . فأصبح هذا الاسم سبة له ولقومه

(*) عجل بن لجيم بن صعب بن على بن بكر وائل قيل : هو من الحمقى المنجبين . مجمع الأمثال ١/ ٣٨٦ .

(١) مجمع الأمثال ١/ ٣٨٦ .

(٢) المرجع السابق ١/ ٣٨٧ .

(٣) المرجع السابق ١/ ١٩٦ ، ١٩٧ .

بني هلال ولكل من شبه به . وصارت فعلته هذه مثلاً يضرب : يقول الشاعر معيرا بني هلال بفعلة صاحبهم : (١)

لقـــد جُلِّلَتْ خِـزْيا هلالُ بنُ عـامـرٍ   بني عـامـرٍ طُرّاً بسَلْحَـةِ مـادِرِ

فـأفٍّ لكم لاتذْكُـروا الفـخـر بعـدها   بني عـامـر أنتم شِـرارُ المعـاشِـرِ

وفي الجبن شهر رجل لقب بالمنزوف ضرطاً ، فقالوا (أجبن من المنزوف ضرطا) وقالوا كان من حديثه أن نسوة من العرب لـم يكن لهن رجل ، فتزوج إحداهن رجل كان ينام الضحى ، فإذا أتينه بصبوح قلن : قم فاصطبح ، فيقول : لو نبهتني لعادية ، فلما رأين ذلك قال بعضهن لبعض : إن صاحبنا لشجاع ، فتعالين حتى نجربه ، فأتينه كما كن يأتينه فأيقظنه ، فقال : لو لعادية نبهتنني ، فقلن : هذا نواصي الخيل ، فجعل يقول : الخيل ، الخيل ، ويضرط حتى مات (٢) .

وفي العي شهر (باقل) حتى صار مثلا يضرب فقالوا : (أعيا من باقل) ، وهو رجل من إياد ، بلغ من عيه أنه اشترى ظبيا بأحد عشر درهما فمر بقوم فقالوا له : بكم اشتريت الظبي ؟ فمد يديه ، ودلع لسانه يريد أحد عشر ، فشرد الظبي وكان تحت إبطه ، فصار مثلا يضرب في العي ، يشبه به كل من اتصف بصفته (٣) .

يقول حميد الأرقط الشاعر الأموي ساخرا من ضيف له أكثر من الطعام حتى منعه ذلك من الكلام ، وكان قبل أن يوضع الطعام كسحبان وائل بيانا وفصاحة ، وما ذلك إلا أن الطعام شغله ، فقال فيه متهكما ومصورا جشعه على الطعام وقد شبهه عند الأكل بباقل لصمته وعيه وقلة كلامه . يقول : (٤)

---

(١) مجمع الأمثال ١/١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) المرجع السابق ١/٣٢٢ .

(٣) المرجع السابق ٢/٣٨٨ ، ٣٨٩ .

(٤) المرجع السابق .

أَتَانَا وما دَانَاهُ سَحْبانُ وائلٍ ... بياناً وعلماً بالذي هو قائلُ

فمازال منه اللَّقْمُ حتى كأنه ... من العِيِّ لما أن تكلَّم باقِلُ

يقولُ وقد ألقى المراسِي للقِرَى ... أَبِنْ لي ما الحجاجُ بالناسِ فَاعِلُ

يدلل كفَّاهُ ويحْدِر حلْقَه ... إلى البطن ماضُمَّتْ عليه الأنامِلُ

فقلتُ : لَعَمْري ما لهذا طَرَقْتَنَا ... فكُلْ ودَعِ الإرْجَافَ ما أنتَ آكلُ

والتشبيهات التي استعملها العرب في الذم كثيرة والطرق التي سلكوها وألفوها فيه عديدة ، وقد أكثرت من ذكر هذه الأمثلة لأنها كثرت في كلامهم ، والتشبيه كما هو معلوم « جار كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد » (١) .

ولما للتشبيه من قوة وتأثير في النفوس فقد أكثروا منه وجرى على ألسنتهم فإن أرادوا أن يصفوا الممدوح شبهوه بالبحر أو الحبيب شبهوه بالقمر والشمس أما الهجاء والتهكم فإن له عندهم معاني عديدة لأن طبيعة العرب وحياتهم وبيئتهم البدوية ومجتمعهم القبلي يجعلهم ينظرون إلى الهجاء على أنه سلاح ماض قوي شديد الفتك وكانت مثل هذه الأقوال والقصص تشتهر بينهم حتى تسير أمثالا تضرب في الذل والمهانة والاحتقار ، ثم استعملوا هذه الأمثال في أشعارهم ، ولاشك أن الأمثال السائرة المشتهرة المتعارف عليها عندما يضمنها الشاعر قصيدته فإنها تكسب شعره قوة وجده وتقع منه موقعا طريفا إن أحسن الشاعر استعمالها ، ولقد كثر في شعرهم ونثرهم التشبيه بالوتد والفقع والنعل والحمار في الذل ، والتشبيه بالنعامة والصفرد وبالمنزوف ضرطا في الجبن ، والتشبيه بهبنقة في الحمق ، وبمادر في البخل وبباقل في العي .

ويكون وجه الشبه في مثل هذه التشبيهات هو المعنى المشتهر الذي ضرب له المثل

---

(١) انظر الكامل ، للمبرد ٣/ ٩٣ ، محمد ابوالفضل .

، فالتشبيه بهبنقة يكون الوجه الجامع فيه بين المشبه والمشبه به هو الحمق والغفلة ، كما أن التشبيه بمادر يكون وجه الشبه فيه هو البخل ، والتشبيه بباقل الوجه فيه هو العي ، فوجه الشبه في هذه التشبيهات صفة مشتركة بين الطرفين وهي الحمق في الأول ، والبخل في الثاني ، والعي في الثالث .

ولكن قد تسلك طريقة في التشبيه لايكون الوجه فيها صفة مشتركة بين الطرفين ، فقد اشتهر عند العرب تشبيهات استعملوها في حال المدح « كتشبيه الكريم بحاتم ، والشجاع بالأسد ، والحسن بالقمر ، والحليم الرزين بالجبل ، والحكيم بلقمان ، والحليم بالأحنف ، والبليغ بسحبان وغيرها من التشبيهات التي تستعمل للمدح » (١) ولكن قد تستعمل هذه التشبيهات والمعاني الشريفة في ضدها ، فيشبه الجبان بالأسد ، والبخيل بحاتم ، والعي بسحبان وائل ، والجاهل بلقمان ، وتشبه القبيحة بالقمر ، والطائش بالجبل ويكون ذلك لغرض الهجاء والسخرية ، يقول ابن حجة : « ومن الشروط اللازمة في التشبيه أن يشبه البليغ الأدون بالأعلى إذا أراد المدح ، اللهم إلا إذا أراد الهجو فالبلاغة أن يشبه الأعلى بالأدون » (٢) .

ويتم هذا التشبيه عن طريق تنزيل هذا التضاد في الصفتين منزلة التناسب ثم ينتزع وجه الشبه من التضاد المنزل منزلة التناسب ، ويكون ذلك لغرض التمليح أو التهكم والسخرية .

والتمليح مصدر ملح ، إذا أتى بشيء مليح ، وقصد التمليح أي الاتيان بشيء مليح في طي التعبير بما في الأصل على خلاف المراد (٣) . قال الطرماح يخاطب زوجته سليمة : (٤)

---

(١) انظر الصناعتين ٢٦٥ .

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب ، لابن حجة ١/ ٣٨٣ . عصام شعيتو

(٣) انظر مواهب الفتاح ٣/ ٣٨٤ .

(٤) أساس البلاغة (ملح) .

تَملّحُ ما استطاعتْ ويغلب دونها   هوًى لك يُنسى مُلحةَ المتملِّح

ومعنى التمليح والتهكم في الإصطلاح : إطلاق اللفظ الدال على وصف شريف على ضده ، كإطلاق الكريم على البخيل ، والأسد على الجبان (١) .

وكل واحد من تلك الأمثلة السابقة صالح لأن يكون مثالاً للتمليح أو التهكم وإنما يفرق بينها بحسب المقام ، فإن كان قصد المتكلم مجرد التملح والتظرف من غير قصد الاستهزاء والسخرية فالغرض هو التمليح ، وإلا كان سخرية وتهكما .

والتمليح والتهكم قد ينفرد كل منهما عن الآخر وقد يجتمعان ، والفيصل في معرفة ذلك السياق وقرائن الأحوال ، فإذا قلت مثلا لصديق لك : أنت حاتم في الكرم وكنت تقصد مجاملته وملاطفته ولم يكن هناك مبررا أو قرينة تشير إلى أنك تقصد التهكم به بل قصدت مدحه والتظرف بين يديه كان الغرض من هذا التشبيه هو التمليح .

أما إذا كان قصدك التهكم وقامت قرينة على ذلك كأن تقول لعدو لك : « أنت أسد في الشجاعة » . كان الغرض من هذا التشبيه السخرية والتهكم .

وقد يجتمع التمليح والتهكم والسخرية في سياق واحد ، وذلك إذا قامت القرائن على قصد المتكلم لهما معا ، ويكثر ذلك في المناظرات والمجادلات والمخاصمات العلنية وذلك كأن يقصد المتكلم التهكم والسخرية من خصمه وإيلامه وذلك بحضرة جمهور فيكون هذا التشبيه سخرية وتجريحا للمشبه وتظرفا وتملحا يطرب له ذلك الجمهور لأنك قد نلت من خصمك بأسلوب فيه ظرافة ودهاء .

يقول ابن يعقوب : « واعلم أنه قد ينتزع الشبه من نفس التضاد لاشتراك الضدين فيه ثم ينزل منزلة التناسب بواسطة تمليح أو تهكم فيقال مثلا للشخص المعلوم بالجبن : ما

---

(١) فن التشبيه ١/ ١٠٤ .

أشبهه بالأسد في الشجاعة ، وللبخيل هو حاتم في الكرم ، وكلا المثالين صالح لقصد التمليح ولقصد التهكم ولقصدهما معا ، فإذا قامت القرائن على عدم قصد الاستهزاء بالمشبه لصداقته له مثلا وإنما قصد التمليح أي الإتيان بشيء مليح يستبدع ويستظرف عند السامع ، كانت الواسطة تمليحا ، وإذا قامت على قصد الاستهزاء بالمخاطب لعداوة وغضب من غير أن يكون ثم من تقصد ظرافة الكلام معه ، كانت الواسطة التهكم ، وإذا قامت على قصدهما معا لعداوة المشبه فقصدت إهانته وإذايته مع وجود سامع يقصد إيجاد الكلام في غاية الظرافة والملاحة معه ، كان كلاهما واسطة ، أما التمليح فيما ذكر فلأن إفادة نهاية الذم المقصودة في طي مايفيد نهاية المدح مما يستملح ، وأما التهكم فلأن الإتيان بعكس مايطلب في طيه معروف لتلك الإهانة كمناولة حجر عند طلب خبز مثلا ولهذا يقال عند مناولته استهزاء خذ الخبز ، ولأجل قصد نهاية الإهانة ناسب التعبير في هذا التشبيه بصيغة التعجب والمبالغة » (١) .

ووجه الشبه في مثل هذا التشبيه منتزع من التضاد نفسه الواقع بين الطرفين لاشتراكهما فيه ، وليس الوجه هو التضاد المشترك بين الطرفين باعتبار الوصفين المتضادين فإنه إن اعتبر وجه الشبه في التضاد أي في كون كل منهما مضاداً للآخر فإن ذلك لايكون من التمليح والتهكم ، ولو أننا أردنا أن نذكر وجه الشبه ونصرح به في قولنا للبخيل هو حاتم ، فلابد أن نقول هو حاتم في الكرم ، مع أن الصفة في البخيل ضد الكرم ، لكننا نزلنا هذا التضاد منزلة التناسب وجعلنا البخل بمنزلة الكرم على سبيل التمليح والهزء .

يقول ابن يعقوب : « ووجه الشبه في هذا التشبيه هو الوجه الرافع للتضاد الموجب للمناسبة لا نفس التضاد المشترك للضدين ، فإنا إذا قلنا : هذا - مشيرين إلى جبان - كالأسد ، وقصدنا أن الوجه التضاد الذي كان في وصفيهما لم يفد تمليحا ولا تهكما بل

---

(١) انظر مواهب الفتاح ٣/ ٣٨١ - ٣٨٤ .

بمنزلة قولنا : البياض كالسواد ، في تقابلهما وتضادهما أو في اللونية الكائنة فيهما ، والكلام هنا فيما يفيد تمليحا أو تهكما ، وإنما يفيده إذا قصد أن يكون الوجه هو الأمر الذي تقتضيه المناسبة الرافع للضدية وهو الشجاعة في المثال ، حتى أنا لو صرحنا به لقلنا : في الشجاعة ، وكذا إذا قلنا في بخيل : هو كحاتم ، إنما نجعل الوجه هو الكرم ، لا الاتصاف بضد ما في كل ، ولكن لما كان الحاصل في نفس الأمر في المشبهين ضد ماذكر لأن الحاصل في المشبه في الأول الجبن ، وفي الثاني البخل ، نزلنا التضاد بين الوصفين كالمناسبة والمماثلة على ماقررنا آنفا ، فتوصلنا بذلك إلى جعل الحاصل في المشبه هو الشجاعة في الأول ، والكرم في الثاني على وجه التمليح بإظهار المقصود في نقيضه ، أو التهكم بإعطاء الأذى في عكسه » (١) .

أما السبكي فإنه يرى أن وجه الشبه ليس هو التضاد بل هو مطلق القوة أو الشدة الموجودة في كل من الضدين كما تقول : السواد كالبياض ، في أن كلا منهما لون ، أو اللون كالشم في أن كلا محسوس (٢) .

ويمثل بعض البلاغيين على هذا الأسلوب بما يبينه الإمام المرزوقي في قول الشاعر الحماسي شفيق بن سليك الأسدي : (٣)

أتانـــي من أبي أنسٍ وعيدٌ فَسُلَّ لغيظة الضحاك جسمي

فإنه قال : هذا البيت قصد قائله التهكم بأبي أنس والتمليح ، أي الإتيان بشيء مليح يستظرفه السامعون . ومعنى « سُلَّ » ذاب ، وهو بصيغة المبني للمجهول ، والجسم

---

(١) مواهب الفتاح ٣/ ٣٨٥ .

(٢) انظر عروس الأفراح ٣/ ٣٨٤ .

(٣) انظر شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقي ٢/ ٧٧٧ ، نشر أحمد أمين وعبدالسلام هارون .

هو النائب وفي بعض الروايات بدل لغيظة ، تغيظ ، فيكون بصيغة المبني للفاعل والتغيظ فاعله والجسم مفعول ، والمراد بالضحاك أبو أنس نفسه ، وعبر بالظاهر موضع الإضمار بيانا لعين المستهزأ به بذكر الاسم العلم تحقيرا لشأنه ، وقيل الضحاك اسم لملك من الملوك سماه به زيادة في التهكم لتضمنه تشبيهه به على وجه الهزء والسخرية فكأنه قال : فسل جسمي تغيظ هذا الذي هو كالملك الفلاني . ولا يخفى مافيه من الاستهزاء (١) .

والتشبيه نمط من التصوير أداته اللغة ، وتصريف الكلمات قد ينتج عنه صورة حية متحركة نابضة بمعان في الحياة كثيرة ، وقوة التشبيه وتأثيره في كونه « يخرج النفس من خفي إلى جلي ، ويأتيها بصريح بعد مكني ، ويردها في الشيء لتعلمه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم » (٢) فليس الخبر كالمعاينة ، والتشبيه تصوير يبرز لك المعاني والأفكار في أشكال يجسمها ويصورها ويمثلها حية نابضة واضحة « ويضعها أمام القارئ مشخصة بكل ما تتطلبه هذه الحياة من لون وحركة ، والشاعر المبدع ينفذ إلى نفس المتلقى من خلال تشكيل معانيه وتصوير أفكاره تصويرا يمكن المعنى في نفس القاريء أو السامع ، ومن هنا تتضح العلاقة الوثيقة بين المعنى والخيال الذي يضفي على المعنى قوة ووضوحا وجمالاً ، فالتخييل يعرض على النفس المعاني في لباس جديد ، ويجلبها في مظهر غير مألوف ، وهو بعد هذا يحرك نفس السامع لتلقي المعنى بارتياح له وإقبال عليه ، وواضح أن الرصيد المختزن في العقل من الصور والمناظر والتجارب وأنواع المحسات من سمعية وبصرية وغيرها ، كل هذا هو المنبع الذي يستمد منه الخيال ، وهو المادة الأولية التي ينسج منها صورة وينظم عقوده » (٣) .

---

(١) انظر مواهب الفتاح ٣/ ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، وشرح عقود الجمان ٢/ ٢٠ .

(٢) انظر أسرار البلاغة ١٢١ .

(٣) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤٠٧ .

والشاعر المبدع هو صاحب الأفكار والمعاني المبتكرة ، وهو أشبه بالرسام يحسن رسم الخطوط وتلوينها « والصورة الناجحة هي التي تتشكل في مكانها الطبعي وبحدودها الفنية ، مكونة مع أجزاء القصيدة الأخرى وحدة متكاملة ، فالصورة الفنية هي التي تضبط انفعال الشاعر ، وتكفل تسجيله ونقله إلى الآخرين ، وحمل عدوى عاطفته إليهم فبغير هذه الصورة لا يتحقق غرض الشاعر ، فالاعتماد على مجرد التعبير الطبعي الغريزي عن الانفعال ، لا يكفي لبلوغ الشاعر مايريد » (١) .

وقد لا تكون الكلمة هي أداة التصوير الساخر « بل تكون الألوان والخطوط والظلال والأضواء كما في فن الرسم الساخر « الكاريكاتير » الذي يقوم على تكبير جوانب الضعف أو القبح في شيء ما ، فيبالغ فيها بقصد استغلال الطبيعة في بيان عنصر التشويه ، فتكون باعثاً على الضحك في الوقت الذي تؤدي فيه غرضاً اجتماعيا أو إنسانيا»(٢) .

و (الكاريكاتور) كلمة ليست عربية كما هو واضح من تركيب حروفها وبنائها الصرفي وليس لها وجود في المعاجم « وهي كلمة معربة عن أصل إيطالي ، تطلق على صورة مرسومة لشخص ، أو مجموعة أشخاص ، أو لمشهد من المشاهد ، أو مثالب ونقائص ، وأخلاق ، وعادات ، وتقاليد مرذولة ، وغيرها من الأغراض السيئة التي تشيع في مجتمع من المجتمعات ، وهذه الصورة « الكاريكاتورية » مرسومة كطريقة تقوم على أساس عنصر التجسيم للعيوب والنقائص ، ومسخ الصورة لتستثير السخرية والتندر والتهكم ، والاستهزاء ، والاستهانة ، والتحقير ، بل والإضحاك أيضاً » (٣) .

---

(١) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤٠٨ .

(٢) انظر السخرية في أدب المازني ، د. حامد الهول ١٨ .

(٣) انظر الرسوم الساخرة في الصحافة ١٥ .

وهو فن صحفي لا تكاد تخلو منه صحيفة أو مجلة ، يعمد فيه الفنان إلى طريقة في الرسم تعتمد في كثير من الأحيان على المفارقة أو المبالغة في إظهار عيب من العيوب ، وخلل حدث في طريقة التعامل مع قضية ما ، وقد يعمد الفنان إلى رسم شخصية ما في صورة مضحكة ، كالمبالغة في تصوير عضو من أعضاء الجسم ، ومحاولة تشويه هذا العضو ، فيصوره بأنف طويل يمتد أمامه ، أو آذان كبيرة يحملها بين كتفيه ، فيظهر المعايب الجسمية ويكبرها بطريقة تجعلها باعثة على الضحك .

والرسم الكاريكاتوري الساخر بالألوان يعد في الحقيقة ربيب التصوير الساخر بالكلمات ، فقد كان بعض الشعراء يمتلك عصبا خاصا يتحسس به مظاهر النقص ، ومقدرة فائقة في التصوير الكاريكاتوري الساخر ، يعبث بخصمه ويظهره في صورة مضحكة مزرية .

ولقد كان ابن الرومي أحد هؤلاء الشعراء « ولعل شعوره الدائم بالعاهة دفعه إلى تقصي مياسم الضعة في الناس ، يبالغ بها ، ويؤولها في كل جهة ليمسخ عالمهم ، ويحيله إلى عالم مرتج كثير الاختلال كعالمه ، فهو يتفرس في الناس . ويتأمل ملامحهم المنكرة ، ولايكاد يعثر على واحدة منها حتى يتولاها بعصبه المتشائم ، ونفسيته الماسخة ، فيزيل ساتر الملامح والسمات الطبعية ، وينصرف إلى العبث بالوجه المنكر ، مبدعاً في تصويره ممعنا في تشويهه والضحك منه » (١) انظر إلى تصويره وعبثه بهذا الرجل :(٢)

وكأنَّ صوتَكَ حين تصدُح صوتُ رعدٍ يرْجِسُ
فإذا صدحتَ مؤذناً كادتْ تموتُ الأنفسُ

---

(١) انظر ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ، إيلياحاوي ٧٧ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٣/ ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وإذا جلست أذَىٰ خُـــشَـــامُكَ مـن يضُـــمُّ المجـلسُ
فـكـأنمـا الـكـريـاس ينـفـخ منـــك حـين تـنـفَّـسُ
وإذا نهـــضت كـــبــا بوجـــهك للجـــبين المَعْطِـــسُ
فـالأنفُ منك لِعُظْمِـــه   أبـــداً لرأســـك يعـكِسُ
حـــتى يظن الناس أنك في التـــراب تفـــرَّسُ
ولأنت أجـدر بالـــذي   قـــال الفـتى المُتَنطّس :
إنْ كـــان أنفك هكـــذا   فـــالفـيل عندك أفطَسُ
وإذا جلســت علـى الطـريق ولا أرى لـــــك تجلسُ
قيل الســلام عليكمـــا   فتجيب أنـت ويخـرسُ

بدأ ابن الرومي بوصف هذا الصوت المزعج المجلجل الذي يشبه صوت الرعد والذي يوشك أن يخطف الأنفس ، ثم أخذ يصور أنف هذا الرجل ويرسم له صورة «كاريكاتورية» عمادها المبالغة المفرطة ، التي تظهر الشخص بصورة مضحكة ، فأنفه في حجمه مثل رأسه ، بل إنه أكبر ، فهو لثقله جعل صاحبه يمشي منكسا رأسه ، كأنه يبحث عن شيء في الأرض أو يتفرس في التراب ، ثم يذهب بعيداً في المبالغة في تصويره ، فلا يكتفي بتشبيه الأنف بالرأس ولا بتشبيهه بخرطوم الفيل ، بل يجعل الفيل عنده أفطس ليجعل من هذا الأنف أسطورة ، ويعمد إلى تصويره بصورة « كاريكاتورية » خيالية يبعد فيها عن الواقعية ، ويدخل في عالم الخيال ، فيصبح هذا الأنف مثار السخرية من الناس فإذا ماجلس صاحبه في الطريق - والأفضل ألا يجلس - كان هذا الأنف ملفتا للأنظار مثيراً للسخرية والتهكم ، يلبّس على الناس فيظنون شخصاً آخر يجلس هنا ، فيسلمون عليهما ، ولا شك أن هذا تصوير قد اعتمد ابن الرومي فيه على المبالغة والتصوير الكاريكاتوري ، فأظهر هذا الرجل في صورة مضحكة عابثة مزرية .

ولابن الرومي كثير من هذه الصور « الكاريكاتورية » التي تعتمد في تصويرها على التشبيه، من ذلك وصفه للأحدب : (١)

قصرت أخادعه ، وغار قذاله فكأنه متربص أن يصفعا

وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية بها فتجمعا

يصور لنا هذه العاهة الجسدية في صورة مضحكة ، إذ هي عنده ليست عاهة وتشوها خلقيا ، بل إنها حركة جسدية انفعالية متعمدة ، فهي حركة مترقب لصفعة تنزل على القفا ، بل إنه قد صفع ، فهو متجمع مترقب لصفعة أخرى تنزل به .

ويصور لنا دعبل أبا عباد ومجلسه ، وما يرتكب فيه من حماقات ، فيقول :(٢)

أولى الأمور بضيعة وفساد أمر يدبره أبو عباد

خرق على جلسائه فكأنهم حضروا لملحمة ويوم جلاد

يسطو على كتابه بدواته فرمل ، ومضمخ بمداد

فكأنه من « دير هزقل » مفلت حرد يجر سلاسل الأقياد

فاشدد أمير المؤمنين وثاقه فأصح منه « بقية » الحداد

إنه يرسم صورة « كاريكاتورية » مضحكة لهذا النزق الذي يسطو على جلسائه فيهب إليهم ممسكا بدواته ، يهجم على هذا ، ويلطخ بها وجه هذا ، ويصيب بها ثياب ذاك ، وهم يتقافزون من حوله ، كأنه وحش كان مقيداً أو مجنون كان موثقاً فأصاب

---

(١) ديوان ابن الرومي ، كامل كيلاني ١/ ١٤٦ .

(٢) شعر دعبل ٩٩ .

فرصة فانفلت يعبث بجلسائه ، فهم ما بين مرمل ، ومضمح ، وفار لايلوي على شيء . « وقد وفر الشاعر لصورته المتقدمة عنصري الحركة واللون ، أما الحركة فللمسخور منه وهو في هياجه وخرقه واستعدائه على كتابه ، وأما اللون فقد أضفاه على الكتاب الذين تلطخوا بالحبر المراق عليهم ، فالقاريء يتخيل مجلس أبي عباد بشغبه واضطرابه» (١) .

ويعتمد التصوير الساخر « على التخيل والتصور الدقيقين للتقاط صورة مشوهة مضحكة للمهجو ، تقوم في خطواتها الفنية على المغالطة التركيبية المتخيلة للشخصية المهجوة ، أو المظهر الذي يراد انتقاده والسخر منه ، فالسخرية التصويرية نوع من النقد يعتمد في جملته على التماس العيوب الرئيسية لظاهرة معينة تعرض بأسلوب فني ، يبالغ في تصوير العيب أو النقص ، ويبرز وجه التناقض على شكل نكتة ترد في ذهن الفنان وهذه المبالغة في تضخيم الصورة وتشويهها لاتتعارض مع الصدق الفني لدى الشاعر ؛ لأن السخرية التصويرية فن هادف ذو موضوع كبير الأهمية في نفس الشاعر ، ولذلك فإن الشاعر يعمد إلى هذا الأسلوب المضحك ، فالضحك تأديب قبل كل شيء ، وقد يؤلم فهو ليس طيباً في كل الأحيان » (٢) .

---

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦٢ .

(٢) المرجع السابق ٣٦٠ .

يقسم البلاغيون التشبيه إلى حسي وعقلي ، ويعرفون التشبيه الحسي بأنه الذي يكون طرفاه أو أحدهما حسيا ، ومعنى حسية الطرف أن يكون هو أو مادته التي يتركب منها مدركاً بإحدى الحواس الخمس ، بأن يكون من المسموعات ، أو المبصرات ، أو المشمومات ، أو المذوقات ، أو الملموسات ، فمن التشبيه الحسي « تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه ، وبالحلقة في وجه آخر ، وكالتشبيه من جهة اللون ، كتشبيه الخدود بالورد ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار ، وتشبيه سقط النار بعين الديك ، وما جرى في هذا الطريق ، أو جمع الصورة واللون معاً ، كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور ، والنرجس بمداهن در حشوهن عقيق وكذلك التشبيه من جهة الهيئة نحو : أنه مستو منتصب مديد ، كتشبيه قامة الرجل بالرمح والقد اللطيف بالغصن ، ويدخل في الهيئة كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس ، نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج ، وكتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازي ، وأشباه ذلك من الأصوات المشبهة له ، وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر ، وتشبيه اللين الناعم بالخز والخشن بالمسح ، أو رائحة بعض الرياحين برائحة الكافور ، أو رائحة بعضها ببعض كما لا يخفى» (١) .

والتشبيهات المحسوسة أقوى أثراً في النفس والوجدان ؛ لأن مايدرك بالحس أقوى مما يدرك بالعقل فليس الخبر كالمعاينة ، والتفكير يبدأ دائما بالمحسوسات ، وترتبط الأشكال بأسمائها ، فمجرد أن نذكر اسما من الأسماء لشيء ما تتشخص صورته في أذهاننا ، وجزء كبير من تفكيرنا إنما يقوم على الحس . وقد فطن العلماء من قديم إلى أن الحواس منافذ للعقل تمده بالمعارف المختلفة ويشرف منها على دنيا الناس يلتقط منها

---

(١) انظر أسرار البلاغه ٩٠ ، ٩١ .

ماشاء، وفي ذلك جاء قولهم : من فقد حسا فقد علما . ومعرفة الأشياء بالحواس الخمس: جودة الشيء بالنظر أن يكون حسنا رائقا ، وبالخيشوم أن يكون طيبا أرجا ، وبالمذاق أن يكون حلوا عذبا ، وبالسمع أن يكون صافي الوقع والصوت ، وباللمس أن يكون لينا ناعما . ونحن في صغرنا إنما نشعر بما نحسه لا غير ، دون أن نقدر على تأويل المحسوسات وتفسيرها ، فإذا ماوصلنا إلى درجة الإدراك الحسي انتقلنا إلى مرحلة قريبة منها ، وهي مرحلة الذكر التي نتمكن فيها أن نعيد إلى دائرة شعورنا ما أدركناه بحواسنا من قبل ، ثم ننتقل إلى مرحلة تليها مباشرة ، وهي مرحلة الخيال ، وتدخل هذه المرحلة في منطقة المحسات إما مباشرة وإما بالواسطة ، وفي نهاية هذه المرحلة ننتقل إلى دائرة المعقولات حيث تظهر أمارات الحكم ، والتعليل ، والاستنباط إلى غير ذلك من الأعمال العقلية الكثيرة ، وهكذا يصوغ العقل بمعونة الملكات الذهنية ماشاء من القضايا العامة المستنبطة من المحسوسات ، ويحتفظ بها ويذكرها عند الحاجة(١) .

والتشبيه الحسي له تأثير قوي في النفوس ذلك لأنه ينقل النفس من الخفي إلى الجلي ، وينقلها من المعقول إلى المحس ، وعما يعلم بالفكر والروية إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، وذلك يوفر لها الأنس بالمعنى ، ويملؤها ثقة به واطمئنانا إليه فالعلم المستفاد من طريق الحواس ، أو من جهة الطبع والضرورة يفضل العلم المستفاد من جهة العقل والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قيل ليس الخبر كالعيان ، ولا الظن كاليقين ، وكما روي أن الله أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح ، فلما عاين ماصنعوا ألقى الألواح فانكسرت ، وهذا يعني أن المعنى إذا برز في صورة التشبيه على هذا النحو المشار إليه أنست به النفس ووثقت به ، واطمأنت إليه ، لأنها نقلت إلى ماهي به أعلم ، وهو الحسي أو الضروري .

---

(١) انظر فن التشبيه ٤٠ ، ٤١ .

ثم إن العلم المستفاد من طريق الحواس ، أو من جهة الطبع والضرورة أسبق إلى النفس من العلم المستفاد من طريق العقل والروية ، لأن العلم يجيء أولا عن طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة الفكر والعقل فكل من الحسي والضروري أمس بالنفس رحما ، وأقوى لديها ذمما ، وأقدم لها صحبة ، وآكد عندها حرمة ، إذ لا يخفي ما يوجبه تقدم الإلف كما قال أبو تمام :

ما الحب إلا للحبيب الأول

وهذا كله يعني أنك إذا نقلت النفس بواسطة التشبيه من المعقول إلى ما يدرك بالحواس ، أو المعلوم بالضرورة والطبع ، كنت كمن يتوسل للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ، بل كنت كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول هاهو ذا فأبصره تجده على ما وصفت لك (١) .

والتشبيه في أصله نمط من التصوير أداته اللغة ، وهو تصوير يبرز المعاني والأفكار في أشكال يصورها ويمثلها حية نابضة بكل ما تتطلبه هذه الحياة من لون وحركة ، وهذه الصورة عندما تكون محسوسة تكون أقوى أثراً في النفوس ، لأن مايدرك بالحس أقوى مما يدرك بالعقل .

وقد برع بعض الشعراء في التصوير الساخر ، وكانت لهم ملكات وقدرات فائقة في تصوير نقائص مهجويهم ، فهم شديدو الملاحظة يملكون حاسة قوية نحو كل ما هو غير طبعي ، « وينشدون الكمال والجمال لدى الآخرين في الناحيتين الشكلية والنفسية ، وقد توجه كثير من الشعراء وبشكل واسع إلى السخرية من العيوب الشكلية والنواقص الجسدية ، وأكثروا منها كل الإكثار وجاوزوا فيها كل حد ، إذ أنهم تناولوا هذه العيوب

---

(١) انظر أسرار البلاغة ١٢١ ، ١٢٢ .

والنواقص في الإنسان في كل ناحية من نواحيه ، وعضو من أعضائه ، وعابوا فيه كل مابدا لهم أنه من النقائص » (١) .

واعتمدوا في ذلك على التصوير المبالغ فيه ، بوضع الشخص في صور مضحكة كالمبالغة في تصوير عضو من أعضاء الجسم ، ومحاولة تشويهه ، بحيث يجعل الشخص وكأنه لا يدرك أو يعرف إلا بهذا العيب الذي جسده الساخر وكبره ، ومن ذلك ضخامة الجسم أو نحافته ، وقصر القامة أو طولها المفرط ، وارتفاع أحد الكتفين بصورة ظاهرة أكثر من الآخر ، وتصوير الشذوذ في ملامح الوجه يلعب الدور الهام في هذا الصدد والأنف بصفة خاصة يعد مقياساً للشذوذ المثير للضحك ، لهذا نلحظ أن المصور الساخر يميل إلى تأكيد طول الأنف أو انعدامه لما يضفيه هذا الشذوذ من تأثير هزلي على الوجه وتصوير الأنف يكون بطولها أو بكونها معقوفة أو فطساء ، وكذلك يصور الفم تصويراً هزليا لاتساعه ، أو لعدم انتظام أسنانه ، أو لعيب في إحدى الشفتين كقطع فيها أو مايشبه ذلك من عيوب ، والشذوذ الحسي يدخل في هذا النطاق كالأعمى ، والأصم ، والأبكم فهؤلاء جميعاً يثيرون عاصفة من الضحك اذا سلكوا مسلكاً يحاولون به إنكار ما فيهم من نقص ، فالأبكم الذي يرسل خليطاً من الأصوات للتعبير عن غرضه يضحكنا ، وإذا ما أصر على استخدام هذه الطريقة الشاذة في التعبير عن حالة نفسية يقصر دونها الكلام بله الأصوات ، كأن يصور لنا هذا الأبكم في موقف غرامي ، فإن سلوكه يكون مصدراً للدعابة (٢) .

لقد تناول الشعراء كل عيب بالسخرية ، فسخروا من الأصوات الشاذة للمغنين والمغنيات ، وكثر ذلك في الأعصر العباسية خاصة في مجتمع الترف والمجون ، فالشاعر

---

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٦٠ .

(٢) انظر السخرية في الأدب العربي ٤١ .

يطلب الرقة والجمال في أصوات أولئك المغنين ، فما أن يفاجأ بصوت لا يعجبه حتى يتناوله بالسخرية ، ويعبث به ، ويصوره بشتى الصور الساخرة ، فهو مرة صوت دجاجة يخنقها ثعلب ، ومرة صوت أحجار الرحى وهي تدور ، ومرة صوت جمع من الفئران يقرضن خبزاً يابسا .

وتناول الشعراء أصحاب العاهات بالسخرية لأن منظرهم فيه شذوذ عن ذلك الكمال والجمال الذي ينشده هؤلاء الشعراء ، فانحناء الأحدب ليس تشوها خلقيا ، بل هو تجمع لأعضاء الجسم خشية الصفع واللطم ، أما الصلعة فهي مرآة من فولاذ صالحة للصفع ، ترن تحت الأكف حتى ترن لها الأرجاء .

وسخروا من القصير الدحداح ، ومن السمين المكتنز ، فشبهوا القصير والسمين بالدب والفيل ، وسخروا من القصر في الأنامل ، فشبهوها بالخنفساء .

أما الوجه فقد نال النصيب الأكبر من السخريات ، فوجه المجدور شبهوه قديما «بسلحة جامدة نقرتها الديكة» (١) ، وطول الوجه عند ابن الرومي يذكره بطول وجوه الكلاب ، وكثيرا ما شبه الشاعر الهجاء وجه مهجوه بوجه القرد ، أو الضفدع استهزاء به وضحكوا من الوجه الذي كسي بقشور الخنافس ، أو الذي امتلأ بالكلف فكأنه سلح ذباب فوق وجنة برصاء .

وكثيراً ما سخروا من قسمات الوجه ، وتشنجاته ، وتلوناته في حال الرضا والغضب ، والجهد والتعب .

وسخروا من أصحاب الروائح الكريهة المنتنة ، سخروا من بخر الأفواه ونتن الأبدان ، وكانوا يرون أن أصحاب هذه الصفة أحق بالسخرية والهزء ؛ لأنهم بعيدون عن

---

(١) انظر بغية الإيضاح ٣/ ٤١ .

أسباب اللياقة وآداب الحضارة ، وعادات العصر والمجتمع الذي أخذ بحظ من التأنق والتمدن .

ولم تسلم اللحى - وهي شعيرة ثابتة من شعائر الدين - من السخرية والعبث فتناولها بعض السفهاء والمتماجنين بالسخرية والهزء ، فوجدنا ذلك يكاد يشكل ظاهرة عند بعض الشعراء المجان الذين ظهروا في ظروف المجون والفوضى التي كانت تصيب بعض العصور .

إن السخرية التصويرية تسهم في جلاء أوجه الذم ، فالسخرية تلفت الإنسان إلى عيوبه ونقائصه ، وتدفعه برفق إلى تلمس الكمال ، وحتى لو لم يكن الشاعر يريد من خلال سخريته نقد الناس وتنبيههم إلى عيوبهم فإن هذه النتيجة ستكون محصلة من ناحية غير مباشرة ، فنحن لا نفترض أن كل الساخرين يريدون توجيه الناس من خلال سخريتهم ، فقد تقف هذه السخريات عند حد الشتم والقذف والعبث والانتقاص ، وعندئذ تفتقر إلى الوجهة الإيجابية المفروضة فيها ، باعتبارها غرضاً تتوفر فيه الصبغة التربوية من خلال لفت الناس إلى سلبياتهم وانحرافهم عن الخط الاجتماعي والأخلاقي الذي لا ينبغي لمن ينشد الكمال ورضا الناس تنكب طريقه ، وعلى أية حال فإن النية في نفس الساخر قد تكون حسنة ، والإنسان كثيراً ما يعاقب من يحب (١) .

وأياً ما يكن الأمر ، ومهما اختلفت نية الساخر وقصده ، فإن هذا الأمر لخطورته وقوة تأثيره ، ليس الباب فيه مشرعاً على مصراعيه ، بل هناك ضوابط وآداب شرعية وأخلاقية يحتكم إليها ، ومعلوم أن الله عز وجل قد نهى عباده المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض (٢) .

---

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦٦ .

(٢) انظر مقدمة البحث .

وهذا النوع من الهجاء والسخر لا يراه قدامة هجواً ، بل يرى أنه من عيوب الهجاء ؛ لأنه لا يرى الهجاء إلا في سلب الفضائل النفسية ، فأما ماكان في الخلقة الجسمية من المعايب فليس بهجاء ، يقول قدامة في ذكر عيوب الهجاء : « وجماع القول فيه : أنه متى سلب المهجو أمورا لا تجانس الفضائل النفسية كان ذلك عيبا في الهجاء ، مثل أن ينسب إلى أنه قبيح الوجه ، أو صغير الحجم ، أو ضئيل الجسم . . . » (١) .

وهذا رأي يخالفه استقراء واقع الشعر العربي ، فإننا نجد أن الشعراء الهجائين قد أكثروا من تناول هذه المعايب الجسمية بالسخر والهجاء ، وليست الأمثلة القليلة التي دلل بها قدامة على صحة رأيه بكافية لإصدار حكم بهذا الحجم ، فهو يقول مثلاً : (٢) ومما يدل على ذلك ، بعد القياس الصحيح والنظر الصريح ، أشعار وأقوال أعددها ، فمنها ما أنشده أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب :

رأت نضو أسفار أميمة قاعدا ... على نضو أسفار فجن جنونها

فقالت : من أي الناس أنت ، ومن تكن ... فإنك راعي ثلة لاتزينها

فقلت لها : ليس الشحوب على الفتى ... بعار ، ولا خير الرجال سمينها

ثم يعلق قدامه قائلاً : « فهذا صريح في أن القبح والشحوب والسماجة ليست بعار»(٣) .

ونرد بأن هذا رجل يريد أن يزين نفسه في عين صاحبته ، فيتجمل بمثل هذا الكلام . وإلا فماذا نقول في مئات القصائد في الهجاء بالمعايب الخلقية في الشعر العربي على مر عصوره .

---

(١) نقد الشعر ١٩٢ .

(٢) المرجع السابق ١٩٣ .

(٣) المرجع السابق .

وقد رد ابن رشيق على رأي قدامة هذا ، بقوله : « والناس - إلا من لا يعد قلة - على خلاف رأيه ، وكذلك يوجد في الطباع ، مع ما أكد ذلك من أحكام الشريعة » (١) ويرى ضياء الدين ابن الأثير في رده على قدامة أن العرب قد سلكت هذه الطريقة ، فلذلك خولف قدامه (٢) .

وأيا ماكان الأمر فإن الشعراء قد سخروا من كل ما رأوه قبيحا أو عجيبا غير مألوف لديهم ، فالشاعر إنسان غير عادي ، إذ هو يمتلك موهبة ومقدرة أشبه ماتكون بالسحر ، و « إن من البيان لسحرا » لذلك فإن الشاعر أشبه مايكون بالساحر يمتلك القدرة على التزيين والتقبيح ، وهذا غرض عظيم من أغراض البيان ، ومن تعاريفهم في البلاغة أنها « كشف ما غمض من الحق ، وتصوير الحق في صورة الباطل ، والباطل في صورة الحق » (٣) ، وإلى هذا يشير ابن الرومي في قوله : (٤)

في زخرف القول ترجيح لقائله ... والحق قد يعتريه بعض تغيير

تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وإن تعب قلت ذا قيء الزنابير

مدحا ، وذما ، وما جاوزت وصفهما ... سحرُ البيان يري الظلماء كالنور

فقد زين العسل وقبحه في بيت واحد وذلك عن طريق التشبيه .

لذلك كان بعض الشعراء إذا رأى منظراً دميماً ، أو خلقة عجيبة تخالف ما يطلبه من الكمال والجمال في كل شيء ، وكان صاحب هذا القبح بغيضا إليه ، تناول عيبه ذاك بالسخرية والضحك ، وربما ضحك الساخر عفوياً عند رؤيته صاحب عاهة ، لغرابة في

---

(١) انظر العمدة ٢/ ٨٥٢ .

(٢) انظر كفاية الطالب ٨٢ .

(٣) انظر علم البيان دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية ، د. بدوي طبانه ١٠٤ .

(٤) ديوان ابن الرومي ٣/ ٢٢٧ .

خلقته ، أو لأنه يخالف المألوف ، فهو مثلا يعهد الإنسان بعينين لا بعين واحدة ، وينتظر أن يرى هامته مكسوة بالشعر لا جرداء لماعة ، ويعرف نمطاً مألوفا من الأجسام البشرية فإن رأى شخصا مفرطا في البدانة والسمنة ، أو القصر ، أو به عرج بشكل غريب راقص أثار ذلك كوامن نفسه الساخرة .

وقد امتلأت كتب الفكاهة والأدب بالسخريات والنوادر التي تدور حول ذوي العاهات ، بل إنه قد ألفت الكتب في المغفلين والحمقى والعميان والبرصان والعرجان(١) .

وسوف نتناول بالتحليل بعض هذه المعايب الجسمية التي تناولها الشعراء بالسخرية ، واتخذوا من التشبيه الساخر أسلوبا يتوصلون به للنيل ممن أرادوا ، والضحك بمن شاءوا ، فرأينا تشبيهات عجيبة ، وصورا مضحكة تناولت كل شيء .

ومما كان له نصيب أكبر في هذه المعايب الجسمية من السخرية والهزء دمامة الوجه حيث نالت الوجوه القبيحة أو العجيبة قدراً كبيراً من سخرية الشعراء ، فالشاعر إنسان رقيق المشاعر يطلب الكمال والجمال في كل مايراه ، والوجه هو واسطة العقد في الجمال لذلك أمر الشرع المرأة بستره وتغطيته ، ورخص للخاطب أن ينظر إليه ، فإذا ماكان الوجه قبيحاً ، أو فيه عيب أو عاهة خلقية ، أو كانت أعضاؤه غير متناسبة أو متناسقة بأن كان أحدها مفرطاً في الكبر أو الصغر ، كان ذلك مثيرا لضحك الشاعر وسخريته ، وخصوصا إذا كان صاحب هذا الوجه ثقيل الظل ، أو جاهلاً مغرورا معتدا بنفسه أو متعاطيا لما لا يحسن .

---

(١) انظر الفكاهة عند العرب ٢١٧ .

والوجه مكان الإكرام لذلك وصف بأنه كريم ، ولذلك أيضا نهى الشرع عن لطمه لما لذلك من آثار نفسية سيئة على الملطوم ، ولأن لطم الوجه أوجع في النفس ، وكذلك السخرية من عيوب الوجه أبلغ وأوجع في السخرية من غيره .

وعلى الوجه تظهر أمارات الإكرام أو الإذلال ، فالله جل وعلا يقول في حال المؤمنين والكافرين : **﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾**(١) ، ويقول : **﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة﴾**(٢) .

وقد أدرك الشعراء هذه المعاني ، وتلك الحساسية المفرطة تجاه الوجه ، فإذا أرادوا إذلال أحد أو الضحك منه سخروا من وجهه ، وابن الرومي من أولئك الشعراء الذين شهروا بالهجاء الساخر العابث ، انظر إلى سخريته من وجه هذا الذي يسمى « عمرو » يقول ابن الرومي مخاطبا عمراً هذا : (٣)

وجهك يا عمرو ، فيه طول	وفي وجوه الكلاب طولُ
مقابح الكلب فيك ، طرّاً	يزول عنها ، ولا تزولُ
وفيه أشياء صالحاتٌ	حَمَاكَها اللهُ والرسولُ
فالكلب وافٍ ، وفيك غدر	ففيك عن قدره سُفُولُ
وقد يُحَامي عن المواشي	وما تحامي ولا تَصُولُ
وأنت من أهل بيت سوءٍ	قصتُهم قصةٌ تطولُ
وجوههم للورى عِظَاتٌ	لكن أقفاءَهُمْ طُبُولُ

(١) بعض الآية (١٠٦) من سورة آل عمران .

(٢) الآيات (٣٨ - ٤١) من سورة عبس .

(٣) ديوان ابن الرومي ٥/ ١٨٧ ، ١٨٨ .

نستغفرُ اللهَ قد فعلنا ... مايفعل المائقُ الجهولُ

ما إن سألناكَ ما سألنا ... إلا كما تُسْأَلُ الطُلُولُ

صمْتٌ وعيْبٌ ، فلا خطابٌ ... ولا كتابٌ ، ولا رسولُ

مستفعلٌ ، فاعلٌ ، فعولُ ... مستفعلٌ ، فاعلٌ ، فعولُ

بيتٌ كمعناكَ ليس فيه ... معنًى سوى أنه فضولُ

هذا من عبث ابن الرومي الموجع ، فوجه عمرو طويل يشبه في طوله وجوه الكلاب ، وتذكره رؤية هذا الوجه بوجوه الكلاب ، ولم يكتف ابن الرومي بتشبيهه بالكلب بل أخذ يعدد صفات للكلب تقصر عنها همة عمرو ، وقد اعتمد الشاعر هنا الأسلوب المنطقي والتعميم والإطلاق الذي يليه كثير من التفصيل والتوضيح ، فوجه عمرو كوجه الكلب ، بل الكلب أفضل منه ، فالكلب يفي ، وعمرو يغدر ، والكلب يحامي عن المواشي وعمرو خامل كسول ، وهو إلى ذلك ، من قبيلة ذات قصة طويلة في الورى(١) .

وابن الرومي في هذه الأبيات « لايظهر غايته ويسفر عنها وإنما يتوسل بألفاظ تبدو هادئة صامتة لكنها في الحقيقة تنطوي على كثير من الخبث والسخرية ، فعندما يقول « حماكها الله والرسول » فإن لفظة « حمى » تدل على كثير من السخرية المشوبة باللؤم لأنه يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا أراد أن يحسن إلى عمرو ، منع عنه الصالحات ، وحماه منها ، ونحن نعلم أن الحماية تكون من الأذى ، فكأن الصالحات تؤذيه »(٢) ثم يشبه ابن الرومي أقفاء أولئك القوم الذين منهم عمرو بالطبول « وهي

---

(١) انظر ابن الرومي فنّه ونفسيته من خلال شعره ١٠٩ .

(٢) المرجع السابق ١١١ .

ولاشك صورة ماسخة ، خاصة في قفا الطبل الذي يمثلهم ، وقد ترهلوا ، وجعلت أردافهم تترجرج وتتدلى في كل جهة ، هنا يظهر ابن الرومي وجه حقده ونقمته ساخرا فلا يعود مقررا ، عارضا ، لا مباليا ، وإنما يتسلط بحقده ، كأنه يتراشق مع عمرو بالشتائم ، لقد سأله بعض العطاء ، فوعده ثم لم يف بوعده ، ثم كرر الوعد وأخلف به حتى توتر ابن الرومي ، وتزيا له في وجه عمرو ووجوه أهله جميعاً شكل تجسد فيه الحقد الذي في أعصاب الشاعر ، فإذا به ينقض على ضحيته بكل ما في نفسه من حب للتشويه وما يختزن فيها من وميض الصور المخلعة المشوهة التي كان يرفده بها خياله ، لهذا رأيناه يمسخه مسخا فلا يعود عمرو إنسانا ، بل طلل إنسـان» (١)

ما إن سألناك ما سألنا إلا كما نسأل الطلول

صمت وعيب ، فلا خطاب ولا كتاب ، ولا رسول

مستفعلٌ ، فاعلٌ ، فعولُ مستفعلٌ فاعلٌ ، فعولُ

بيت كمعناك ليس فيه معنى سوى أنه فضول

وابن الرومي في هذه الأبيات « يجري كعادته على تخطي المعاني ، فقد بدأ في المطلع يشبه عمرا بالكلب وينزع بعدئذ إلى تفضيل الكلب عليه ، ثم يشبه قفاه وقفا أهله بقفا الطبل ، ومازال حتى جعل منه أخيرا طلل إنسان ، وربما خيل إليه أنه أبقى فيه على شيء ، عندما شبهه بالطلل ، فأراد أن ينزع منه هذا الشيء ويحوله إلى مجرد تفعيلة باطلة تافهة ليس لها معنى » (٢) .

وقد سخر الشعراء من دمامة الخلقة وقبحها ، وربما سخر الشاعر من دمامة خلقة نفسه ، فيتهكم بنفسه لسبب من الأسباب ، كأن يطمع في الحصول على نوال يريده

---

(١) انظر ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ١١٢ .

(٢) المرجع السابق .

«وكثيراً ما وجد هذا في المجتمعات التي تضم شخصا يقصد عون الجالسين عن طريق إضحاكهم ، ومن هذا النوع ما عرف في بلاط الخلفاء ومجالس الأمراء والكبراء ممن يتخذون أنفسهم مادة للضحك والسخرية ، حتى ينالوا من الرضا ما يسمح لهم أن يعيشوا عالة على السادة وعلية القوم ، وقد يكون التهكم بالنفس ليتخلص صاحبه من مأزق أو لينجو من الملامة أو العقوبة » (١) . ومن ذلك أن أبا دلامة دخل على المهدي وعنده جماعة من علية القوم وخاصة جلسائه ، فقال له المهدي : أنا أعطي الله عهدا لئن لم تهج واحدا ممن في البيت لأقطعن لسانك ، ويقال إنه قال لأضربن عنقك ، فنظر إليه القوم فكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه ، قال أبو دلامة : فعلمت أني قد وقعت وأنها عزمة من عزماته لابد منها ، فلم أر أحداً أحق بالهجاء مني ، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلغ إليك أبا دلامه فليس من الكرام ولا كرامة

إذا لبس العمامة كان قردا وخنزير إذا نزع العمامة

جمعت دمامة وجمعت لؤما كذاك اللؤم تتبعه الدمامة

فإن تك قد أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنت القيامة

فضحك القوم ولم يبق أحد إلا أجازه (٢) . لم يجد أبو دلامة مخرجا إلا أن يسخر من نفسه ، فشبه نفسه بالقرد مرة حين يلبس العمامة ، وبالخنزير أخرى حين ينزعها ، فسخر من دمامته وقبح منظره ، وجعل من ذلك مادة لإضحاك جلسائه .

ومن الشعراء الذين برعوا في السخرية من دميمي الخلقة ، وأصحاب الصور القبيحة ، دعبل الخزاعي ، فنراه يسخر من امرأته التي يبدو أنها كانت قبيحة دميمة تثير

---

(١) انظر السخرية في أدب المازني ٦٣ – ٦٥ .

(٢) الأغاني ١٠/٢٥٨.

في نفسه الاشمئزاز والتقزز ، فيصورها في صورة مضحكة تعتمد على المبالغة في التشويه يقول دعبل : (١)

يارُكْبَتَيْ خُزْزٍ وساقَ نَعامَةٍ ... وَزَبِيلَ كَنَّاسٍ ورأسَ بَعِيرِ

يامنْ أُشَبِّهها بِحُمَّى نافِضٍ ... قطَّاعةٍ للظهرِ ذاتِ زَفِيرِ

صُدْغَاكِ قد شَمِطَا ونحرُك يابسٌ ... والصدر منك كَجُؤْجُؤِ الطُّنْبُورِ

يامن مُعَانِقُهَا يَبِيتُ كأنَّهُ ... في مَحْبِسٍ قَمِلٍ وفي سَاجُورِ

قَبَّلتُها فوجدتُ لذْغَةَ ريقها ... فوق اللسان كلسْعةِ الزُّنْبُورِ

يمسخ دعبل خلقة زوجه مسخاً ، ويصورها تصويراً غريباً غير متجانس ، فهي مرأى سوء يكرب النفس ويميت الحس الإنساني ، إنها ذات طلعة كريهة تنفر من يلقاها حين تطل عليه برأسها الضخم الكبير وصدغيها اللذين اكتنفهما الشيب ، أما نحرها فلا ماء فيه ولا رواء ، وأما صدرها فقد فقد حياته وانعدمت أنوثته ، وهي بعد هذا ذات جسد مرتبك التكوين ، امتدت ساقاها طويلتين مفرطتين في طولهما الذي لا ينسجم مع صغر ركبتيهما اللتين تشبهان ركبتي صغار الأرانب .

ولم يكتف الشاعر في تصوير هذه المفارقات في خلقتها ، بل راح يرميها بالقذارة ودنس الرائحة ، وكأنها وعاء الكنائس بكل ما فيه من جيف ومقاذر ، ويا لهول زوجها حين يقربها معانقا ، ففي ذلك العناق بؤس وشقاء ، إذ يحسب نفسه مغلولاً في محبس حشرات مؤذيات ، تقزز الإحساس وتثير الفزع ، فلا يجني من هذا العناق غير الأذى ومرارة الريق القاتل (٢) .

---

(١) شعر دعبل ١١٦ .

(٢) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٦٥ ، ٦٦ .

ودعبل من الشعراء الذين أكثروا من التصوير الهازئ الساخر ، إلا أنه لم يبلغ في ذلك ما بلغه ابن الرومي من قدرة بارعة في التصوير الساخر ، فهو لا يتعمق في دراسة النماذج تعمق الجاحظ ولا يستوفى وجوهها استيفاء ابن الرومي ، ولكنه بالرغم من ذلك يوفق باستثارة التهكم والاستخفاف ، إذ مكنه تتبع المفارقات في سلوك الناس وهيئاتهم من إجادة وصفها والخروج بتعليلها إلى السخرية الممضة (١) ولدعبل في امرأة دميمة هذا التصوير المضحك ، يقول : (٢)

أَصْرِميني ياخِلْقَة المجدارِ وصِلِيني بطولِ بُعْدِ المزارِ
فلقد سُمْتِني بوجهكِ والوصْـ ـلِ قُروحاً أعْيَتْ على المِسْبارِ
ذَقْنٌ ناقصٌ ، وأنفٌ طويلٌ وجَبينٌ كَساجَةِ القُسطَارِ
قامةُ الفُصْعُلِ الضَّئيلِ وكفٌّ خِنْصَراها كذَيْنَقا قَصّارِ

المجدار : الفزاعة ، والقسطار : الصيرفي أو التاجر ، والساجة : اللوح الذي تقوم عليه كفتا ميزانه ، والفصعل : اللئيم .

وصورة المجدار – وهي الفزاعة – مشوهة غير متجانسة الأعضاء ، صغر في العينين وطول في الأنف وعرض في الفم وأصباغ لا تتلاءم مع بعضها ، وهذه الخلقة التي أريد لها أن تكون مفزعة مخيفة ، تحولت إلى قناع ألبسه الشاعر مهجوته التي بالغ في خلق المتناقضات في وجهها ، فالمتأمل في الأبيات المتقدمة يلقى صورة غير متناسبة الخطوط والتراكيب ، فأي شكل هذا الذي اجتمعت فيه الأعضاء المتنافرة ، فالذقن منضغط إلى

---

(١) انظر دعبل بن على شاعر آل البيت ، للأشتر ٢١٣ ، وفن الهجاء وتطوره عند العرب ، إيلياحاوي ٤٩٠ .

(٢) شعر دعبل ١١٧ .

أعلى ، والرأس ناقص مبتور ، وفوقه يمتد أنف خرطومي طويل يتناقض في امتداده عكسيا مع الذقن الناقص ، أما الجبين فقد امتد فوق هذين عريضا واسعا كلوحة الميزان إنه وجه من هذه الوجوه التي يتحفنا بها الكاريكاتوريون على صفحات الصحف والمجلات في عصرنا الحديث ، ولكي تكتمل الصورة الدميمة المتخالفة نرى الشاعر قد ركب هذا الوجه فوق جسم ضئيل صغير لمخلوق لئيم ، فالصورة التي انتخب الشاعر أجزاءها وضمها إلى بعضها ، تتمثل فيها المبالغة ، وتعمد إلى تضخيم عضو وتضئيل آخر لحساب الصورة الممسوخة المنشودة (١) .

ويسخر ابن الرومي من خادمه « نجح » فيصور قبح وجهه ويشبهه بالقرد ، لأنه تعاطى مالا يصلح له ، فوقع في غرام من قلبها عنه لاهٍ ، ثم بأي شيء سيغري هذه الجارية ، أبذلك الوجه المتغير الشاحب المظلم الذي يشبه وجه القرد ، وجه ذو خدين قبيحين دميمين مشوهين بتلك الأغماش القذرة التي اختلف لونها مابين صفرة وسواد فكأنه سلح الذباب فوق شجر اللفاح ، هذا الوجه الدميم القبيح لا يصلح إلا أن يكون فزاعة توضع بين الزرع لتخيف الطيور وتطردها : (٢)

قل لنُجْح أخطأتَ باب النّجاح ... بل تعاطيْتَهُ بلا مفتاح

إن وَدّانَ لا تَودُّ خصيّاً ... فاصْحُ عنها فقلبُها عنك صَاحي

ليت شعري بما تظنُك تُصْبي ... قلب ودَّان ياكسيرَ الجناحِ

أَبوجْهٍ كأنه وجهُ قردٍ ... حَائِلُ اللونِ خامدُ المصباحِ

أَيُّ حِرْزٍ فيه من الطيرِ أنْ لَوْ ... جعلُوه فَزَّاعةً في قَراحِ

فيه خدَّانِ أَغْشَانِ بعيدا ... نِ لعمْري من حُمْرة التفاحِ

غُمْشَةٌ فوق صُفْرةٍ فتراه ... كَنَيم الذُّبابِ في اللقَّاحِ

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٦٣/٢ ، ٦٤ ، وانظر ديوان المعاني ٢٠٨/١ .

وقديما كان القِصَر المفرط مثيرا للسخرية والضحك ، خصوصا إذا ظهر من ذلك القصير حركات فيها خفة أو تطاول ، فإنه عندها يضع نفسه في صورة مضحكة ، وقد كثرت سخرية الشعراء بالقصر « وابن الرومي الذي يقف في القمة بين هؤلاء الشعراء الساخرين والذي أوتي كل أسباب النجاح والتفوق في الإفادة من اللحظة الحاسمة الدقيقة في التقاط الصور الساخرة التي قد تفوق الأصل المصور في قوة التعبير والأداء » (١) تناول القصر بالسخرية وكان بارعا في تناوله كعادته في كل سخرياته ، يقول ابن الرومي في قصير : (٢)

وقـصـيـرٍ تراهُ فـوق يَفَـاعٍ   فـتـراه كـأنه في غَـيَـابه

لم تدعْ قَـفْـدهُ يدُ الدهرِ حتى   قَـمَعتْ فـيه طُولَهُ وشَبَـابَهْ

وَجلتْ رأسَهُ نِعمّا فأضحـى   بارزَ الصّرحِ مايُواري صُؤابَهْ

ياأبا حـفصٍ الذي فَطِنَ الدهـ   ـرُ لميدان رأسـهِ فـاسـتطابَهْ

ظَرُفَ الدهرُ في اتخاذك صَفْعا   نَاً وماخلْتُـهُ ظريفَ الدُّعابَةْ

إنه تصوير بارع يظهر مقدرة ابن الرومي الإبداعية في هذه الصياغة التصويرية التي تلتقط صورة متحركة تضعها أمام الناظر صورة حية لهذا الإنسان الذي يصغر قصراً ويقل حجماً، ويختفي إنساناً ، على الرغم من اعتلائه سطح تل مرتفع ومع كل هذا فصاحبنا يبدو وكأنه في وهد عميق من الأرض ، وإذا كان في هذه الصورة مبالغة ومغالطة فإن الفن (الكاريكاتوري) قائم على المبالغة المتطرفة في انتخاب بعض الأعضاء في جسم المهجو أو بعض الصفات في نفسيته ، ثم إبرازها والتضخيم من شأنها إلى حد يلغي تناسب الصورة

(١) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦١ .

(٢) ديوان ابن الرومي ١/ ٣٨٩ .

لقد اتخذ الدهر من صاحبنا القصير هذا صفعانا ينزل فيه يده على الدوام حتى ضغط أعلاه في أسفله صفعا وقفدا ، وكان صلع هذا القصير يزيد الصورة تشويها وإثارة للضحك ، فأية صلعة مجلوة ممردة هذه التي تعلو رأسه فلا تجد فيه حشرة صغيرة تافهة شعرة واحدة تتوارى فيها ، لقد حرص الشاعر على أن يجمع لصورة هذا القصير بين العنصر الحركي والعنصر التصويري ليضفي عليها جانبا من التكامل والتناسق بين أجزائها ومكوناتها ، فالكاريكاتور في سخرية ابن الرومي يعبر عن تلك اللحظات التي كانت تسنح له فيمسخ الآخرين ويعبث بسحنهم ضاحكا مستخفا ، والنزعة الكاريكاتورية تصدر لديه عن موقفه العام المزري بالحياة وقيمتها ، إلا أنه لا يميز فيه بحقده ، بل يطرب ويلهو ويتعابث كالطفل أمام المشهد الغريب (١) .

وكان قصر بعض أعضاء الجسم مثيراً للسخرية أيضاً ، فقصر الرقبة أو الساقين أو قصر الأصابع إذا كان مفرطا بدا شكل صاحبه لافتا للنظر مغريا لخصومه بتناوله والسخرية منه .

وكان من عادة الشعراء في غزلهم أن يصفوا أصابع وأنامل النساء ، فيشبهوها بالمساويك ، والعنم ، والعناب ، والأساريع وهي دود أحمر يشبه الأصابع المخضوبة ويشبهوها بالبلح ، فإذا أرادوا ذمها والسخرية منها شبهوها بأشياء قبيحة ، انظر إلى هذا الساخر الذي أراد أن يضحك من قصر أنامل مغنية قبيحة تتعاطى الضرب على آلة العود فتحرك أناملها وتنقلها بين أوتاره ، يقول : (٢)

وترى أناملها دبت على أوتارها   كخنافس دبت على أوتار

---

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٢) علوم البلاغة ، للمراغي ٢١٦ .

فما هي هذه الأنامل التي تدب ! ولو أراد لقال تحركت ، فالدبيب من صفات الحشرات ، وهذا مراد الشاعر من هذه الكلمة ، ثم شبه حركة هذه الأنامل القصيرة الغليظة وهي تتنقل بين أوتار العود شبهها بخنافس تتحرك على أوتار ، صورة مزرية مضحكة لهذه الأنامل السوداء القبيحة التي تحركت على الأوتار كجمع من الخنافس السود تدب فوق الشجر .

وكان بعض العيوب الخلقية كالصلع ، والحدب ، والسمن ، صفات اتخذها الشعراء للسخرية من خصومهم الذين اتصفوا بإحدى هذه الصفات ، ولابن الرومي صورا بارعة في السخرية من أصلع وأحدب ، يظهرهم في مظهر تصويري كاريكاتوري مضحك « وكان صلع الرءوس من تلك العيوب التي لفتت نظر ابن الرومي فتناولها بريشته البارعة ، وقد كان يكره الصلع في الرءوس لأنه كرهه في رأسه ، ولهذا راح يخفيه عن العيون بلبس العمامة » (١) .

يقول ابن الرومي في صلعة أبي حفص : (٢)

ياصلعةً لأبي حفص ممردةً   كأن ساحتها مرآةُ فولاذِ

ترنُّ تحت الأكفِ الواقعاتِ بها   حتى تَرنَّ لها أكنافُ بغدادِ

كمْ من غناءٍ سمعْنا في جوانبها   من حاذقٍ بلحُون الصفعِ أُسْتاذِ

إنه تصوير هازئ متعابث ، فصلعة ذلك المسكين أشبه بساحة أو مرآة من الفولاذ صلعة ملساء يباب ، تشخص أمامنا واسعة محمرة لامعة ، كمرآة فولاذ تملأ أرجاء بغداد

---

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٦٢ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٢/ ٣١١ .

رنيناً ودوياً حين تتولاها الأكف بالضرب والصفع ، وواضح أن لفظة « ممردة » تقف وراء هذه الدقة في تصوير هذه الصلعة ، وأن لفظة « ترن » تحقق الجانب الصوتي لهذه الصورة البارعة . وهذا الوصف ينطوي على سخرية ضاحكة مقهقهة ، خلع فيه ابن الرومي وجه النقمة والعبوس (١)

ويصور لنا ابن الرومي الأحدب في صورة تجمع بين الدقة في التصوير ، والمبالغة والتضخيم والإضحاك ، اعتمد فيه على التشبيه في رسم صورة مضحكة ، وصورته هذه التي رسمها للأحدب لا تثير الضحك فحسب بل تثير في قارئها الإعجاب بالاحتيال الذي مارسه الشاعر على المعنى بمثل هذه الدقة واللفتة العميقة والتنبه الواعي لمثارات الضحك يقول ابن الرومي : (٢)

قصُرتْ أخادعُه وطال قَذَالُه   فكـــأنه متربصٌ أن يُصْفعا
وكـأنما صُـفـعتْ قـفـاهُ مـرةً   وأحسَّ ثانيـةً لهـا فـتـجـمَّـعا

هذه لوحة فنان وريشة رسام ، بل صورة شاعر مفطور على تتبع مواطن النقص والقبح ، تجعل القارئ يقف أمام هذه الصورة متخيلاً هذا الاحدوداب المتجمع خوف الصفع ، وليس هناك من صفع في الحقيقة ، ولكنها مشيئة الشاعر التي رأت أن تعلل لهذا الأحدب ، فتشبهه بمن يقصر قذاله لئلا تتساقط على رقبته الصفعات ، إنها براعة لا نظير لها في وصف الشكل والحركة ، ولا في تضمينهما هيئة السخر التي عمل فيها الشاعر عمله المركب ليتم فيها نصيب العين والضحك والخيال ، فصورة الرجل وهو يتهيأ لأن

---

(١) انظر ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ٦٣ ، ٦٤ ، واتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٦٢ .

(٢) ديوان ابن الرومي ، كامل كيلاني ١/ ١٤٦ .

يصفع ثم يتجمع ليتقي الصفعة الثانية هي صورة الأحدب بنصها وفصها ، لا يعوزها الإتقان الحسي ولا الحركة المهينة ولا الهيئة المزرية ولا التأمل الطويل في ضم أجزاء الصورة بعضها إلى بعض حتى يتفق التشبيه هذا الإتفاق (١) .

والأنف أعلى ما في الوجه وأعز ، لذلك كان وصفه بالرفعة والشمم تكريما له ، ووصفه بالجدع والوسم والفطس ذلة ومهانة له ، وقد عرف الشعراء الساخرون للأنف هذه المكانة ، فكان حظ الأنوف من السخرية كبيرا ، وكان هذا الشذوذ في الخلقة مادة لسخرية الشعراء وفي مقدمتهم ابن الرومي ، ولعل قصيدته في ذلك الرجل الذي يسمى (دبس) والتي مرت معنا في حديثنا عن التشبيه الكاريكاتوري ، لعل تلك القصيدة تمثل صورة طريفة من الصور التي سخرت من الأنوف الضخمة ، وكان التصوير والتشبيه هو الأسلوب الذي اعتمده الشاعر في تشويه ذلك الأنف وإظهاره في مظهر مضحك ، ولابن الرومي كذلك في عمرو النصراني صورة ساخرة رسمها من خلال هذه الأبيات : (٢)

ياعمرو فخراً فقد أُعطيتَ منزلةً ... ليست لقسٍ ولا كانت لشمّاسِ

للناس فيل إمامَ الناس مالكُه ... وأنت ياعمرو فيلُ الله لا الناسِ

عليك خُرطوم صدقٍ لا فُجعتَ به ... فإنه آلةٌ للجودِ والبَاسِ

لو شئتَ كسباً به صادفتَ مُكتسَباً ... أو انتصاراً مضى كالسيف والفاسِ

من ذا يقومُ لخرطومٍ حُبيتَ به ... إذا ضربتَ به قِرْناً على الراسِ

---

(١) انظر ابن الرومي حياته من شعره ١١٦ ، والسخرية في أدب المازني ٥٠ ، واتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤١٥ ، ٤١٦ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٣/ ٣٠٢ .

أو من يراهُ فـلا يُعْطيك خِلْعَتَـــه لاتكذبن فـمـا بالـصـدق من باس

حـملتَ أنفـاً يراه الناسُ كلهُــــم من رأسِ مـيلٍ عـيـاناً لا بمقـيـاس

يوحي ابن الرومي لقارئه في مطلع هذه الأبيات أنه يمدح عمراً هذا أبلغ المديح ، ويدعو شاعرنا عمراً لأن يفخر بنفسه وما بلغه من مقام رفيع ، لايدانيه مقام قس بن ساعدة الإيادي ولا شماس ممدوح الحطيئة ، ولكن القارئ يفاجأ فتضحكه المفاجأة بأن الشاعر يسخر من عمرو أشد السخرية ، فيشبهه بالفيل ، ويصوره فيلاً ضخماً كأكبر مايكون الفيل ، ويشبه أنفه بخرطوم فيل كبير مخيف يرهب الآخرين فيجودون له اتقاء غضبه وثورته ، وقد بلغ ابن الرومي في هذا الجزء من صورة المهجو عمقاً كبيراً في السخرية في عبارة « لا فجعت به » وكأن هذا الخرطوم شيء عزيز نفيس يدعو الشاعر له - متهكما - بطول البقاء والسلامة ، فهذا الأنف - الخرطوم - مصدر عطاء ومظهر قوة ولضخامته وكبره فإن الناس يبصرونه من بعد بعيد (١) .

والسمع أحد الحواس المهمة في الإنسان ، وهو من أكبر منافذ العقل ، فالأصم ليس إلا حجراً أصم ، أما العمى فلم يقعد بصاحبه يوما عن بلوغ مراتب النبوغ والعبقرية ويدل على قيمة السمع قوله تعالى : **﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون ﴾**(٢) .

فإنها تفيد أن الصمم مرتبط بالعقل ، والعمى مرتبط بالبصر ، وقد فضل السمع على البصر ؛ لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل ، ومع العمى فقدان النظر فقط . ويدين

---

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦٣ .

(٢) الآيتان (٤٢ ، ٤٣) من سورة يونس .

السمع بأرفع مزاياه الجمالية إلى الصوت ؛ لأنه خير وسيلة للتفاهم بين الكائنات الحية وبذلك اكتسب قيمته الاجتماعية ، وأجمل ما في الصوت أنه تعبير في جوهره فيه نقاسم الآخرين أفراحهم وآلامهم بوجه خاص ، ونستطيع بواسطة السمع أن نميز تلك الأصوات فالأصوات القاسية البحاء تذكرنا بصوت الإنسان في حالة الغضب ، والأصوات الرخيمة توقظ فينا معاني العطف والحب (١) .

والصوت إذا كان خشنا مرتفعاً آذى الأسماع وجرح المشاعر ، لذلك أمر الله بغض الصوت وعاب الأصوات المنكرة ، فقال على لسان لقمان يوصي ابنه : ﴿ **واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾(٢) .

وكان للشعراء حس خاص في تمييز الأصوات واستحسانها أو استهجانها والأصوات مثل أي شيء في الحياة لم يتركه الشعراء إلا ورموه بسهام النقد «فقد كان للمغنين والمغنيات نصيبهم الكبير من سخرية هؤلاء الشعراء وتهكمهم، وربما دفعهم إلى ذلك طلبهم للجمال والكمال في أصواتهم وصورهم، وقد ذم الشعراء في المغنيين خشونة الصوت واضطرابه ، ونشاز النغم ، وثقل اللسان ، والجهد في الأداء ؛ لأن ذلك يثير سأم السامع وضجره ويملؤه مللاً وضيقاً » (٣) ولابن الرومي هجاء كثير وسخرية بالغة من أولئك الذين يتعاطون الغناء ومن أبرع ماقاله في السخرية من المغنيين والتهكم بهم ، ماقاله في مغن يدعى « أبوسليمان الطنبوري » فهذا المغني لايحسن الغناء ولايجيد الأداء ، وصوته أبعد مايكون عن الشجو والعذوبة ، إنه صوت يفتقر إلى وحدة التنغيم واتساقه، إذ يرتفع مرة ويغور أخرى ، فهو كالكلب في عوائه القبيح وكالقرد

---

(١) انظر فن التشبيه ٢/ ٤٦ – ٤٨ .

(٢) بعض الآية (١٩) من سورة لقمان .

(٣) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ١٢١ ، ١٢٢ .

في شكله الكريه ، وأما فكاه عند الأداء فكأنهما فكا بغل طحان يتنغم ويستكبر بأنغامه (١) يقول ابن الرومي : (٢)

أبو سليمانَ لاتُرضى طريقتُه لا في غناءٍ ولا تعليم ِصبيانِ

له إذا جاوبَ الطنبورَ محتفلاً صوتٌ بمصرَ وضربٌ في خراسانِ

عُواءُ كلبٍ على أوتار مندفَةٍ في قُبح قردٍ وفي استكبارِ هامانِ

وتحسبُ العينُ فكَّيْهِ إذا اختلفا عند التَّنغم ِفكَّي بغلِ طحانِ

اعتمد الشاعر في هذه السخرية على التشبيه والتصوير والأسلوب التأليفي الذي يولد الغلو من جمع معان عديدة في معنى واحد ، فهو يشبه ضربه على الطنبور بعواء الكلب الممتزج بأصوات أوتار المندفة مجتمعين في قبح القرد واستكبار هامان ، وهذه المظاهر تتضافر جميعا لتصور معنى واحدا ، هو معنى القبح الراني على وجهه المنبعث من صوت طنبوره .

وهذه الصورة الساخرة لذلك المغني تمت بذلك التشبيه المضحك « بفكي بغل طحان » ، لأن السخرية لن تستوفى في هذا التشبيه إلا إذا تمثلنا في موقف الغناء بغلا من بغال الطحانين العجاف الجياع يتنغم ويستكبر بأنغامه استكبار هامان ، ولو كان بغلا من البغال الفارهة المترفة لنقصت الصورة وفترت فيها قوة السخرية وقوة التشبيه (٣) .

ويسخر ابن الرومي من صوت مغن آخر ، فيصور لنا مصدر هذا الصوت تصويراً

---

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ١٢٤ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٦/ ٢٨٨ .

(٣) انظر ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ١٦٢ ، واتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ١٢٤ ، وابن الرومي حياته من شعره ١٢٠ .

مضحكا ، يقول ابن الرومي : (١)

وكأن جرذان المحلة كلها ... في حلقة يقرضن خبزا يابسا

أي خيال هذا الذي هدى شاعرنا إلى هذه الصورة ، وأي حس هذا الذي أوحى له بهذا التشبيه ، إنها الروح الضاحكة الساخرة العابثة التي عرف بها ابن الرومي ، لقد صور لنا مصدر هذا الصوت وكأننا نحسه يتردد في أسماعنا ، صوت قرض الخبز اليابس اجتمعت عليه كل فئران المحلة ، ولاحظ اختياره للكلمات المعبرة الموحية « كلها » فلم يتخلف من جرذان المحلة أحد ، ثم « في حلقه » أي في منبع الصوت ومصدره وهذا أبلغ في السخرية ، و « يابسا » ولو كان طريا أو لينا لهان الأمر ، إنه عبث ابن الرومي بما أراد .

ولابن الرومي في أبي سليمان أيضا مقطوعة أخرى يهزأ فيها منه ومن غنائه ، فيقول : (٢)

ومُسمعٍ لاعدمتُ فُرقَتَه ... فإنها نعمةٌ من النعمِ
يطولُ يومي ، إذا قُرِنْتُ به ... كأنني صائمٌ ، ولم أَصُمِ
يفتحُ فاهُ من الجهاد كما ... يفتح فاهُ لأعظمِ اللُّقَمِ
مجلسه مأتمُ اللّذاذاتِ والقَصْـ ... ـفِ ، وعُرسُ الهُمومِ والسَّدمِ
كأنني طولَ ما أُشاهده ... أشربُ كأسي ممزوجةً بدمي
يسودُّ من قُبح مايجيء به ... حتى كأنْ قد أُسِفَّ بالفحمِ
نبْرتُه غُصّةٌ ، وهِزَّتُهُ ... مثلُ نَبيبِ التيوسِ في الغنمِ
يُفزّعُ الصبيةُ الصغار به ... إذا بكى بعضهم ، ولمْ ينمِ

(١) ديوان ابن الرومي ٣/ ٣٢٧ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٦/ ٨ - ١٠ .

يبدأ ابن الرومي سخريته وكأنه يمدح هذا المغني ، فيتمنى ألا يفارقه ؛ لأن ملازمته نعمة من النعم ، ثم يلتفت إليه فيلتقط له صورة مضحكة ، إنه يفغر فمه من الجهد والتعسر كأنه يود أن يبتلع أعظم اللقم ، فهو يأكل ولا يغني ، ثم هو ثقيل الظل يكرب النفس ، إذا تحرك مع لحنه وأدائه تحرك بحدة وارتباك كتيس يرفع صوته هائجا ثائرا ، وهو بغنائه يكدر جلستهم ويحول حلاوة كئوسهم مرارة وطيب شرابهم صابا ، ثم يصور لنا ملامح الجهد والتكلف التي تظهر على وجه هذا المغنى إذ يتجحظ وينقطع نفسه ، ويعروه سواد الاختناق الشبيه بسواد الفحم ، إنها صورة مضحكة لمغن يطمع في رضى مستمعيه (١) .

والشم أحد الحواس التي قدرها العرب حق قدرها ، فكان لشم الأشياء المحببة عندهم نشوة لا تعادلها نشوة ، وقد شبهوا الرائحة الحسنة بالأترجه ، والمسك ، والطيب وفأرة المسك ، والعنبر والقرنفل ، والزعفران ، والند ، والرند ، وإذا ما أرادوا أن يذموا أو يسخروا شبهوا بالروائح الكريهة المنتنه ، وكان هذا بابا من التشبيه كثر طرق الشعراء له وفطنوا إليه ، فاستعملوه في شعرهم وفي هجائهم وسخريتهم على وجه الخصوص(٢) .

ومن ذلك قول أبي الشمقمق الشاعر الساخر يهجو داود بن بكر - وكان والياً للأهواز وفارس - فيسخر من رائحته ومن هيئته ، يقول أبو الشمقمق : (٣)

---

(١) انظر ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره ١٦٢ ، ١٦٣ ، واتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ١٢٢ .

(٢) انظر فن التشبيه ٢/ ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) الكامل ٣/ ٥١ .

ولـــه لحـــيـــــةُ تيسٍ   وله منقـــارُ نســـرِ
ولـــه نكْهـــةُ ليـــثٍ   خـالطتْ نكهـةَ صـقـرِ

فلحيته كلحية تيس ، وله فم كمنقار النسر ، أما رائحته فإنها تشبه رائحة ليث خالطتها نكهة صقر ، وليس في ذلك فخر ، بل فيه سخر ، إذ أن أنتن الحيوانات رائحة هو الأسد فالبخر صفة ملازمة له ، كما أن أنتن الطيور رائحة هو الصقر ، وقد جمع أبو الشمقمق لمهجوه النكهتين .

ومن السخرية بالرائحة هذه الصورة المضحكة التي يرسمها لنا ابن شهيد الأندلسي لهذا الأحمق الذي يتعاطى الكتابة وهو لا يحسنها ، يقول ابن شهيد : (١)

وَيْحَ الكتابةِ من شيخٍ هبنَّقةٍ   يلقى العيونَ برأسٍ مُخُهُ رارُ
ومُنْتِنُ الريحِ إن ناجيتَه أبدا   كأنما مات في خيْشُومه فارُ

يصور لنا ابن شهيد مهجوه هذا وكأنه أحد الدراويش الذين خفت عقولهم فأظهره أحمق في تصرفاته وساذجا في هيئته ، قذر الثياب منتن الريح ، تنبعث منه رائحة كريهة فكأنما مات فأر في أنفه فلا يخرج منه إلا خبيث الريح .

وأجود الهجاء والسخر أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض ، وهو كما عند بعض النقاد أجود من الهجاء بالعيوب الجسمية (٢) .

ويقصد بالعيوب الخلقية والنفسية تلك العيوب « التي لا تساير المثل العالية للمجتمع ، ولا توافق العرف العام ، كالبخل ، والجبن ، والثقل ، والخرق ، والتطفل

---

(١) ديوان ابن شهيد ، يعقوب زكي ١٦٠ .

(٢) انظر نقد الشعر ١٩٢ ، والعمدة ٢/ ٨٥٢ ، وكفاية الطالب ٨٢.

وغيرها من العيوب ، وهي كما يبدو عيوب شخصية لا يتعدى ضررها صاحبها إلا في النادر ، وليس ضررها خطيراً أو مباشراً ولذلك لم تشرع لها عقوبات ، ولكنها تركت للمجتمع يعالجها بوسائله الخاصة »(١) ومن هذه الوسائل تلك السياط الملهبة التي كان يسلطها الشعراء بسخرياتهم على أصحاب هذه العيوب ، وجعلوا من التشبيه والتصوير الساخر مطية يحققون بها بعض ما في نفوسهم .

وكان أكثر تلك العيوب النفسية حظاً من السخرية البخل والبخلاء ، والبخل مذموم دائما « وكان على رأس الذين سخروا من البخلاء الجاحظ ، الذي ألف فيهم كتابا جمع فيه نوادرهم وأخبارهم ، مصورا لحالهم ومجسما مظاهر السلبية وانحراف الطبع فيهم » (٢) .

ومن سخريات الشعراء بالبخلاء قول أبي نواس يسخر من بخل رجل يقال له إسماعيل : (٣)

على خبزِ إسماعيلَ واقيةُ البخلِ	فقد حلَّ في دارِ الأمانِ مِنَ الأكلِ
وما خبزُهُ إلا كآوَىٰ يُرَىٰ ابنُه	ولم يُرَ آوىٰ في حُزُونٍ ولا سَهْلِ
وما خبزُه إلا كعنقاءَ مغرب	تُصوَّرُ في بُسْطِ الملوكِ وفي المثل
يحدث عنها الناس من غير رؤية	سوى صورة ما إن تمر ولا تحلي
وما خبزه إلا كليب بن وائل	ومن كان يحمي عزه منبت البقل
وإذ هو لا يستب خصمان عنده	ولا الصوت مرفوع بجد ولا هزل
فإن خبز إسماعيل حل به الذي	أصاب كليبا لم يكن ذاك من ذل
ولكن قضاء ليس يستطاع رده	بحيلة ذي مكر ، ولا فكر ذي عقل

---

(١) انظر السخرية في أدب المازني ٥٣ .

(٢) المرجع السابق ٥٥ .

(٣) ديوان أبي نواس ٥١٥ .

ماهذا الخبز الذي قد أحصن حتى لا تصل إليه الأيدي ، فأمن من الأكل ، إنه خبز اللئام خبز لا يرى إلا في الأحلام ، ويحدث عنه في الأساطير فهو بعيد المنال ، له حرمة وحمى كحمى السادة الأعزة ، كحمى كليب بن وائل الذي كان يحمي الفلوات ، ويهابه الناس فلا يختصمون في مجلسه فغدر به الزمان فقتل ، وخبز اسماعيل أشبه بهذا السيد في كل أحواله ، وقد غالته الغوائل قضاء لا يستطاع رده مهما احتال اسماعيل له ، تشبيه ساخر من هذا الحفظ وتلك الصيانة لذلك الخبز الذي أصبح له حمى وحرمة ، كحرمة وحمى السادة العظام .

ومن ذلك قول ابن الرومي يسخر من بخيل ، فيرسم ليده صورة عجيبة ! يشبهها بالقفل الذي لا يفتح ، ولك أن تتخيل رجلاً بيد مخلوقه خلقة القفل ، ما أعجبها من صورة توصلت إليها هذه الروح الساخره التي عرف بها ابن الرومي : (١)

غَدَوْنا إلى ميمونَ نطلبُ حاجةً ... فأوْسَعَنا منعًا وجيزاً بلا مَطْلِ

وقال:اعذُرُوني إنَّ بُخلي جِبِلَّةٌ ... وإنّ يدي مخلوقةٌ خلقةَ القُفْلِ

طبيعةُ بخلٍ أَكَّدتْها خليقةٌ ... تخلَّقتُها خوفَ احتياجي إلى مثلي

فألقى إلينا عِذرةً لا نرُدُّها ... وكان مُلقًّى حجةَ اللؤمِ والبخلِ

وسخروا من الجبان وعيروه بجبنه ، واعتمدوا في ذلك على أساليب بيانية شتى كان التشبيه الساخر أهمها وأشهرها ، فشبهوا الجبان بالنعام ، والصفرد ، وهي طيور شديدة الخوف والحذر ، وشبهوه بالنعجة .

---

(١) ديوان ابن الرومي ٥/ ١٣٤ .

فمن ذلك قول عمران بن حطان للحجاج بن يوسف في هجائه له وسخريته به : (١)

أسد علي وفي الحروب نعامة   فتخاء تنفر من صفير الصافر

ومن ذلك قول الشاعر يسخر من آخر : (٢)

تراه كالليث لدى أمنه   وفي الوغى أجبن من صفرد

وقول دعبل يهجو رجلا : (٣)

كأنه كبش إذا ما بدا   لكنه في طبعه نعجة

وقول الآخر يهجو رجلاً : (٤)

نفرجة ينفر من ظل الشجر   فؤاده أنثى وضرسه ذكر

نفرجة : جبان يخاف من أدنى حركة ، فظل الشجر واهتزاز الأغصان تخيفه ، فإن قلبه كقلب الأنثى ، أما إن قرب الزاد فأبشر بالفحولة والرجولة !

وسخروا من السماجة وثقل الظل والخرق والتطفل ، وكلها عيوب تنفر الناس ممن اتصف بها ، وتجعله ثقيلا على قلوب الناس ونفوسهم ، عرضة لسخرياتهم . وكتب الأدب مليئة بحكايات هؤلاء القوم ، يقول أبو الشمقمق(*) يسخر من شخص اتصف بالسماجة : (٥)

---

(١) تفسير الكشاف ١/ ٤٠ .

(٢) مجمع الأمثال ١/ ٣٢٩ .

(٣) شعر دعبل ٨٧ .

(٤) ديوان المعاني ١/ ١٩٦ .

(*) مروان بن محمد مولى مروان آخر خلفاء بني أمية ، شاعر هزلي توفى سنة ٢٠٥ هـ . تاريخ بغداد ١٣/ ١٤٦ .

(٥) أبو الشمقمق شاعر الفقر والسخرية ، د. محمد الشويعر ٩٨ .

أسمج الناس جميعا كلهـــم   كذباب ســـاقط في مرقـــة

ويقول ابن الرومي في ثقيل بارد : (١)

يا أبا القاسم الذي ليـس يـدري   أرصاص كيانه أم حـــديد

أنت عندي كماء بئرك في الصيـ   ـف ثقيل يعلـوه برد شـديد

ويسخر دعبل من ثقل امرأة قبيحة ، ويصف وقع كلامها على نفسه ، فيشبه شدة وقع حديثها عليه بألم خلع الضرس أو نتف الشارب ، أما دلالها فكهشم الأنف ، وأما ضحكها فإنه أثقل على نفسه من جبال طي وأهرامات مصر ، يقول : (٢)

حـديث كـقلع الضرس أو نتف شـارب   وغنج كـحطم الأنف عـيل به صبـري

وتفـتر عن قلـــح عدمـــت حديثهـــا   وعن جبلي (طي) وعن هرمي (مصر)

ويسخر كذلك من أحمق خرق، فيقول : (٣)

خـرق على جلسـائه فكأنهـم   حـضـروا لملحـمـة ويوم جـلاد

يسطو على كـتـابه بدواتـه   فـمـرمل ، ومـضـمخ بمداد

فكأنه من دير هزقل مـفلــت   حــرد يجـر سـلاسل الأقيـاد

مازال حتى صوره مجنونا فارا من مصحة يجرجر خلفه سلاسل الأقياد .

ومما تقدم يتبين لنا أهمية الصورة الفنية في إثارة انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه فتدهشنا وتنال إعجابنا بطريقتها في عرضه ، فالصورة وسيلة يقدم الشاعر الفنان عن

---

(١) ديوان ابن الرومي ٢/ ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) شعر دعبل ١١٤ .

(٣) شعر دعبل ٩٩ ، ١٠٠ .

طريقها معانيه وأفكاره ليضمن لها الوضوح وقوة التأثير في المتلقين ، فهي تضفي على هذه المعاني والأفكار المجردة روحا وحياة وقوة دلالة ، يستطيع الشاعر من خلالها نقل انفعالاته وإحساساته وتصوراته في سخطه ورضاه ، وفي جده وسخره ، وفي فحشه وعفته (١) .

وتبين أيضا أن التشبيه أحد الفنون البيانية العظيمة التي دارت في القرآن الكريم وتوسع فيها الشعراء ، فوسع معانيهم وألفاظهم وكان أسلوبا جذابا للتعبير عن تلك المعاني ، ومن هذه المعاني التي أبدع التشبيه في إظهارها وكان أسلوبا جميلا ومؤثرا في إبرازها السخرية ، سواء كانت سخرية « كاريكاتورية » تصويرية ، أو كانت تصويراً حسياً لأشكال ومواقف ساخرة ، فقد تبين من خلال الأمثلة الكثيرة والتحليل أن التشبيه الساخر أسلوب بياني واسع يفي بمعاني الشعراء وغيرهم ، فلذلك نراهم قد أكثروا من استعماله .

---

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤١٦ .

الاستعارة الساخرة

يقسم البلاغيون الاستعارة إلى عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، فيقسمونها باعتبار الطرفين ، وباعتبار الجامع ، وباعتبار الثلاثة ، وباعتبار أمر خارج عن ذلك كله .

وهي تنقسم باعتبار الطرفين إلى قسمين ، لأن اجتماع هذين الطرفين في شيء إما ممكن فهي وفاقية ، أو ممتنع فهي حينئذ تسمى عنادية . ومن العنادية ماااستعمل في ضد معناه أو نقيضه بتنزيل التضاد أو التناقض منزلة التناسب بواسطة تهكم أو تمليح (١) .

ومن أوائل من أشار إلى مثل هذا الأسلوب « الفراء » في تعليقه على قوله تعالى : ﴿ **فأثبكم غما بغم** ﴾(٢) يقول : « الإثابة ههنا في معنى عقاب ، ولكنه كما قال الشاعر :

أخافُ زياداً أن يكونَ عطاؤُه ... أداهِمَ سوداً أو مُحدْرَجَةً سُمْرا

وقد يقول الرجل الذي اجترم إليك : « لئن أتيتني لأثيبنك ثوابك » معناه لأعاقبنك وربما أنكره من لايعرف مذاهب العربية ، وقد قال الله تبارك وتعالى ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾(٣) والبشارة إنما تكون في الخير ، فقد قيل ذلك في الشر » (٤) .

وابن فارس جعل أمثلته تحت « مايجري من كلامهم مجرى التهكم والهزء » وقد أتى بالأمثلة ولم يعلق عليها ، يقول : (٥)

---

(١) بغية الإيضاح ٣/ ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) بعض الآية (١٥٣) من سورة آل عمران .

(٣) بعض الآية (٢١) من سورة آل عمران ، والتوبة (٣٤) .

(٤) معاني القرآن ١/ ٢٣٩ .

(٥) الصاحبي ٤٢٩ .

(يقولون للرجل يستجهل « ياعاقل » . ويقول شاعرهم :

فقلتُ لسيدنا : ياحليـــمُ إنكَ تأسُ أسْوا رفيقا

ومن الباب « أتاني فقريته جفاء وأعطيته حرمانا »

ومنه قوله :

ولم يكونوا كأقوام علمتُهُمُ يَقْرُون ضيفَهمُ الملوِّيَةَ الجُدُدا

يعني (السياط) .

ويقول الفرزدق :

قريناهُمُ المأثورَةَ البيضَ قبلها يَثجُّ العروقَ الأَزْأَنيُّ المثقَّفُ

الأزأني المثقف ، الرمح المنسوب إلى ذي يزن .

وقال عمرو بن كلثوم :

قَرَيْنَاكُمْ فعجَّلنا قِراكمْ قُبيل الصُّبح مِرْداةً طَحونا

ومن الباب حكاية عنهم : **﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾**(١))

أما (الزمخشري) فيجعل هذا الأسلوب من العكس في الكلام ، ويقف عند أمثلته القرآنية معلقا ، فيقول في قوله تعالى **﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾** : (٢)

« وأما « فبشرهم بعذاب أليم » فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه ، كما يقول الرجل لعدوه « أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك » ومنه : « فأعتبوا بالصيلم ») (٣) .

---

(١) الآية (٨٧) من سورة هود .

(٢) الآية (٢١) من سورة آل عمران .

(٣) تفسير الكشاف ١/ ٥١ .

ويقول في قوله تعالى ﴿ **وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾(١) :

« والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع ، وقد جاء في كتاب الله في مواضع ، منها « فبشرهم بعذاب أليم » « إنك لأنت الحليم الرشيد » وقد يوجد كثيراً في كلام العجم » (٢) .

أما الزركشي فيجعله أحد وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن الكريم فيقول : «الثاني عشر ، خطاب التهكم ، وهو الاستهزاء بالمخاطب ، مأخوذ من « تهكم البئر » إذا تهدم، كقوله تعالى ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾(٣) وهو خطاب لأبي جهل ؛ لأنه قال : مابين جبليها - يعني مكة - أعز ولا أكرم مني . وقال تعالى : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ (٤) جعل العذاب مبشرا به وقوله : ﴿ **هذا نزلهم يوم الدين** ﴾(٥) والنزل لغة : هو الذي يقدم للنازل تكرمة له قبل حضور الضيافة) (٦) .

يتضح مما مضى أن نسبة هذا الأسلوب إلى الاستعارة أمر ليس مسلماً به ، فالفراء لم يقل إنه استعارة ، وابن فارس كذلك ، أما الزمخشري فجعله من العكس في الكلام والزركشي يجعله من وجوه الخطاب في القرآن ، والرأي الذي عليه أكثر المتأخرين كالسكاكي والقزويني وشراح التلخيص وغيرهم على أنه استعارة (٧) .

---

(١) الآية (٦) من سورة الحجر .

(٢) تفسير الكشاف ٢/ ٣١٠ .

(٣) الآية (٤٩) من سورة الدخان .

(٤) الآية (٣٤) من سورة التوبة .

(٥) الآية (٥٦) من سورة الواقعة .

(٦) انظر البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢١٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٧) انظر مفتاح العلوم ٣٧٥ ، وشروح التلخيص ٤/ ٧٨ .

وقد سهل على المتأخرين أن يعتبروا بعض صور هذا الأسلوب من الاستعارة العنادية ، وصعب عليهم أن يجدوا لبعضها وجها من وجوه البيان ، إذ استعصى التشبيه والاستعارة على مثل ﴿ فأعتبوا بالصيلم ﴾ ، وقال الشهاب في هذا النوع الذي صعب عليهم تكلف التشبيه والاستعارة فيه « وفيه تسكب العبرات » إشارة إلى صعوبة تخريجه واختلاف آراء القوم فيه(١) .

ومن الباحثين من يرى أن هذا الأسلوب لاعلاقة له بالاستعارة ؛ لأن العلاقة في الاستعارة هي المشابهة بين المستعار له والمستعار منه ، ويجعله من المجاز المرسل الذي تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هي الضدية (٢) .

والذين يقولون بالاستعارة العنادية يذكرون في التشبيه أن الشبه قد ينتزع من التضاد ، نظرا لاشتراك الضدين من حيث اتصاف كل واحد منهما بمضادة صاحبه ، ثم ينزل منزلة شبه التبادل بوساطة تمليح أو تهكم ، فيقال للجبان : ما أشبهه بالأسد ، وللبخيل : إنه حاتم ثان . ويبنون على هذا القول في الاستعارة ، أي استعارة اسم أحد الضدين أو النقيضين للآخر ، بوساطة انتزاع شبه التضاد وإلحاقه بشبه التناسب بطريق التهكم أو التمليح بادعاء أن أحدهما من جنس الآخر والإفراد بالذكر ونصب القرينة كقولك « إن فلانا تواترت عليه البشارات بقتله ونهب أمواله وسبي أولاده » ويسمون هذا استعارة تهكمية(٣) .

ويظهر أن طريقة الزمخشري في تناول هذا الأسلوب وجعله من العكس في الكلام ، دون إدخاله ضمن الاستعارة أو المجاز المرسل مما قد يضطرنا إلى تكلف

(١) انظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥١٠ .

(٢) انظر علم البيان ، د. طبانه ١٩٢ .

(٣) انظر مفتاح العلوم ص ٣٧٥ ، وفن الاستعارة ، دراسة تحليلية في البلاغة العربية مع التطبيق على الأدب الجاهلي ، د . أحمد الصاوي ٥٨ .

الاستعارة أو العلاقة المجازية ، يظهر أن طريقته هذه أفضل وأسلم ، وهي عده هذا النوع لونا أسوبيا يعكس فيه الكلام شائع عند العرب وغيرهم ، وهو مذهب واسع يشمل الاستعارة والمجاز وغيرهما . وهذا الرأي قد سبق إليه الإمام الشهاب الخفاجي وذكره بعض الباحثين المحققين وهو فيما يبدو رأي وجيه (١) .

وجاء هذا الأسلوب في القرآن في عدة مواضع ، يسخر القرآن من أولئك المعاندين الذين يكذبون بايات الله ، أو يحكي سخريتهم برسلهم وأنبيائهم ، كفعل قوم شعيب – عليه السلام – في سخريتهم برسولهم ، يحكي الله عز وجل سخريتهم هذه في قوله :

﴿ قالوا يشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك مايعبد ءاباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشؤا إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾(٢) .

السياق من أوله استفهام ساخر متهكم حيث ساقوا الكلام مساق الطنز ، وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته ، وأما قولهم « إنك لأنت الحليم الرشيد » فهو تهكم بعد تهكم حيث نسبوه إلى غاية السفه والغي ، فوصفوه بهذين الوصفين الجليلين على طريقة الاستعارة التهكمية ، فالمراد بهما ضد معناهما ، وهذا الرأي روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة ، والمبرد .

والزمخشري يجعله من العكس في الكلام بقصد التهكم والسخرية كما يتهكم بالشحيح فيقال له « لو أبصرك حاتم لسجد لك ! » فهذا كله عكس للكلام ، وإن وصفه

---

(١) انظر حاشية الشهاب ٢/ ٦٠ ، ٦١ ، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥٠٩ .

(٢) الآية (٨٧) من سورة هود .

بالحليم الرشيد يحتمل أنك المتصف بالحلم والرشد فما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به ، ولكن هذا وجه مرجوح لأن الوجه الأول وهو القول بأنه تهكم يناسب ماقبله لأنه تهكم أيضا ، فالسياق كله تهكم وسخرية (١) .

ويرد القرآن على الكافرين الهازئين هزءهم وسخريتهم ، فيواجههم بنفس سلاحهم ، فيسخر منهم كما يسخرون هم من المؤمنين ، وعلى نفس طريقتهم السابقة في السخر يأتي السياق القرآني ليصب السخرية الأليمة على أحد هؤلاء الهازئين المعاندين يقول الله عز وجل في أبي جهل . حينما قال للنبي ﷺ : « ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، لقد علمت أنني أمنع أهل بطحاء وأنا العزيز الكريم ، فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته» (٢) يقول الله تعالى : **﴿إن شجرت الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون ، كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾** (٣) ، وقوله تعالى « إنك أنت العزيز الكريم » أمر من الله عز وجل للملائكة بأن يقولوا له ذلك وهو في العذاب إذلالاً له وتعييراً له على كلمته ، وهذا كله على سبيل الهزء والتهكم ، ونلاحظ أن سخرية القرآن تسلم له بأنه ليس مجرد عزيز كريم بين قومه وأتباعه وإنما هو صاحب العزة التي تنفرد بذاتها لا تساويها ولا تنافسها عزة أخرى ، فإن قوله تعالى « إنك أنت العزيز الكريم » فيه تأكيد بلفظ (إن) ، وفيه قصران ، أحدهما يبدأ بلفظ (أنت) والآخر هو الألف واللام ، وكلا القصرين يفيد أنه منفرد في المجتمع بالعزة

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٢/ ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، وروح المعاني ١٢/ ١١٨ .

(٢) روح المعاني ٢٥/ ١٣٤ .

(٣) الآيات (٤٣ – ٥٠) من سورة الدخان .

والكرم ، وأنه لا منازع له فيهما ، وما ذلك إلا حكاية لمقولته من باب السخرية والتهكم(١) .

تحتوي سخرية القرآن على ألفاظ حين نتأملها ونحاول تذوقها نجد أنها توحي بمعان ومشاعر وأجواء فسيحة فوق دلالتها الأصلية ، وكثيرا ما تتركز سخرية المعنى كله في لفظ واحد ، وهذه درجة عالية من بلاغة الكلام ، حيث يقوم لفظ واحد بالمعنى كاملا ويرسم صورة متكاملة في تعبيرها وأبعادها (٢) . وهذه الظاهرة الأسلوبية شائعة وكثيرة في القرآن الكريم ، ومنها قوله تعالى في بيان نوع من عذاب الكافرين : ﴿ **ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لأكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشربون عليه من الحميم ، فشربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين** ﴾(٣) فالنزل مايعد للضيف النازل إكراما له ، وجعل هذا العذاب نزلا من قبيل التهكم والسخرية ، ونظيره قول الشاعر : (٤)

وكنا إذ الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وهذا الأسلوب البلاغي شائع مشتهر في الشعر العربي ، حتى إن أحد الباحثين أجرى دراسة تحليلية في فن الاستعارة طبقها على الأدب الجاهلي ، فحشد لذلك أمثلة كثيرة لكل أنواع الاستعارات ، ومنها الاستعارة التهكمية فبين أن الشعراء الجاهليين ذهبوا كل مذهب في تصوير مانزل بساحة الأعداء من قتل صاروا بعده جزرا للسباع وجوارح

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٣/ ٤٣٤ ، وروح المعاني ٢٥/ ١٣٤ ، وأسلوب السخرية في القرآن الكريم ٢٢٥ .

(٢) انظر أسلوب السخرية في القرآن الكريم ٤٣٢ .

(٣) الآيات (٥١ – ٥٦) من سورة الواقعة .

(٤) انظر تفسير الكشاف ٤/ ٦٠ .

الطير ، ولكي يصور الشعراء ماكان قومهم يفعلونه بأعدائهم وهم يصلونهم نيران هذه الحروب الحامية الضارية راحوا يستعيرون الكأس في شماتة وتهكم لما يلقاه عدوهم من قتل وإيلام ، يذيقونه إياها مرة في أكثر الأحيان ، أو كالنار أو مملوءة بالسم الناقع ، وهم إن لم يذكروا الكأس مستعارة يذكرون التصبيح ، أي تشبيه غارة الصباح بخمرة الصباح على سبيل الاستعارة الساخرة ، وكثيرا ماشبهوا العدو المغير بالضيف ، وعبروا عن التنكيل به بالقرى تهكما (١) .

من ذلك مارواه صاحب المفضليات من قول سنان بن أبي حارثه المري (٢) :

قل للمُثلَّم وابنَ هندٍ مالكٍ : إنْ كنتَ رائمَ عزِّنا فاسْتَقْدِمِ
تلْقَ الذي لاقى العدوُّ وتَصْطَبحْ كأساً صُبَابتُها كطعْم العلْقَمِ

هذه الأبيات هي مطلع القصيدة ، يتهدد فيها الشاعر خصميه يقول إن كنتما تريدان أن تنالا من عزنا بقتالنا فتقدما ، يتهددهما بذلك ، فإن هما فعلا لقيا مالاقى العدو وفي هذا الإبهام تعظيم وتهويل يجعل النفس تطير كل مطار ، فمالقي العدو ! ثم يعطف وتصطبحا كأسا صبابتها كطعم العلقم ، فجعل الشدة والموت اللذين يتوعدهما به كأسا مرة طعمها كالعلقم يصطبحون بها ، تهكما واستخفافا بهم .

ومثله قول عبيد بن الأبرص (٣) :

ولقد تطاولَ بالنار لعامر يومٌ تشيبُ له الرؤسُ عصيبُ
حتى سقيناهمْ بكأسٍ مرّةٍ فيها المُثمّلُ ناقعاً ، فلْيشْربُوا

(١) انظر فن الاستعارة ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) المفضليات ٣٤٩ .

(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ، بتحقيق حسين نصار ٦ .

فالتهكم هنا في استعارة الكأس لما لقيه الأعداء من بلاء ، وفي الأمر الساخر في قوله (فليشربوا) .

ويستعير عمرو بن كلثوم (القرى) في أبيات يفخر بها على بكر ، فيقول متهكما : (١)

نزلتُمْ منزِلَ الأضيافِ مِنّا فأعْجَلْنا القِرَىٰ أن تَشْتِمُونا

قَرَيْنا كُمْ فَعَجَّلنا قِرَاكُمْ قُبَيْلَ الصُّبحِ مِرْدَاةً طَحُونا

هذه الأبيات هزء وسخرية واضحة حيث جعل أعداءه أضيافا يستحقون الإكرام ، وهاهم قد عجلوا القرى حتى لا يتهموا بالتقصير في أداء حقهم وواجبهم ، فقروا أضيافهم حربا طاحنة أهلكتهم أشد إهلاك .

ومثله قول القطامي : (٢)

لمْ تَلْقَ قوماً هُمُ شرٌ لإخوتِهِمْ مِنَّا عشيَّةَ يجْرِي بالدم الوادِي

نُقْرِيهِم لَهْذَمِيَّاتٍ نَقُدُّ بها ما كان خَاطَ عليهم كلُّ زَرَّادِ

فالقرى كما هو معروف ما يقدم للأضياف حفاوة وتكريما ولكن الشاعر هنا نقله إلى الضرب بالسيوف القواطع ، بعدما شبه الضرب بالقرى بجامع التكريم والحفاوة سخرية وطنزا (٣) .

---

(١) شرح المعلقات السبع ، للزوزني ١٧٢ .

(٢) ديوان القطامي ، تحقيق د. السامرائي ومطلوب ٨٩ ، ٩٠ .

(٣) انظر التصوير البياني ٢٢٢ .

ومثله قول كعب بن زهير (١) :

صبحنا الخزرَجيةَ مرهفاتٍ أبادَ ذوي أرومَتِهاَ ذوُوها

أراد ضربنا الخزرج بالسيوف المرهفة التي أباد حاملوها أرومة هذه القبيلة ، وقوله « صبحنا » مستعار من تحية الصباح للضرب بالسيوف بعد التشبيه المبني على التهكم ، أي بعد تشبيه الضرب بالتحية بجامع التكريم في كل سخرية وتهكما (٢) .

ومن ذلك الاستعارة في الأعلام ، ومعلوم أن الاستعارة لاتكون في العلم لأنها تقتضي إدخال المشبه في جنس المشبه به بجعل أفراده قسمين ، متعارف وغير متعارف ، ولا يمكن ذلك في العلم لمنافاته الجنسية ؛ لأنه يقتضي التشخيص ومنع الاشتراك ، والجنسية تقتضي العموم (٣) .

ولكن ليس الأمر هكذا على إطلاقه ، فالعلم إذا تضمن وصفا معينا ، بأن يكون صاحبه مشتهراً بوصف متى أطلق فهم منه الوصف ، فيجوز إجراء الاستعارة فيه (كحاتم) مثلاً موضوع لرجل معين ثم اشتهر بوصف (الجود) حتى صار لازما له ، ومثله (مادر) رجل معين مشتهر بالبخل ، و « سحبان » في رجل معين مشتهر بالفصاحة ، و (باقل) في رجل معين مشتهر بضد الفصاحة وهو (الفهاهة) (٤) ، ولقد اشتهر قوم بخصال محمودة عند العرب فصاروا فيها أعلاما يشبه بها في حال المدح ، فإذا ذكروا انصرفت الأذهان إلى صفاتهم التي اشتهروا بها لا إلى أشخاصهم ، كسموءل في الوفاء ، وحاتم

---

(١) ديوان كعب بن زهير ، للسكري ١٦٦ ، شرح د. مفيد قميحة .

(٢) انظر التصوير البياني ٢٢٢ .

(٣) شروح التلخيص ٤/ ٦٩ ، ٧٠ .

(٤) شروح التلخيص ٤/ ٧٠ ، ٧١ .

في السخاء ، والأحنف في الحلم ، وسحبان في البلاغة ، وقس في الخطابة ، ولقمان في الحكمة (١) .

هذه الأعلام اشتهرت بأوصاف معينة فيجوز أن تقول : (جاء حاتم) وأنت تعني عليا ، فتستعير هذا العلم لتدعي لعلي مشابهة تلك الصفة التي شهر بها هذا العلم ، ولكن قد يعكس الكلام ، فيكون هذا العكس بقصد الاستهزاء والسخرية ، ومعلوم أن الاستعارة لاتقوم إلا على التشبيه وقد ذكر البلاغيون أن من أقسام التشبيه قسماً ينزل فيه التضاد منزلة التناسب ، فيشبه البخيل بحاتم ، والعيي بسحبان وائل ، والجاهل بلقمان ويكون هذا التشبيه بقصد السخرية لأن « من الشروط اللازمة في التشبيه أن يشبه البليغ الأدون بالأعلى إذا أراد المدح ، إلا إذا أراد الهجو فالبلاغة أن يشبه الأعلى بالأدون » (٢) .

وتنقسم الاستعارة من حيث الإفراد والتركيب إلى مفردة ومركبة ، والمركبة قد تسمى (استعارة تمثيلية) ، وهي مجاز مركب علاقته المشابهة ، يقول القزويني : « وأما المجاز المركب ، فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور أخرى ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه ، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه » (٣) .

كما يقال لمن يعمل في غير معمل : « أراك تنفخ في غير فحم ، وتخط على الماء » والمعنى أنك في فعلك كمن يفعل ذلك ، وكما يقال لمن يعمل الحيلة حتى يميل صاحبه إلى ماكان يمتنع منه « مازال يفتل منه في الذروة والغارب حتى بلغ منه ماأراد » والمعنى إنه لم

---

(١) الصناعتين ٢٦٥ .

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ٣٨٣ .

(٣) بغية الايضاح ٣/١٤٦ ، ١٤٧ .

يزل يرفق بصاحبه رفقاً يشبه حاله فيه حال من يجيء إلى البعير الصعب فيحكه ويفتل الشعر في ذروته وغاربه حتى يسكن ويستأنس ، وهذا في المعنى نظير قولهم : « فلان يقرد فلانا » أي يتلطف به ، فعل من ينزع القراد من البعير ليلتذ بذلك فيسكن ويثبت في مكانه حتى يتمكن من أخذه (١) .

والاستعارة التمثيلية مجاز مركب علاقته المشابهة ، وقد وضح عبدالقاهر هذه العلاقة القائمة بين الدلالة الأصلية للتركيب وبين دلالته المقصودة في حديثه عن هذا المثال بقوله : « أما التمثيل الذي يكون مجازاً لمجيئك به على حد الاستعارة ، فمثاله قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه : « أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى » . فالأصل في هذا : أراك في ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ثم اختصر الكلام وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة ، كما كان الأصل في قولك : « رأيت أسدا » ، رأيت رجلا كالأسد ، ثم جعل كأنه الأسد على الحقيقة » (٢) .

والاستعارة هنا ليست في لفظ مفرد وإنما في التركيب كله أو في مجموع جملة من الكلام ، حيث نقل عن معناه إلى معنى جديد لعلاقة المشابهة القائمة بينهما ، ووجه الشبه في هذه الصورة هيئة منتزعة من عدة أمور ، وتسمى تلك الصورة وما على شاكلتها استعارة تمثيلية(٣) .

وقد أشار عبدالقاهر إلى ذلك بقوله : « اعلم أنك تجد الاسم وقد وقع من نظم الكلام الموقع الذي يقتضي كونه مستعارا ثم لايكون مستعاراً، وذاك لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره، وليس له شبه ينفرد به، على ماقدمت لك من أن الشبه يجيء منتزعا من مجموع جملة من

---

(١) بغية الإيضاح ٣/١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) دلائل الإعجاز ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) انظر فن الاستعارة ٩٦ .

الكلام ، فمن ذلك قول داود بن علي (*) حين خطب فقال : « شكرا شكرا ، إنا والله ماخرجنا لنحفر فيكم نهرا ، ولا لنبني فيكم قصرا ، أظن عدو الله أن لن يظفر به ، أرخى له زمامه حتى عثر في فضل خطامه ، فالآن عاد الأمر في نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن قد أخذ القوس باريها ، وعاد النبل إلى النزعة ، ورجع الأمر إلى مستقره في أهل بيت نبيكم ، أهل بيت الرأفة والرحمة » فقوله « الآن أخذ القوس باريها » وإن كان القوس تقع كناية عن الخلافة ، والباري عن المستحق لها فإنه لايجوز أن يقال إن القوس مستعار للخلافة على حد استعارة النور والشمس ؛ لأجل أنه لا يتصور أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد ، وأن يقال « هي قوس » كما يقال « هي نور » و«شمس» وإنما الشبه مؤلف لحال الخلافة مع القائم بها من حال القوس مع الذي براها وهو أن الباري للقوس أعرف بخيرها وشرها ، وأهدى إلى توتيرها وتصريفها ، إذ كان العامل لها ، فكذلك الكائن على الأوصاف المعتبرة في الإمامة والجامع لها ، يكون أهدى إلى توفية الخلافة حقها ، وأعرف بما يحفظ مصارفها عن الخلل ، وأن يراعي في سياسة الخلق بالأمر والنهي التي هي المقصود منها ترتيبا ووزنا تقع به الأفعال مواقعها من الصواب ، كما أن العارف بالقوس يراعي في تسوية جوانبها وإقامة وترها وكيفية نزعها ووضع السهم الموضع الخاص منها مايوجب في سهامه أن تصيب الأغراض وتقرطس في الأهداف وتقع في المقاتل وتصيب شاكلة الرمي »(١) .

وهكذا قول القائل وقد سمع كلاما حسنا من رجل دميم : « عسل طيب في ظرف سوء » ، ليس « عسل » ههنا على حده في قولك « ألفاظه عسل » لأجل أنه لم يقصد إلى

(*) داود بن على بن عبدالله بن عباس الهاشمي عم السفاح العباسي كان خطيبا فصيحا ، من كبار القائمين بالثورة على بني أمية تولى الكوفة ثم الحجاز واليمن توفى سنة ١٣٣هـ . الأعلام٢/ ٣٣٣ .

(١) أسرار البلاغة ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

بيان حال اللفظ الحسن وتشبيهه بالعسل في هذا الكلام ، وإن كان ذلك أمرا معتادا ، وإنما قصد إلى بيان حال الكلام الحسن من المتكلم المشنوء في منظره ، وقياس اجتماع فضل المخبر مع نقص المنظر ، بالشبه المؤلف من العسل والظرف ، ألا ترى أن الذي يقابل الرجل هو « ظرف سوء » ، وظرف سوء لايصلح تشبيه الرجل به على الانفراد ، لأن الدمامة لا تعطيه صفة الظرف من حيث هي دمامة ، مالم يتقدم شيء يشبه مافي الظرف من الكلام الحسن أو الخلق الجميل ، أو سائر المعاني التي تجعل الأشخاص أوعية لها(١) .

وهذه الاستعارات التمثيلية متى اشتهرت وفشا استعمالها سميت مثلا ، والأمثال لا تغير ؛ لأنها تستعمل على سبيل الاستعارة فيجب أن يبقى لفظها على حاله من غير تغيير ، وتجرى الاستعارة فيها بأن تشبه صورة مضربها بصورة موردها ثم يستعار لفظها لها وعلى هذا يكون كل مثل استعارة ولا عكس (٢) .

وتعتبر الأمثال لونا من ألوان النثر الفني عند العرب ، ومتى ما استعملت هذه الأمثال في مواقف مشابهة لمواقفها الأصلية كان ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية .

والمثل مأخوذ من المثال ، وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول ، والأصل فيه التشبيه ، فقولهم « مثل بين يديه » إذا انتصب ، معناه أشبه الصورة المنتصبة ، و « فلان أمثل من فلان » أي أشبه بما له من الفضل ، والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول ، كقول كعب بن زهير :(٣)

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا — وما مواعيدها إلا الأباطيل

---

(١) أسرار البلاغة ٢٥٩ .

(٢) انظر بغية الايضاح ٣/ ١٥١ .

(٣) مجمع الأمثال ١/ ٧ .

فمواعيد عرقوب(*) علم لكل ما لا يصح من المواعيد .

والمثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ ، شبهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره ، وسميت كذلك الحكم القائم صدقها في العقول أمثالا لانتصاب صورها في العقول مشتقة من المثول الذي هو الانتصاب (١) .

ويجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام ، إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة ، وإذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث (٢) .

ولكل مثل مورد ومضرب ، والمراد بالمورد الموقف الذي صدر فيه أولاً وقد يكون حدثا واقعيا ، وقد يكون حدثا متخيلا لا وجود له على أرض الواقع ، كما في الأمثال الواردة على ألسنة الحيوان ، كقول الضب للضبع والثعلب اللذين أتياه يحتكمان إليه : «في بيته يؤتي الحكم » وأما المضرب ، فهو الموقف الذي يستعار له المثل بناء على المشابهة بينه وبين الموقف الأول ، ويروى المثل بلفظه الذي سمع به ، فيخاطب به المفرد والمثنى والجمع مذكرا ومؤنثا . وهناك بعض الأبيات قد تحتوي في شطريها على صورة تشبيهية مركبة ، فإذا ذكر البيت بكامله فهو من قبيل التشبيه المركب أو تشبيه التمثيل ، أما إذا انتزعنا الشطر الثاني الذي هو المشبه به ، واستخدمناه وحده في موقف مشابه لما يعبر عنه فإن ذلك يعد من قبيل الاستعارة التمثيلية (٣) .

(*) عرقوب : جاهلي يضرب به المثل في خلف المواعيد قيل هو ابن سعد بن زيد مناة وقيل هو من الأوس والخزرج وقيل من يهود يثرب . الأعلام ٤/ ٢٢٥ .

(١) انظر مجمع الأمثال ١/ ٧ .

(٢) المرجع السابق ١/ ٧ ، ٨ .

(٣) انظر التعبير البياني رؤية بلاغية ، د. شفيع السيد ١٤٥ .

واستعمال الأمثال في أثناء الكلام يضفي عليه قوة ويكسبه مزية ، وكثيرا ما نستخدم هذه الأمثال حتى في أحاديثنا العابرة ، فتكون جميلة رائعة إذا وقعت موقعها ، بأن تذكر في مناسبة تشبه المناسبة التي استخدمت فيها أصلا ، فيكون ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية .

ولا يكون المستعار فيها لفظا بل يكون عبارة تعبر كل جزئية فيها عن جزئية في المستعار له لكنها لا تأتي على ذلك ، أي لا تقابل كل جزئية منها بجزئية في المستعار له فنأخذها وكأنها لفظ واحد ، مثال ذلك أن نقول عن محارب شجاع وضع عدة الحرب ورجع إلى دياره (عاد السيف إلى قرابه ، وحل الليث منيع غابه) فمن الممكن أن يقال إننا نشبه الرجل بالأسد وبيته بالعرين ، وأننا نشبهه بالسيف وبيته بالقراب ، لكن ذلك يضعف الصورة ويقطع أوصالها ، لأن بناء الأسلوب يقع على الحالة ذاتها بكل جزئية من جزئياتها ، إن النقل والتحول في الاستعارة التمثيلية ليس لفظا وإنما هيئة مركبة أو حالة من الحالات نشبهها بحالة أخرى ، ونعيد بعث تلك الحالة وإعادتها حية نابضة كما كانت من قبل (١) .

والاستعارة هنا في تركيب استعمل في غير ماوضع له لعلاقة المشابهة ، ووجه الشبه يكون هيئة منتزعة من عدة أمور تشكل صورة نسميها استعارة تمثيلية ، واستخدم هذا النمط من الاستعارة في السخرية كثيرا ، وشاع استعارة الأمثال بقصد التعليق الساخر على حادثة أو موقف أو التهكم بشخص أو الهزء به بقصد الشماتة أو غيرها « كما يروى عن معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه أنه لما بلغه أن الأشتر والي علي رضي الله عنه على مصر سُقى عسلا فيه سم فمات ، قال معاوية شامتا ومتهكما : « إن لله جنودا منها العسل » (٢) .

---

(١) انظر فنون التصوير البياني في البلاغة العربية ، د. توفيق الفيل ٢٦٢ .

(٢) انظر عيون الأخبار ١/ ٢٠١ .

ومن ذلك ماروي في مناسبة نزول قوله تعالى : ﴿ **قل للذين ءامنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون** ﴾(١) أن ابن أبي أرسل غلامه ليستقى فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقي حتى ملأ قرب النبي ﷺ وقرب أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، فقال ابن أبي : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل (سمن كلبك يأكلك) فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه ، فأنزل الله تعالى الآية (٢) . وقوله «سمن كلبك يأكلك» مثل قاله رجل من العرب لقي صبيا فرباه فلما كبر خانه(٣) .

وأمثلة هذا النوع كثيرة ، إذ أن كثيرا من الأمثال يمكن أن تستعار بقصد السخرية والتهكم ، من ذلك قولهم (أجبن من المنزوف ضرطا) وأصله أن رجلا أيقظته زوجته من نومه ، فقال لها : لو نبهتني لعاديه ، فقالت له : هذه نواصي الخيل ، فجعل يقول : الخيل الخيل ، ويضرط ، حتى مات (٤) فإذا نقل هذا المثل واستعير في حادثة معينة لكان استعماله هنا فيه تهكم وسخرية ، وكذلك قولهم (أجبن من صافر) و (أجبن من صفرد)(٥) .

ومثله قولهم (أثقل من الرصاص) (٦) إذا استعمل على سبيل الاستعارة ، ومنه قولهم (أحاديث الصم إذا سكروا) (٧) فيمن يخلط قوله ويعتذر بالباطل ، فإذا نقل واستعير صلح أن يكون ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية .

---

(١) الآية (١٤) من سورة الجاثية .
(٢) روح المعاني ٢٥/ ١٤٧ .
(٣) انظر مجمع الأمثال ٢/ ١٠٦ .
(٤) المرجع السابق ١/ ٣٢٢ .
(٥) المرجع السابق ١/ ٣٢٩ .
(٦) المرجع السابق ١/ ٢٧٨ .
(٧) المرجع السابق ١/ ٣٦٢ .

وهذه العبارات والأمثال وإن كانت من التعبيرات المتداولة أو القوالب المعدة ، نراها في هذا الاستعمال الاستعاري التهكمي حية دافقة وحارة متوهجة ، وذلك لأن الموقف وملابساته يفرغ عليها ضروبا من المعاني والأحاسيس والمشاعر تنفض عنها رتابة الإلف ، وملل التكرار وتبعثها حية نابضة يجري فيها ماء الحياة ، وجريان هذه العبارات على الألسن لا يفقدها جدتها وطرفتها وتأثيرها ولا يحول بينها وبين أن تحمل أدق ملابسات النفس المعبرة (١) .

وهنا نوع من الاستعارة تحدث عنه عبدالقاهر وأسماه بالاستعارة اللفظية غير المفيدة ، وأشار إلى أنها تجري بين الأسماء التي تتحد أجناس مسمياتها كالشفه ، والمشفر والجحفلة ، والقدم ، والحافر ، والأظلاف ، والأظافر ، والتولب ، والولد ، والطلا وغير ذلك .

يقول : « واعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية » (٢) .

ثم يقسمها إلى قسمين ، أحدهما نقل له فائدة والآخر ليس لنقله فائدة وبدأ بذكر ماليس له فائدة ، وذلك كوضع أسامي عدة لشيء واحد ، بقصد التوسع في أوضاع اللغة والتنوق في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها ، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو وضع (الشفة) للإنسان و (المشفر) للبعير ، و(الجحفلة) للفرس ، فإذا استعمل الشاعر شيئا منها في غير الجنس الذي وضع له ، فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجاز به موضعه (٣) .

---

(١) انظر التصوير البياني ٢٢٧ .

(٢) أسرار البلاغة ، هـ . ريتر ٢٩ .

(٣) المرجع السابق .

ثم يضرب على ذلك الأمثلة ، فمنها قول الشاعر أبي دؤاد بن الحجاج :

فَبِتْنَا جُلُوساً لدَىٰ مُهرِنا ... نُنزِّعُ من شَفَتيهِ الصَّفَار

ويعلق على البيت بقوله : « فاستعمل « الشفة » في الفرس وهي موضوعة للإنسان ، فهذا ونحوه لايفيدك شيئا لو لزمت الأصلي لم يحصل لك ، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله (من شفتيه) وقوله (من جحفلتيه) لو قاله ، إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب ، بل الاستعارة ههنا بأن تنقصك جزءا من الفائدة أشبه » (١) .

ثم يتحدث عبدالقاهر عن نوع من هذه الاستعارة اللفظية ناظر إلى الاستعارة المعنوية ، فيجعل فيه استعمال (المشافر) أو (الأظلاف) أو (التوالب) للإنسان ، من قبيل الذم والتهكم إذا أتي بها في مواضع العيب والنقص ، يقول : « فاعلم أنك قد تجد الشيء يخلط بالضرب الأول الذي هو استعارة من طريق اللفظ ، ويعد في قبيله ، وهو إذا حققت ناظر إلى الضرب الآخر الذي هو مستعار من جهة المعنى وجار في سبيله ، فمن ذلك قولهم « إنه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر » وذلك أنه كلام يصدر عنهم في مواضع الذم ، فصار بمنزلة أن يقال : (كأن شفته في الغلظ مشفر البعير ، وجحفلة الفرس) وعلى ذلك قول الفرزدق :

فلو كنتَ ضبِّيّاً عرفتَ قرابتي ... ولكنَّ زنجيّاً غليظَ المشافرِ

فهذا يتضمن معنى قولك (ولكن زنجيا كأنه جمل لا يعرفني ولا يهتدي لشرفي)(٢).

وهذا الأسلوب يصلح أن يستعمل في مواضع السخرية والتهكم ، وذلك واضح لا لبس فيه ، ولكن جعل ذلك من الاستعارة أمر فيما يبدو صعب حتى على عبدالقاهر

---

(١) أسرار البلاغة ، هـ . ريتر ٣٠ .

(٢) المرجع السابق ٣٤ ، ٣٥ .

نفسه ، فنراه يتردد بين أن يعده في الاستعارة أو لا ، فهو في أول الأمر يصنفه في الاستعارة اللفظية الناظرة إلى المعنوية ، ولكنه يرجع عن ذلك فيصرح أن هذا ليس من الاستعارة ، وفي موضع ثالث يعتذر عن تسميته استعارة وإنما سماه استعارة كراهة لمخالفة من سبقه ، يقول بعد أن فرغ من الحديث عن هذا النوع وبدأ في الحديث عن الاستعارة المفيدة : « اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول » (١) ، ويقول في موضع آخر : « واعلم أن الواجب كان أن لا أعد وضع « الشفة » موضع « الجحفلة » في مكان « المشفر » ونظائره التي قدمت ذكرها في الاستعارة ، وأضنُّ باسمها أن يقع عليه ولكني رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدوه معدها ، فكرهت التشدد في الخلاف واعتددت به في الجملة ، ونبهت على ضعف أمره بأن سميته (استعارة غير مفيدة) (٢) .

وقد عاب بعض النقاد هذه الاستعارة وقالوا كل ماجرى هذا المجرى من الاستعارة فهو قبيح لا عذر فيه ، فعابوا على أوس بن حجر قوله :

وذاتُ هدْمٍ عارٍ نواشرُها تُصْمِتُ بالماءِ تَوْلبًا جَدِعا

وقالوا إنه قد أفحش الاستعارة بأن سمى الصبي « تولبا » وهو ولد الحمار (٣) .

وعابوا كذلك قول الآخر :

وما رَقَدَ الوِلْدَانُ حتى رأيتُهُ على البَكْرِ يَمْرِيهِ بسَاقٍ وحافِرِ

فسمى رجل الإنسان « حافرا» (٤) .

---

(١) أسرار البلاغة ، هـ . ريتر ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ٣٧٣ .

(٣) انظر الموشح ، للمرزباني ٨١ ، تحقيق علي البجاوي .

(٤) المرجع السابق .

ولا أتفق مع من عاب هذا النوع على إطلاقه ، فإن كان استعمال اسم أحد الأعضاء في غير الأصل الذي وضع له دون أن يكون لهذا الاستعمال والنقل داع يستدعيه أو معنى يقتضيه فإنه يعاب ، أما إن كان لمعنى مقصود كأن يكون من وراء ذلك بيان رثاثة الحال والبؤس كما هو في بيت أوس السابق الذي يقول عبدالقاهر معلقا عليه : « فأجرى التولب على ولد المرأة وهو لولد الحمار في الأصل ، وذلك لأنه يصف حال ضر وبؤس ، ويذكر امرأة بائسة فقيرة ، والعادة في مثل ذلك ، الصفة بأوصاف البهائم ليكون أبلغ في سوء الحال ، وشدة الاختلال ، ومثله سواء قول الآخر :(١)

وذكرتُ أهلي بالعَرا ءِ وحاجةَ الشُّعْثِ التَّوالب

ولايعاب هذا النوع إذا استعمل لقصد السخرية والتهكم حين ينقل اسم عضو من أعضاء الحيوانات إلى إنسان ، كما عند الفرزدق في سخريته من أيوب بن عيسى الضبي ، يقول : (٢)

فلو كنتَ قَيْسياً إذا ماجبئتَني ولكنَّ زِنجياً غليظاً مشافرُه

فهذا نقل قصد به الذم والانتقاص والتهكم حيث جعل له مشفر دابة ، وهو كلام يتضمن معنى قولك « ولكن زنجيا كأنه جمل لايعرفني ولا يهتدي لشرفي » ، وهو كلام يصدر عنهم في مواضع الذم والعيب والنقص (٣) .

ولولا أن هذا النوع أسلوب راق رصين لما جاء في القرآن الكريم ، يقول الله تعالى في الوليد بن المغيرة : ﴿سنسمه على الخرطوم﴾(٤) بعد أن كذب بآيات الله وصد عنها

---

(١) انظر أسرار البلاغة ، هـ . ريتر ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) الأغاني ٢١/ ٣٣٢ .

(٣) انظر أسرار البلاغة ، هـ . ريتر ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ .

(٤) الآية (١٦) من سورة القلم .

توعده الله بالعذاب المهين في الدنيا والآخرة ، فسماه (المهين) وجعل لهذه المهانة وسما يوضع على أنفه ليعرف به ، والأنف أكرم موضع في الجسد ، لذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا : الأنف في الأنف ، وحمي أنفه ، وفلان شامخ العرنين ، وقالوا في الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه ، وإطلاق اسم الخرطوم على الأنف من باب إطلاق مشفر على الشفة الغليظة لإنسان ، وقد عبر بذلك عن غاية الإذلال ؛ لأن السمة على الوجه شين ، وفي لفظ « الخرطوم » استهانة ؛ لأنه لايستعمل إلا في الفيل والخنزير ، ففي التعبير عن الأنف بهذا الاسم ترشيح لما دل عليه الوسم على العضو المخصوص من الاذلال ، والمراد سنهينه في الدنيا ونذله غاية الإذلال . ولا شك أن هذا الأسلوب تعبير ساخر متهكم ، فهذا الشخص القوي المتسلط ، صاحب المال والبنين ، والفكر والتقدير ، الذي يملأ قلوب أتباعه إعجابا وإكبارا بمظهره وجلاله ، تمسح سخرية القرآن هذا المظهر الكبير الجليل لتضع مكانه صورة ساخرة ، نرى فيها الوليد وقد شوه منه أبرز موضع في أكرم عضو من الإنسان ، على أننا لانراه في الصورة هو الوليد كما يعرفه الناس ، وإنما نراه أشبه بحيوان ذي خرطوم ، وقد وسم هذا الخرطوم بعلامة بشعة منفرة ، تشوه مظهره وتثير الضحك والسخرية منه (١) .

ومن ذلك ، هجاء المتنبي لكافور وسخريته منه ، يقول أبو الطيب : (٢)

ماكنت أحسبني أبقى إلى زمن يسيء بي فيه كلب وهو محمود

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٤/١٢٧ ، ١٢٨ ، وأبو السعود ٩/١٤ ، وروح المعاني ٢٩/٢٨ ، ٢٩ والسخرية في القرآن الكريم ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) ديوان المتنبي ٢/٤٣ ، ٤٤

ولا تَوَهَّمت أن الناسَ قد فُقِدوا   وأنَّ مثلَ أبي البَيْضَاءِ موجودُ
وأنَّ ذا الأسودَ المثقوبَ مشفرُهُ   تُطيعُهُ ذي العَضَاريطُ الرَّعادِيدُ

ويقول فيه أيضا : (١)

فإن كنتَ لا خيرا أفدتَ فإنني   أفدتُ بلحْظِي مشفَرَيكَ الملاهيا

جعل المتنبي لهذا الأسود مشفرا كمشفر البعير مثقوب ، يلهو به ويضحك عند رؤيته ، ويتساءل معجبا كيف لهذا الأسود العظيم المشافر أن يسود هؤلاء الذين حوله ! وكأن عظم المشافر ينافي السيادة ، فهذا المشفر المثقوب لم يثقب إلا ليقاد كما يقاد البعير عندما يربط مشفره المثقوب بالزمام ، فليس أهلا لأن يقود .

ويروى أن الفرزدق دخل على قوم يشربون عند رجل بالبصرة وفي صدر مجلسهم فتى أسود وعلى رأسه إكليل ، فلم يحفل بالفرزدق ولم يخف تهاونا ، فغضب الفرزدق من ذلك وقال : (٢)

جلوسُك في صدر الفراش مذلةٌ   ورأسُك في الإكْليلِ إحدىٰ الكَبائرِ
وما نَطَفتْ كأسٌ ولا لذَّ طعمُها   ضربْتَ على حَافَاتِهَا بالمشافِرِ

فجعل له مشافر كريهة تفسد الشراب وتفقده لذته .

ومما مر نتبين أن هذا الأسلوب قوي رصين ، وشائع الاستعمال ، سواء كان عكساً للكلام ، أو من قبيل الاستعارة التمثيلية ، أو العنادية التهكمية ، أو كان استعارة في الأعلام ، أو استعارة لفظية باستعمال بعض الالفاظ لغير ماوضعت له ، كل ذلك جاءت منه أروع النصوص الساخرة شعرية ونثرية ، ورأينا الأمثلة القرآنية تستخدم هذا الأسلوب فتصور منه أروع السخريات .

---

(١) ديوان المتنبي ٤/ ٢٩٦ .

(٢) الأغاني ٢١/ ٣٧٥ .

الكناية الساخرة

الكناية عند أهل اللغة أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره ، يقولون : كنى به عن كذا يكْني ويكْنُو كناية ، ومنها العدول عن اسم الشخص إلى الكنية كأبي عبدالله وأم سليم(١) .

وهي كما عند البلاغيين المتأخرين : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته كقولك : فلان طويل النجاد ، أي طويل القامة (٢) .

فالكناية عدول عن لفظ إلى آخر يدل عليه ، وهو عدول لايعني إخفاء اللفظ أو ستره كليا ، ولايعني أيضاً إبرازه واضحاً ، وإنما يعني التحول عنه إلى غيره ، فيكون اختفاؤه بقدر يحتاج معه إلى شيء من التمعن والتدقيق .

وقد أوضح عبدالقاهر الكناية بقوله : « والمراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيومئ به إليه ، ويجعله دليلاً عليه » (٣) .

وقد أُجمع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح وليس معنى هذا أنك إذا كنيت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته ، فجعلته أبلغ وآكد وأشد (٤) .

---

(١) القاموس المحيط (كنى)

(٢) شروح التلخيص ٤/ ٢٣٧ .

(٣) دلائل الإعجاز ٦٦ .

(٤) المرجع السابق ٧٠ ، ٧١ .

والهجاء والسخرية إنما تفضل وتقوى بالكناية والتعريض وأبلغ الهجو «ماعترض بين التصريح والتعريض» (١) ذلك لاتساع الظن في التعريض، وشدَّة تعلق النفس به، والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته، فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً، وقبلته يقيناً في أول وهلة، فكان كل يوم في نقصان (٢) ومن استعمل في الهجاء الإيهام والتعريض والتلويح بقي له موضع يخرج منه إلى الاعتذار مع أن التعريض في الهجو أبلغ من التصريح لاتساع الظن في التعريض وشدة تعرض النفس بالكناية عنه، والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته بخلاف التصريح(٣).

وقد ذكر البلاغيون أنه لايصار إلى الكناية والتعريض إلا لغرض يقصده المتكلم يرى أن الكناية عنه والتعريض به أولى من التصريح، يقول ابن الناظم: «ولا يُترك التصريح بالشيء إلى الكناية عنه في بليغ الكلام إلا لتوخي نكتة كالإيضاح، أو بيان حال الموصوف أو مقدار حاله، أو القصد إلى المدح أو الذم، أو الاختصار، أو الصيانة، أو التعمية والإلغاز، أو التعبير عن الصعب بالسهل، أو عن الفاحش بالظاهر، أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن» (٤).

وذكر ابن معصوم ستة من الأسباب التي يُعدل لأجلها من التصريح إلى الكناية وجعل منها قصد الذم (٥).

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٢٤.

(٢) العمدة ٢/٨٥٠.

(٣) انظر جوهر الكنز ٣١١.

(٤) المصباح، لابن الناظم ١٤٧.

(٥) أنوار الربيع ٥/٣١١.

ويعد الجرجاني صاحب المنتخب من فوائد الكناية ، القصد إلى الذم بلفظ ظاهره المدح(١) وفي ذلك احتيال على المعنى ، وتكنية للألفاظ ، حيث يجد الساخر بغيته في هذا الأسلوب الذي يسلك به سبيل التعريض ويبتعد عن التصريح .

ومن ذلك هذه الأقوال التي يمكن أن تلقى على سبيل التهكم والسخرية ، كقولهم : أرانيه الله أغرَّ محجلا ، أي محلوق الرأس مقيدا ، وقولهم : فلان صافي العيش حلو الحياة ، يعنون به الجاهل ، وفلان حسن الظن يعنون به الغافل . وفلان سليم الصدر ، يعنون به الأبله ، ويقولون : ستره الله بستره أي رمى عليه حائطاً يستره (٢) .

وهذه كلها كنايات توهم سامعها أن معناها مدح إذ إن ظاهرها يغري بهذا الفهم ، بينما تحمل في حقيقتها ذماً ربما استعمل في السخرية بمن غفل عن مثل هذه المعاني البعيدة، وهي كما يبدو كنايات شاعت وعرفت في وسط معين فأصبحت تستعمل في السخرية بمن لم يفطن إلى المقصود بها .

وكان بعض الظرفاء إذا أراد أن يسخر من شخص أو يتلاعب به قال له : أعددتُ لك مايؤنس المتوحش ، ويبسط المنقبض ، وينشط الكسلان ، ويضحك الثكلان . ويكني بكل هذا عن الصفع (٣) وفي هذا تهزل وتلاعب بالألفاظ وستر للمعاني ، إذ يوهم هذا المتكلم مخاطبه بالإكرام ، فإذا حقق في معناه ودقق في مراده وجده ذماً وسخرا .

ومن ذلك أيضاً أن أحدهم كان يقول ساخراً لبعض الناس : أنت مطبوع ألوف مطواع . يظهر له المدح وهو يكني به عن الكلب ؛ لأنه ليس في الحيوان آلف منه(٤) .

---

(١) المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء ٣ ، ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) انظر المرجع السابق ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء ٦٨ .

(٤) المرجع السابق .

والسخر بالكناية والتعريض أوقع في نفس المهجو « لأن في الإظهار تحديداً للمراد وقصراً للغاية ، وفي الإطلاق اتساعاً للخيال وسعة في التحليق والظن » (١) .

وربما استخدم الهجاء والساخر الكناية والتعريض حتى يسلم من عواقب هجائه وسخره خصوصاً إذا كان المهجو ذا مكانة أو سطوة أو سلطان فيلجأ إلى الكناية والتعريض .

وقد اشتهر عند العرب بعض الهجاء الذي قيل في ذم قبيلة أو أفراد فاشتهرت تلك الألفاظ والأشعار وسارت بين الناس فحفظوها « ولذلك تجنب الأشراف ممازحة الشعراء خوف لفظة تسمع منهم مزحاً فتعود جداً » (٢) كما قال دعبل : (٣)

لاتعرضنَّ بمزح لامرئ طبن ... ماراضه قلبه أجراه في الشفه

فرب قافية بالمزح جارية ... في محفل لم يرد إنماؤها نمت

إني إذا قلت بيتاً مات قائله ... ومن يقال له ، والبيت لم يمت

ومن ألفاظ الهجاء التي اشتهرت كلمة كانت تعير بها قريش وهي (سخينة) وهي حساء أو طعام رقيق ، وقيل إن قصياً كان إذا ذُبحت ذبيحة بمكة أتى بعجزها فصنع منها خزيرة - وهي لحم يطبخ ببرٍّ - فيطعمه الناس ، فسميت قريش بها سخينة (٤) .

وقيل إن أول من عيَّر قريشاً ولقبها بذلك خِداش بن زهير حيث يقول :(٥)

---

(١) الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية ٣١٩ .

(٢) العمدة ١/ ١٧٤ .

(٣) المرجع السابق ١/ ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٤) المرجع السابق ١/ ١٧٣ .

(٥) المرجع السابق .

ياشدة ماشددنا غير كاذبةٍ　　على سخينة لولا الليلُ والحرمُ

فسارت هذه على ألسنة الناس حتى كان بعضهم ربما كنى عن هذا اللفظ المشتهر حين يريد غمز قريش أو السخرية بقرشي ، كما حدث بين معاوية رضي الله عنه والأحنف بن قيس التميمي ، حين قال له معاوية : ما الشيء الملفف بالبجاد ؟ فقال له : السخينة ! أراد معاوية قول الشاعر :

إذا ما مات ميت من تميمٍ　　فسرك أن يعيش فجئ بزاد

بخبز أو بلحم أو بتمر　　أو الشيء الملفف في البجاد

وكانت تميم تعير بهذا ، والشيء الملفف بالبجاد هو وطب اللبن أي سقاء اللبن(١) .

ومن ذلك أن رجلاً من بني محارب دخل على عبدالملك بن يزيد الهلالي بأرمينية وهو واليها فقال عبدالملك : ماذا لقينا الليلة من شيوخ بني محارب ماتركونا ننام ! وعنى بذلك الضفادع ، وأشار لقوله :

تكش بلا شيء شيوخ محارب　　وما خلتها كانت تريش ولا تبري

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت　　فدل عليها صوتها حية البحر

فرد عليه المحاربي سخريته هذه بما هو أشد منها حيث قال : إنهم أضلوا برقعاً البارحة فكانوا يبغونه . فأشار لقول الشاعر : (٢)

لكل هلالي من اللؤم برقع　　ولابن يزيد برقعٌ وجلال

---

(١) العمدة ١/ ١٧٤ .

(٢) كنايات الأدباء ٧٢ ، ٧٣ .

ومن هذه الكنايات الساخرة مايروي أن سناناً النمري كان يماشي عمرو بن هبيرة الفزاري وهو على بغلة فتقدمت ، فقال عمرو : غض من بغلتك . فقال النميري : أصلح الله الأمير إنها مكتوبة . أراد ابن هبيرة قول جرير :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وأزاد سنان النميري قول ابن دارة :

لا تأمنن فزاريا خلوت به   على قلوصك واكتبها بأسيار

والأصل في الثاني أن بني فزارة كانت تعير بإتيان الإبل (١)

ويقال إن أهجى بيت هجيت به قبيلة وفيه مافيه من الكنايات قول الأخطل في بني يربوع رهط جرير : (٢)

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم : بولي على النار

وكان أهجى بيت لأنه جمع فيه ضروباً من الهجاء : فنسبهم إلى البخل بوقود النار لئلا يهتدي بها الضيفان ، ثم البخل بإيقادها للسارين والسابلة ، ورماهم بالبخل بالحطب ، وأخبر عن قلتها ، وأن بولة تطفئها ، وجعلها بولة عجوز ، وهي أقل من بولة الشابة ، ووصفهم بامتهان أمهم وابتذالها في مثل هذه الحال ، فدل بذلك على العقوق والاستخفاف ، وعلى أن لاخادم لهم ، وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء (٣) .

ومن فوائد الكناية وأغراضها التحرز عن ذكر الفواحش السخيفة بالكنايات اللطيفة ، وإبدال مايفحش ذكره في الأسماء بما لاتنبو عنه الطباع (٤) والشاعر الساخر

---

(١) المنتخب من كنايات الأدباء ٧٤ .

(٢) العمدة ٢/ ٨٥٣ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المنتخب من كنايات الأدباء ٣ .

يحاول دائماً أن يتلمس أفضل السبل وأشدها إيلاماً ، ويحاول أن يبتعد عن الفحش الظاهر ، فيعرض ويكني ولا يصرح في كثير من الأحيان ؛ لأن هذا التعريض ربما كان أشد وقعاً وإيلاماً وأكثر ذيوعاً وانتشارا ، فلكي يجد الساخر لقوله رواجاً ينبغي عليه أن يبتعد عن الألفاظ التي يظهر فيها الفحش فيكني عنها ، « ولذلك يستحب في الهجاء أن لايكون ظاهره فحش يتحاماه ذوو الدِّين والمروءة ، ولا يقبح إيراده في المحافل ولايخشى غائلة الهجو به » (١) .

واستعمل الشعراء كثيراً من الكنايات التي حاولوا باستخدامها أن يبتعدوا عن الفحش الظاهر ، فكنوا في سخرهم وهجائهم بألفاظ اشتهرت عندهم ، من ذلك أنهم كنوا عن المرأة الفاسدة (برقَّة الحافر) ومنه قول جحظة البرمكي : (٢)

أصبحت في معشر شنيئتهم ... فرض من الله لازم واجب
منهم صديق عرسه عجب ... إذا تأملت أمرها عاجب
تحسبها حرة وحافرها ... أرق من شعر خالد الكاتب

فكنى عن هجائه لهذه المرأة برقة حافرها ، واستطرد إلى السخرية من شعر خالد الكاتب ، وكان رجلاً يعير برقة وبرود شعره .

وتقول العامة في الكناية عن ذلك أيضاً (فلان يستفرخ في برجه) أي فاسد النساء، قال ابن الرومي : (٣)

أنت ياشيخ نائم فتنبه ... وانتصحني فلست من غشاشك
لك أنثى تزيف في كل برج ... وتربي الفراخ في أعشاشك

---

(١) جوهر الكنز ٣١٠ .

(٢) المنتخب من كنايات الأدباء ١٢ .

(٣) المرجع السابق ١٢ ، ١٣ .

ويكنون عن الابن غير الشرعي (بابن مطفئة السراج) قال الأقيشر الأسدي وقد سماه رجل بلقبه : (١)

أتدعوني الأقيشر ذاك اسمي وأدعوك ابن مطفئة السراج

تناجي خدنهـا بالليل سـرا ورب الناس يعلم ماتنـاجي

ولاشك أن هذا كله فحش وسباب وإن جاء في صورة الكناية وترك الشاعر فيه سبيل التصريح وسلك طريق الكناية ، لأن الغاية التي يوصل إليها واحدة ، وإن كان بعض النقاد يرى أن التكنية عن المعنى – وإن أفحش – مقبولة غير معيبة ، حيث يرى بعضهم أن أبيات امرئ القيس : ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع . وقد عيبت من جهة الفحش ، ولو استعار لمعناه الفاحش لفظ الكناية لسلم من العيب (٢) .

ومن الكنايات الساخرة ماجرى مجرى الأمثال ، وهذا كثير جارٍ في كلام العرب « وأكثر أمثالهم الفصيحة على مجاري الكنايات » (٣) من ذلك قولهم « عريض القفا » يقصدون أنه غبي ، لأن عرض القفا كناية عن الحمق ، وفي ذلك يصف أحد الشعراء بعض خصومه فيقول :

عريض القفـا ميزانه في شـماله قد انحص من حسب القراريط شاربه

فقوله (عريض القفا) كناية عن الحمق ، وقوله (ميزانه في شماله) كناية عن البله ، و (انحص من حسب القراريط شاربه) كناية عن البخل والشح والبلادة فهو دائم النتف لشاربه والعض لشفتيه عند الحسب والعد (٤) .

---

(١) المنتخب من كنايات الأدباء ١٣ .

(٢) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب ٢/ ٢٦٤ ، وتحرير التحبير ١٤٤ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ٢/ ٣٠٠ .

(٤) تفسير الكشاف ١/ ١١٦ .

(٥) انظر الأسلوب الكنائي نشأته وتطوره وبلاغته ، د. محمود شيخون ٧١ .

والكناية عند ابن قتيبة أنواع ، ولها مواضع : منها أن تكني عن اسم الرجل بالأبوة (١) وربما كانت هذه الكنية مشعرة بالذم كما في قوله تعالى : **﴿تبت يدآ أبي لهب وتب﴾** (٢) ومعلوم أن اسم أبي لهب هو عبدالعزى ، ولكن العدول عن ذكر هذا الاسم إلى ذكر الكنية فيه كما يرى الزمخشري وغيره ثلاثة أوجه كلها مشعرة بالذم والإهانة ، ذلك أن هذه الكنية وافقت حاله إذ أن مآله إلى نار ذات لهب ، كما يقال للشرير أبوالشر ، أو أنه أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ، وقيل كني بذلك لتلهب وجنتيه وتوقدهما(٣) فيجوز أن يذكر بذلك ذماً له وتهكما به وبافتخاره بذلك .

وكان بعض الشعراء يحلو له أن يكني بعض مهجويه بكنى يخترعها بنفسه ويؤلفها ليسخر منهم ، من ذلك ماكان يفعله المتنبي مع بعض خصومه ، فنراه مثلاً يكني كافور الأخشيدي (بأبي البيضاء) فيقول : (٤)

ماكنت أحسبني أبقى إلى زمن ... يسيء بي فيه كلبٌ وهو محمود

ولا توهمت أن الناس قد فقدوا ... وأن مثل أبي البيضاء موجود

يقول العكبري معلقاً على هذه الأبيات : « وكناه بأبي البيضاء سخرية به »(٥) .

وكان ابن الرومي أيضاً مولعاً بمثل هذه الكنى الساخرة ، فنراه يكني إسماعيل ابن بلبل (بأبي الصقر) (٦) وأنى للبلبل أن يكون أباً للصقر ، لايكون ذلك إلا في عبث ابن

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٢٥٦ .

(٢) الآية (١) من سورة المسد .

(٣) انظر تفسير الكشاف ٤/ ٢٤٠ ، ٢٤١ ، وشرح المطول للسيالكوتي ١٤٠ .

(٤) ديوان المتنبي ٢/ ٤٣ ، ٤٤ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) ديوان ابن الرومي ١/ ٢٠١ .

الرومي وسخره حين يطعن في نسب ابن بلبل وأصله فيقول : (١)

جدك شيبان العظيم الفخــر

حقا كما البلبل جد الصقــر

نجر لعمري بائن من نجـــر

ويفتن ابن الرومي في استعمال الكنى الساخرة فلا يتعب نفسه أحياناً في ابتداعها بل يعمد إلى كنية مهجوه فيشوهها كما فعل مع أبي حفص الوراق ، حين حرف كنيته إلى (أبي حفصل) ثم أخذ يناديه بهذه الكنية المحرفه ويعبث بها وبصاحبها ، وذلك كما في هذه القصيدة الساخرة التي يقول في مطلعها : (٢)

وقائـــل : إن أبا حفصـــل أحمـــق محتـاج إلى ضــرب

ومما سبق يتضح جلياً أن أسلوب الكناية من الأساليب البيانية التي تساق لأغراض عديدة منها السخرية والتهكم ، وأن استخدامها في ذلك قد شاع وذاع حتى أصبح ظاهرة واضحة وعلامة بارزة في الأدب العربي شعره ونثره .

ويتضح أن اختيار الكناية أسلوباً للذم والسخر يضفي على القول قوة وجده ، ويجعل النفس دائمة التعلق به ، ويجعل هذا السخر حياً نابضاً ماثلاً للعيان ، إذ التعريض والكناية تشغل النفوس بالتدقيق فيها والتروي في معانيها .

---

(١) ديوان ابن الرومي ٣/ ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ١/ ٣١١ .

الفصل الثالث

السخرية في أساليب علم البديع

ويشمل

- الاستطراد الساخر .
- المبالغة الساخرة .
- السخرية والهجاء في معرض المدح .
- الإبهام الساخر .
- السخرية في الهزل الذي يراد به الجد .
- التجاهل الساخر .
- التهكم .
- الاقتباس والتضمين الساخر .

الاستطراد الساخر

والاستطراد من تلك الأساليب البديعية التي تصنف في المحسنات المعنوية ، وله علاقة وثيقة بالسخرية إذ هو يصلح أن يكون أسلوباً طريفاً من أساليبها .

وهو لغة : مصدر استطرد الفارس من قرنه في الحرب ، وذلك أن يفر من بين يديه يوهمه الانهزام ثم يعطف عليه على غرة منه ، وهو ضرب من المكيدة .

وفي الاصطلاح : أن تكون في غرض من أغراض الشعر توهم أنك مستمر فيه ثم تخرج منه إلى غيره لمناسبة بينهما ثم ترجع إلى الأول وتقطع الكلام ، ويشترطون فيه التصريح باسم المستطرد به والرجوع إلى الكلام الأول وقطع الكلام بعد المستطرد به(١) .

ومع أن معظم من كتبوا في الاستطراد يكادون يجمعون على تعريف واحد له (٢) إلا أن بلاغيا مثل ابن المعتز يسميه حسن الخروج من معنى إلى معنى (٣) بينما يرى العسكري أنه يقرب من باب حسن الخروج فلا يشترط فيه شرطاً ، ويرى أن له ضرباً آخر يوهم المتكلم فيه بالزهد وهو يريد غير ذلك (٤) .

والفرق بين الاستطراد والتخلص أشار إليه بعض البلاغيين ، يقول ابن حجة بعد تعريفه السابق للاستطراد : « وهذا هو الفرق بينه وبين المخلص ، فإن الاستطراد يشترط

---

(١) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ١٠٢ .

(٢) انظر مثلاً العمده ١/ ٦٢٨ ، والصناعتين ٤٤٨ ، وعروس الأفراح ٤/ ٣١٥ ، وأنوار الربيع ١/ ٢٢٨ ، وتحرير التحبير ١٣٠ ، والطراز ٣/ ١٢ ، ومنهاج البلغاء ٣١٦ - ٣١٨ ، والمصباح ٢٣٤ .

(٣) انظر البديع ٦٠ .

(٤) انظر الصناعتين ٤٤٨ ، ٤٥١ .

فيه الرجوع إلى الكلام الأول وقطع الكلام بعد المستطرد به ، والأمران معدومان في المخلص ، فإنه لايرجع إلى الأول ولا يقطع الكلام بل يستمر إلى مايخلص إليه» (١) فالاستطراد خروج ثم عود أما التخلص فهو تمادي (٢) لأنك حينما تستطرد تستطرد فتذكر ماتريد ذكره وكأنك غير قاصد لذكره بالذات ، بل قد حصل ووقع ذكره بالعرض من غير قصد ، ثم تدعه وتتركه وتعود إلى الأمر الذي كنت فيه كالمقبل عليه وكالملغي لما استطردت بذكره (٣) بينما حقيقة الأمر أنك قصدت هذا الخروج ولكنك أردت أن يبدو سريعاً غفلاً من غير قصد ، تصيب به غرضاً ثم تعود إلى ماكنت فيه وكأن شيئاً لم يكن وكأنه جاء عفواً بينما أنت لم تقصد قصدك حقيقة إلا إليه (٤) .

وينسب القرطاجني إلى أهل البديع أنهم يسمون ماكان الخروج فيه بتدرج تخلصاً وما لم يكن بتدرج ولا هجوم ولكن بانعطاف طارئ على جهة الالتفات استطراداً (٥) .

فالاستطراد لايكون التخلص فيه بتدرج وانتقال من الشيء إلى مايناسبه ويشبهه ولكن « بالتفات الخاطر حيزاً من حيز ، وملاحظته طرفاً من طرف ، فيعطف إلى مايريد التخلص إليه بما يكون مناقضاً له أو مخالفاً أو شك انعطاف ، من غير مقدمة تشعر بذلك أو واسطة تنظم بين الطرفين ، ولكن بالخروج من أحدهما والتخلي عنه دفعة إلى الآخر على جهات من المآخذ » (٦) .

وهذا الخروج ينبغي أن يكون له وجه « وذلك بأن يلاحظ في المتخالفين صفة يجتمعان فيها من حيث لايشعر فيكون ذلك طريق النقلة من أحدهما إلى الآخر على

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ١٠٢ .

(٢) انظر الطراز ٣/ ١٢ .

(٣) أنوار الربيع ١/ ٢٢٨ .

(٤) انظر العمدة ١/ ٦٣١ .

(٥) منهاج البلغاء ٣١٦ .

(٦) المرجع السابق ٣١٩ ، ٣٢٠ .

سبيل تشبيه أو محاكاة ، أو بأن يضرب عن أحدهما في مقصد ويعتد بالآخر فيه ، أو بأن يسلب عن أحدهما ما أوجب للآخر ، وقد يكون المأخذ في ذلك على غير هذه الأنحاء»(١) .

وهذا الفن دقيق المسلك يضفي على الكلام طرافة وجدة ، وينقل نظر المتلقى من معنىً إلى آخر يلفته إليه لفتة سريعة ثم يعيده إلى ماكان فيه وقد حقق غرضه من تلك اللفتة وأصاب هدفه من تلك اللمحة ، لذلك كانت هناك أمور يجب اعتمادها عند تعاطي هذا الفن ، منها التحرز من انقطاع الكلام ، ومن التضمين ، والحشو ، والإخلال واضطراب الكلام ، وقلة تمكن القافية ، والنقلة بغير تلطف ، والاضطرار في ذلك إلى الكناية عما يجب التصريح به والإبانة عنه ، والتلطف في مايوقع الكلام أحسن مواقعه ويجريه على أقوام مجاريه من أضداد هذه الأشياء ، ومما يجب أيضاً اعتماده أن يجهد في تحسين البيت التالي لبيت التخلص ، حتى يصل به ماانقطع من معنى ، فلا يظهر اختلال في نسق الكلام ، فإن النفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن من الكلام إلى فن مشابه له ومنتقلة من معنى إلى معنى مناسب له ثم انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما وملائم بين طرفيهما ، وجدت الأنفس في طباعها نفوراً من ذلك ونبت عنه (٢) .

ويكون الاستطراد في المدح كما يكون في الهجاء، ولكنه في الهجاء أشهر وأكثر وقوعاً ، وهو باب واسع من أبواب السخرية وأسلوب فذ من أساليبها ، لذلك نرى الزركشي يعرفه بقوله : « هو التعريض بعيب إنسان بذكر عيب غيره » (٣) ، فالاستطراد عنده تعريض ومعايبة مع أنه يمكن أن يستطرد إلى غيرهما من المعاني إلا أن قوله ذلك فيما

---

(١) منهاج البلغاء ٣١٩ ، ٣٢٠ . .

(٢) انظر المرجع السابق ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٠٠ .

يبدو من قبيل التغليب « ذلك لأن الاستطراد أكثر مايجيء في الهجاء »(١)، فهو لمحة سريعة والتفاتة خفيفة يقضي بها الشاعر وطراً ثم يعود إلى ماكان فيه ، وهذا اللمح والسرعة والالتفات أحد عناصر قوة السخرية ، لذلك كان هذا الفن والأسلوب باباً عظيماً من أبواب السخرية ، بينما يكون الشاعر آخذاً في معنىً إذ به يفاجيء الجميع بالتفاتة سريعة أشبه ماتكون بالصعق الكهربائي أو انقضاض البازي يصيب بها خصماً أو ينكي بها عدوا ، ثم هو مع ذلك يتظاهر بأنه لم يقصد هذا الالتفات وحقيقة الأمر أنه ربما لم ينظم القصيدة إلا من أجل ذلك .

وعنصر المفاجأة والتحول السريع هنا له دور كبير في إضفاء القوة على هذه السخرية ، وبإظهار الساخر في صورة المتعالي المترفع الذي لم يقصد السخرية من خصمه بل قعد الخصم في طريق قافيته ، ثم إن ذلك الهجاء وتلك السخرية يوردها الساخر وكأنها شيء مسلم به مما يضفي عليها قوة ادعاء تجعلها تبدوا للقارئ صفة لازمة للمسخور منه .

ومما يزيد هذه السخرية أيضاً قوة ونكاية – مع اصطناع التغافل – التصريح باسم المستطرد إليه والمسخور منه ، ومفاجأته بهذا الالتفات والتصريح (٢) ، فيقفى البيت بهذا الاسم الصريح ، أو يكون في تضاعيفه ، وكلما أمكن وضع هذا الاسم في القافية كان أحسن موقعاً من النفس (٣) .

وقد أدرك بعض الشعراء ذوي المواهب الجليلة ، الذين يحسنون تصريف الكلام واستغلال كل كلمة أو لفتة في النيل من خصومهم والسخرية بهم أدركوا ما للاستطراد إلى السخرية من أثر قوي على خصومهم ، فضمنوه شعرهم بل وافتنوا فيه وتفكهوا به في

---

(١) انظر المصباح ٢٣٤ ، وشرح عقود الجمان ٢/ ١٤٦ ، وخزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ١٠٢ وتحرير التحبير ١٣٠ .

(٢) تحرير التحبير ١٣٠ ، وخزانة الأدب وغاية الأرب ١٠٢ .

(٣) انظر منهاج البلغاء ٣١٨ ، ٣٢٠ .

مجالسهم ، أنشد أبو تمام البحتري يوماً لنفسه في صفة فرس واستطرد يهجو عثمان بن إدريس الشامي : (١)

وسابح ، هطل التعداء هتان   على الجراء أمين غير خوان

أظمى الفصوص ، وما تظمى قوائمه   فخل عينيك في ظمآن ريان

لو تراه مشيحاً ، والحصى زيم   تحت السنابك من مشى ووحدان

أيقنت – إن لم تثبت – أن حافره   من صخر تدمر ، أو من وجه عثمان

ثم التفت إلى صاحبه فقال : أتدري ماهذا من الشعر ؟ قال : لا أدري ، قال : هذا الاستطراد ، أو قال : المستطرد (٢) .

فما وجه عثمان هذا ، وما الذي جاء به في هذا المكان ، إنه امتهان الشاعر لهذا الوجه ، وعبثه به .

وسلك البحتري هذا المسلك فقال يستطرد إلى السخرية من حمدوية الأحول : (٣)

وأغر في الزمن البهيم محجل   قد رحت منه على أغر محجل

كالهيكل المبني إلا أنه   في الحسن جاء كصورة في هيكل

يهوي كما تهوي العقاب وقد رأت   صيداً ، وينتصب انتصاب الأجدل

ما أن يعاف قذى ولو أوردته   يوما خلائق حمدوية الأحول

---

(١) العمدة ١/ ٦٢٩ .

(٢) العمدة ١/ ٦٢٩ ، ٦٣٠ .

(٣) ديوان البحتري ٣/ ١٧٤٠ ، ١٧٤١ .

فمن هذا الأحول العسر الذي قعد في طريق القافية ، ثم انظر إلى براعة هذا الشاعر وسرعة التفاته ليسخر من هذا الذي كان خصماً لممدوحه ، فبينما هو يصف فرساً إذا به يلتفت إلى هجاء خصمه والسخرية منه بشكل يظهر هذه السخرية وكأنها أمر مسلم يمثل به ، وكأنه هو لم يقصد لذلك ولا أراده وإنما جرته القافية « ولو أقسم إنسان أنه ما بنى القصيدة منذ افتتاحها إلا على ذكره ولذلك أتى بها على روي اللام ، لكان صادقا»(١) .

ومن أول أمثلته قول السموءل : (٢)

ونحنُ أناسٌ ، لا نرى القتلَ سُبَّةً   إذا ما رأتهُ عامرٌ وسَلُولُ

فمدح نفسه وقومه ، واستطرد إلى هجاء عامر وسلول .

ومنه قول جرير :

لمَّا وضعتُ على الفرزدقِ مِيسَمِي   وَضَغَا البَعِيثُ ، جدعْتُ أنفَ الأخطلِ

فهجا واحداً واستطرد باثنين (٣) .

ويروى أن الفرزدق وقف على جرير بالبصرة وهو ينشد قصيدته التي هجا فيها الراعي ، فلما بلغ إلى قوله :

(بها برصٌ بأسفل أسكَتيها)

وضع الفرزدق يده على فيه ، وغطى عنفقته ، فقال جرير :

---

(١) انظر أنوار الربيع ١/ ٢٢٩ .

(٢) العمدة ١/ ٦٢٨ .

(٣) المرجع السابق .

(كعنفقة الفرزدق حين شابا)

فانصرف الفرزدق وهو يقول : اللهم أخزه ، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لايقول غير هذا ، ولكنني طمعت أن لايأتي به ، فغطيت وجهي ، فما أغنى ذلك شيئا ، ويقال إن جريراً مافطن لهذا المصراع إلا حين غطى الفرزدق عنفقته (١) .

ولبشار يسخر من أحمد بن هشام فيستطرد إلى ذكر عيه : (٢)

فما ذر قرن الشمس حتى كأننا من العي نحكي أحمد بن هشام

ومنه قول ابن المعتز يسخر من شعر ابن سعيد : (٣)

ولقد شربت مدامة كرخية مع ماجد طلق اليدين حميد

علت بماء بارد فكأنهـــا علت ببرد قصيدة ابن سعيد

فبينما يصف الشراب ومجلسه إذ به يجد مناسبة يسخر فيها من خصمه فيستطرد إلى ذكر شعره الذي بدا فيه البرود وكأنه صفة أصيلة يشبه بها ، فهذا الادعاء وتلك الالتفاتة السريعة إلى قصيد ابن سعيد وعنصر المفاجأة ، كلها مقومات تجعل لهذه السخرية وقعاً طريفاً في نفس القارئ، وأليماً في نفس ابن سعيد .

ويبدو أن برود بعض الشعراء أغرى غير ابن المعتز بالسخرية به ، فأخذ يستطرد قائلا : (٤)

---

(١) معاهد التنصيص ١/ ٣٨٢ .

(٢) الصناعتين ٤٥٠ .

(٣) البديع في نقد الشعر ، لابن منقذ ١٢٤ .

(٤) المرجع السابق .

وشــادنٍ بالدلالِ عاتبــني   ومُنْيتي في تدلُّل العــــاتبْ
وكان ردّي عليه من خجلي   أبردَ من شعرِ خالدِ الكاتبْ(*)

وللسري الرفـاء(**) في بـرود بعض الشعـراء استطرادات سـاخرة جـميلة يقول: (١)

لنا روضةٌ بالدار صِيغَ بزَهْــرِها   قلائدُ من حُلْي النّدى وشُنُوفُ
يطيفُ بنا فيهــا إذا ماتبســمت   نسيمٌ كعقْــلِ الخالديِّ ضعيفُ
وماءٌ، حكى أشعارَ حمْـدٍ ببردِهِ   ولكنــه يُحْيّ، وتلك حُتُـوفُ

استطرادات عجيبه ، فهـذه الروضة الجميلة يطيف بها النسيم اللطيف الذي لايدانيه في لطفه وضعفه ورقته إلا عقل الخالدي ، ويسري فيها الماء البارد الذي لايشبهه في بروده إلا شعر حمد إلا أنه ماء حياة أما شعر حمد فزمهرير يميت النفوس ، انظر كيف استطرد إلى السخرية من عقل الخالدي وشعر حمد بينما هو يصف تلك الروضة الغناء .

والاستطراد يمكن أن يخرج إلى معان كثيرة ، ولكنه في الهجاء والسخرية أشهر وأكثر شيوعاً ، لذلك رأينا - كما سبق - بعض العلماء يجعله تعريضاً بالعيوب ، لأن الاستطراد أكثر مايجيء في الهجاء .

(*) خالد بن يزيد ويكنى أبا الهيثم . من أهل بغداد وأصله من خراسان اتصل بعلي بن هشام وإبراهيم ابن المهدي ، كانت بينه وبين بعض معاصريه من الشعراء مهاجاة مشتهرة ، وسوس في آخر عمره . الأغاني ٢٠/ ٢٧٤ .

(**) السري بن أحمد بن السري المعروف بالسرى الرفاء ، شاعر مشهور ، مدح سيف الدولة والوزير المهلبي ، توفي ببغداد سنة ٣٦٢ هـ . معجم الأدباء ١١/ ١٨٢ .

(١) البديع في نقد الشعر ١١٩ .

المبالغة الساخرة

المبالغة من الفنون البديعية التي كثر جدل النقاد والبلاغيين حولها « فالناس فيها مختلفون منهم من يؤثرها ويقول بتفضيلها ، ويراها الغاية القصوى في الجودة ، ومنهم من يعيبها وينكرها ويراها عيباً وهُجْنة في الكلام » (١) .

والرأي الوسط في هذه المسألة ، والذي عليه أكثر علماء البلاغة المتأخرين ، أنهم يقبلون أنواع المبالغات كلها من تبليغ وإغراق ، أما الغلو فإنهم يقبلون منه ما اقترن به مايقربه من الإمكان ، مثل : كاد ولو وما أشبههما ، أو ماتضمن نوعا حسناً من التخييل أو ماكان خارجاً مخرج الهـزل(٢) .

يذكر ابن رشيق عدداً من المبالغات يصفها بأنها من أحسن المبالغات وأغربها ويستجيدها ولا يرى فيها إحالة للمعنى ثم يعقب بقوله : « فأما الغلو فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها ويقع فيه الاختلاف لا ماسواها مما بينت ، ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه ، وعيبت الاستعارة إلى كثير من محاسن الكلام » (٣) .

ومما يدل على قبول هذا الأسلوب جريانه وشيوعه حتى أصبح ظاهرة أسلوبية «شاع التعليل بها في تراثنا النقدي والبلاغي شيوعاً ضم الكثير من الصور البيانية من تشبيه ومجاز ، واستعارة ، وكناية ، والكثير من تنوع الأساليب من تقديم ، وأمر ، ونهي ونداء واستثناء ، والكثير من صور التوكيد ، وشمل كثيرا من أبواب البديع » (٤)

---

(١) انظر العمدة ١/ ٦٤٩ ، ٦٥٠.

(٢) علوم البلاغة ، للمراغي ٣١٣ – ٣١٦ .

(٣) العمدة ١/ ٦٥٢.

(٤) انظر المبالغة في البلاغة العربية تاريخها وصورها ، عالي القرشي ٢٩٥ .

والمبـالغة هي أن يدعى لوصف بلوغـه في الشـدة أو الضـعف حـداً مسـتحيـلاً أو مستبعداً ، لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف (١) .

وأنواعها ثلاثة : (٢)

أولها : التبليغ ، وهو إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة .

أما النوع الثاني فهو الإغراق ، وهو وصف الشيء الممكن البعيد وقوعه عادة .

أما الثالث ، فهو الغلو ، وهو وصف الشيء بما يستحيل وقوعه .

وتجيء المبالغة بأساليب وطرق كثيرة ، منها : صيغ المبالغة القياسية المعروفة : فعال ، ومفعال ، وفعول ، وفعيل ، وفعل ، والتي نظمها ابن مالك في ألفيته (٣) .

ومنها الصور البيانية من تشبيه ، ومجاز ، وكناية ؛ لأنه لايعدل عن الكلام المجرد إلى التشبيه ولا عن الحقيقة إلى المجاز ولا عن التصريح إلى الكناية ، إلا لأغراض لاتؤديها هذه الأصول .

ومنها ترادف الصفات ، كما في قوله تعالى : **﴿وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونآ إليه وفى ءاذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عملون﴾**(٤) .

ومن هذه الأساليب ، تلك المعاني المخترعة التي تجود بها قرائح الشعراء ، وذوي الفطن .

ومنها الإيغال وهو ضرب من المبالغة إلا أنه في القوافي خاصة ، عرفه الأصمعي

---

(١) الإيضاح ٤/٣٥٨ ، ٣٥٩ .

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢/٨ .

(٣) انظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٣/ ١١١ .

(٤) الآية (٥) من سورة فصلت .

بأنه مايعمد إليه الشاعر عند انقضاء كلامه وقبل القافية ، فيستكمل بها بيته ويفيد بها معنى بديعاً(١) .

ومن أساليبها في علم البديع ، حسن التعليل ، وتجاهل العارف ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم (٢) .

والسخرية سبيلها المبالغة في إظهار العيوب والنقائص ، وتضخيمها وتكبيرها لالتقاط صورة مشوهة ومضحكة للمهجو ، تقوم هذه السخرية على المغالطة التركيبية المتخيلة للشخصية المهجوه أو المظهر الذي يراد انتقاده والسخرية منه . فالسخرية نوع من النقد يعتمد على المبالغة في تصوير العيب أو النقص ، ويبرز وجه التناقض على شكل مضحك . وهذه المبالغة في تضخيم العيوب وتشويه الصورة لاتتعارض مع الصدق الفني لدى الشاعر . وغلو الشاعر في السخرية وسيلة يتوسل بها للتعبير عن الأفكار التي تكاملت في ذهنه ، فالأسلوب الساخر يراد به كل نتاج يعمد إلى كتابة موضوع جدي بمنوال ساخر وذلك بالمبالغة ، والغلو في العرض ، ولايراد السخر أو التهكم لذاته وإنما كان ومايزال طريقاً فنية معبرة يستخدمها الشاعر للإعلان عما تضخم في نفسه من أفكار وخواطر(٣) .

إن مقام الهجاء والسخرية اللاذعة يستدعي توفير أشنع صفات الذم للمذموم والمبالغة فيها حتى تكون السخرية أوجع ، وبمقياس المبالغة في صفات الذم تقاس السخرية علواً وإيجاعاً وقوة وإحكاما (٤) .

---

(١) انظر العمدة ١/ ٦٥٤ ، والصناعتين ٤٢٢ .

(٢) انظر المبالغة في البلاغة العربية تاريخها وصورها ٢٦٣ – ٢٨٥ .

(٣) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٣٦١ .

(٤) الصبغ البديعي ٤٨٥ .

وتتسع معاني الهجاء والسخرية للمبالغة والمغالاة فهما من الفنون التي تكون المبالغة في معانيها أمرا ليس مقبولا فحسب ، بل مطلوبا عند كثير من الساخرين ، فهذا جرير يوصي بنيه فيقول : إذا هجوتم فخالفوا ، ويقول : إذا هجوت فأضحك (١) فالمخالفة والإضحاك سبيلها المبالغة والإفراط في رسم الصور المضحكة . والسخرية شأنها في ذلك شأن بقية الفنون كالمديح والغزل مثلا ، فكثير من المديح بعيد عن الحقيقة ولكنه صورة للنموذج الذي يتخيله الشاعر في ممدوحه الفاضل الكامل ، وكثير من الغزل فيه مغالاة ، ولكننا نتقبلها لأنها تعبر عن المعاناة التي يصورها لنا المحبون العاشقون فهؤلاء يبالغون توكيداً لمعانيهم وتوضيحاً لها . ويحاول الساخر أن يسلب كل المثل والقيم الكريمة الفاضلة في مهجوه ، راميا له بعيوب الدنيا كلها إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، يصدر في ذلك عن غضب وسخط وربما عن حقد أيضا ، وهذا كله يدفعه إلى أن يبالغ ويغالي فيما يرمي به مهجويه من رذائل ونقائص في مظهرهم أو مخبرهم وفي شكلهم أو باطنهم(٢) .

وهذه المبالغات التي تتبين للقارئ تستساغ حين يقدمها الشاعر في إطار فيه جمال وإحكام ، حتى وإن أفرطت في المبالغة ووصلت إلى حد الغلو ، خصوصا إذا أخرجت مخرجا يقربها من الإمكان أو تضمنت نوعاً حسناً من التخييل ، أو كانت خارجة مخرج الهزل والسخرية (٣) فإن الساخر لايعبأ أن يعبث بمهجوه فيبالغ في تشويهه ورميه بكل نقيصة بل ويغلو في ذلك ويذهب إلى أبعد مايمكن أن تسول له نفسه التي تحاول أن تشفى مابداخلها ، فإن لم تبلغ الغاية ظلت تبحث عنها ، وفي قصة جرير حين هجا الراعي

---

(١) انظر العمدة ٢/ ٨٤٩ .

(٢) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

(٣) انظر علوم البلاغة ٣١٥ ، ٣١٦ .

النميري خير مثال ، حيث ظل يدور في بيته كالمجنون يقرض البيت تلو الآخر حتى إذا مابلغ قوله : « فغض الطرف .... » استراح لأنه أحس أنه قد شفى مابنفسه(١) .

ومع اختلاف النقاد القدامى في نظرتهم إلى هذا الأسلوب ، إلا أننا نجد كتب الأدب والنقد مليئة بالأمثلة التي اتخذت من المبالغة سبيلاً إلى السخرية ، بل إننا نجد بعض أولئك النقاد قد أفرد للمبالغة باباً أو فصلاً في مؤلفه ، كما فعل قدامة في نقد الشعر وأبو هلال العسكري في الصناعتين ، وابن رشيق في العمدة ، ولم أقصد استقصاء كل كتاب أفرد للمبالغة بابا أو فصلا ، إنما أردت أن أؤكد أن هذا الأسلوب قد نال حظاً غير قليل من العناية والرعاية .

وسوف أنظر في الأمثلة التي أوردها قدامة وأبو هلال العسكري في كتابيهما وتعليقاتهما على هذه الأمثلة .

فقدامة أفرد فصلاً في كتابه نقد الشعر للمبالغة ، وحدها بقوله : « وهي أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده فلا يقف حتى يزيد في معنى ماذكره من تلك الحال مايكون أبلغ في ماقصد له » (٢) .

ولكن تطبيق هذا الحد على المبالغة يخرج منها مايدل على المبالغة ابتداء ، إذ إن قدامة في حده هذا يبين أنها تأتي تتمة أو تكملة بعد ذكر الشاعر الحال المجزية في المعنى ولهذا لايدخل ماحمل المبالغة ابتداء في هذا الحد ، وهذا يتضح من خلال الأمثلة التي مثل بها لمفهوم هذا الحد(٣) .

---

(١) انظر العمدة ١/ ١٢٦ .

(٢) نقد الشعر ١٤١ .

(٣) انظر المبالغة في البلاغة العربية تاريخها وصورها ٣٣ .

فمن أمثلته التي جاء الأسلوب فيها مبالغة ساخرة ، قول الحكم الخضري(*) : (١)

وأقبح من قرد ، وأبخل بالقرى　　　من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف

يعلق قدامة على هذا البيت بقوله : « فقد كان يجزئ في الذم أن يكون هذا المهجو أبخل من الكلب ، ومن المبالغة في هجائه قوله (وهو غرثان أعجف) . الغرثان : الجائع والأعجف : النحيف الذي ذهب سمنه ، فالكلب بخيل على ماظفر به ، وهو أشد بخلاً إذا كان جائعا أعجف (٢) .

ومن ذلك أيضا قول أوس بن غلفاء الهجيمي(**) : (٣)

وهم تركوك أسلح من حبارى　　　رأت صقراً ، وأشرد من نعام

ففي قوله : رأت صقراً ، مبالغة (٤) .

وفي فصل آخر سماه قدامة نعت الهجاء ، بين فيه وجه الهجاء وطريقته ثم أخذ يضرب الأمثلة على ذلك ويعلق عليها ، وقد جاء بأمثلة بالغ فيها الشعراء في الهجو والسخرية من خصومهم، وقدم لذلك بقوله : « ومنهم من يفرط في ذكر نقيصة واحدة كما يغلو عند المدح فى فضيلة واحدة»(٥) .

(*) الحكم بن معمر الخضرى شاعر إسلامي ، كثير السجع ، هجاء ، تهاجا وابن ميادة الشاعر زمناً طويلا ثم اصطلحا . معجم الأدباء ١٠/ ٢٤٠ .

(١) نقد الشعر ١٤١ .

(٢) المرجع السابق .

(*) أوس بن غلفاء الهجيمي التميمي من شعراء المفضليات عده الجمحي في الطبقة الثانية من فحول الجاهلية . الأعلام ٢/ ٣١ .

(٣) نقد الشعر ١٤٣ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق ٩٩ .

فيرى أن بعض الشعراء قد بالغوا وأفرطوا في الهجاء والسخرية من خصومهم وذلك بتتبع عيب من عيوبهم والإفراط في ذكره والسخرية منه كما يقول في المثال الذي أورده للحطيئة : « فمن ذلك للحطيئة يغرق في ذكر البخل وحده : (١)

كَدَدْتُ بأظفاري وأعملتُ مِعْـــولي   فصادفتُ جُلموداً من الصخر أمْلسا

تشاغَلَ لما جئتُ في وجـــهِ حاجتي   وأطرقَ حتى قلتُ قد ماتَ أو عَسىٰ

وأجـمعتُ أنْ أنعاهُ حين رأيتُـــه   يفُوقُ فُواقَ الموت حتي تنفَّسَا

فـقلتُ له : لابأس لســـتُ بعـائدٍ   فـأفـرخَ تعلوه السَّمـاديرُ مُـبْلسَا

وجرير في ذكر الجهل : (٢)

ولا تتَّقونَ الشرَّ حتى يُصيبُكمْ   ولا تعرفونَ الأمرَ إلا تدبُّرا

كما أن أبا هلال العسكري أفرد في كتابه الصناعتين لكل من المبالغة والغلو فصلا مستقلا ضمن فصول باب البديع ، وعرف كلاً منهما ، فعرف الغلو بأنه « تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لايكاد يبلغها » (٣) .

والمبالغة عنده ، هي أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته ، وأبعد نهاياته ، ولاتقتصر في العبارة عنه أدنى منازله ، وأقرب مراتبه » (٤) .

---

(١) نقد الشعر ٩٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الصناعتين ٣٩٤ .

(٤) المرجع السابق ٤٠٣ .

ومن خلال هذين التعريفين يتضح تفريقه بينهما ، حيث يرى أن الغلو فيه تجاوز للحد ، أما المبالغة فليس فيها هذا التجاوز ، وإنما هي البلوغ بالمعنى .

ثم أخذ أبو هلال يورد الأمثلة لكل فصل ، وقد لاحظنا أنه أكثر من ذكر الأمثلة التي هي عبارة عن صور هزلية ساخرة تقوم مقام الصور الكاريكاتورية المعروفة الآن فمن ذلك تمثيله بقول القائل :(١)

لقد مر عبدالله في الســـوق راكبا   له حاجة من أنفـــــه ومطرق

وعنت له في جانب السوق مخطة   توهمت أن السوق منها سيغرق

فأقذر به أنفـــا وأقـــذر بربـــــه   على وجهــه منه كنيف معلــق

ومنه قول الآخر :(٢)

أنت في البيت وعرنيـ   ـنك في الدار يطوف

ومنه أيضا ، قول الشاعر : (٣)

وتبكي السماوات إذا مادعى   وتستغيث الأرض من سجدته

لما اشتهى يوما لحوم القطـــا   صرعهـا في الجو مــن نكهته

ويشير أبو هلال إلى بعض الصور الساخرة التي اتخذ فيها الشعراء من المبالغة في صفة من الصفات سبيلا للسخرية ، فيقول : « وكما أفرطوا في صفة الطول كذلك أفرطوا في صفة القصر » (٤) .

---

(١) الصناعتين ٤٠٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ٣٩٩ .

(٤) المرجع السابق .

ثم يمثل على ذلك الإفراط بعدة أمثلة ، منها ماقاله بعض المحدثين في قصير : (١)

وقـصـيـرٌ لا تعـملُ الشـمسُ ظـلاً لقـامـتِـهِ

يعـثُـرُ النـاسُ في الـطريق به من دمـامـتِـهِ

وقول أبي عثمان الناجم(*) : (٢)

ألا يابيْدقَ الشّطْرنْجِ في القيمةِ والقَامَةِ

ثم يذكر أبو هلال بعد ذلك رأيه في الغلو ، أو مايسميه « بالإفراط الشديد » فيقول : « ومن الناس من يكره الإفراط الشديد ويعيبه ، وإذا تحرز المبالغ واستظهر فأورد شرطا أو جاء بكاد وما يجري مجراها يسلم من العيب » (٣) .

ويورد بعد ذلك الأمثلة ، ومنها هذا المثال الساخر الذي بالغ فيه الشاعر وغالى في السخرية من بنى أسد ، يقول الشاعر : (٤)

لو كان يخفي على الرحمن خافية   من خلقه خفيت عنه بنو أسـدِ

قـوم أقـام بـدار الذل أولُهـم   كما أقامت عليـه جذْمَةُ الوتدِ

ومن المبالغة عند أبي هلال نوع آخر يعرفه بقوله : « هو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عليها أجزأته في غرضه منها ، فيجاوز ذلك حتى يزيد في المعنى زيادة توكده ويلحق

---

(١) الصناعتين ٣٩٩ .

(*) سعد بن شداد السمعي أديب شاعر صحب ابن الرومي وروى شعره توفى سنة ٣١٤ هـ . معجم الأدباء ١١/ ١٩٣ .

(٢) الصناعتين ٣٩٩ . .

(٣) المرجع السابق ٤٠١ .

(٤) المرجع السابق ، البيتان للطرماح بن حكيم كما في ديوان المعاني ١/ ١٧٦ .

به لاحقة تؤيده » (١) ثم يسوق لهذا النوع أمثلة ، منها قول الحكم الخضري في رجل : (٢)

وأقبح من قرد ، وابخل بالقرى　　من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف

ويرى أن حماد عجرد قد أخذ من هذا القول قوله في هجاء بشار والسخرية منه : (٣)

و يا أقبح من قرد　　إذا ما عمي القرد

إن كثرة هذه الأمثلة الساخرة التي بالغ فيها الشعراء في السخرية من مهجويهم ووفرتها في كتب النقد والأدب ، وكثرة التمثيل بها في الكتب التي أفرد مؤلفوها أبوابا أو فصولا للمبالغة ، يدل على أن هذا الأسلوب شائع مستساغ مشهور عندهم ، فالسخرية نمط من الهجاء إلا أنه هجاء ضاحك ، تكون مقبولة مابتعدت عن الغلو الذي ليس له حدود ، أو ذاك الذي لايرعى لأي شيء حرمه ، لايكون هم الشاعر فيه إلا أن يوقع بمهجوه كل رذيلة ، ويلصق به كل خسيسه ، يدفعه إلى ذلك غضب وسخط قد امتلأت به نفسه ، فيأتي بالغلو المرفوض غير المقبول المستساغ ، ومن ذلك مثلا أبيات لابن الرومي أفرط فيها في التشهير والطعن والإفحاش على الشاعر ابن الخبازه ، يقول : (٤)

كل فحل أبوك عدلا من اللـــ　　ـــه ، وعيسى بلا أب كاليتيم

كثرت موبقـــات بوران حتى　　ضاق عنها عفو الغفور الرحيم

---

(١) الصناعتين ٤٠٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ديوان ابن الرومي ٦/ ١١٤ .

فهذان البيتان من جملة أبيات على مافيها من مبالغة في الذم والتجني ، فإنها مبتذلة المعاني بذيئة العبارة يأباها الذوق وتعافها النفس ، إذ كان فيها الشاعر بذيئاً إلى أبعد حدود البذاءة ، متكلفا الخوض في قاع الدنس والرذيلة ، حاشدا لصور العهر والفجور في مغالاة مفرطـه(١) .

ولعل من المبالغات الساخرة البديعة المقبولة ، قول دعبل في بخيل :(٢)

إن هـــذا الفتى يصـــونُ رغيفـــاً ... ما إليـــه لناظـــرٍ من ســـبيلِ

هو في سُـــفرتين مـــن أَدَمِ الطـــا ... ئف ، في سلَّتين ، في منـــديلِ

خُتمـــتْ كلُّ ســـلةٍ برصـــاص ... وسُـــيُورٍ قُدِدْنَ من جلدِ فيـــلِ

في جِرابٍ في جوف تابوتِ موسى ... والمفاتيـــحُ عنـــد ميكائـــيلِ

ومن المبالغات الساخرة ، وهو أبلغ ماقيل في الاحتقار ، والتقليل ، والجبن على رأي أبي هلال العسكري ، قـول الطرمـاح بن حكيم في هجـاء (تميم) والسـخـرية منهم :(٣)

تميمٌ بطُرْق اللُّؤمِ أهدى من القَطَـــا ... ولو سلكت سُبلَ المكارم ضَـلَّتِ

ولو أن حُرْقُوصاً على ظـــهر نملـةٍ ... تَشُـــدُّ على صَفَّي تميـــمٍ لولَّت

ولو جَمعتْ يوماً تميمٌ جُمُوعَهَـــــا ... على ذرَّةٍ معْقـــولةٍ لَا سْـــتَقلَّتِ

ولو أنَّ أم العنكبـــوتِ بَنَتْ لهـــا ... مظلَّتَهَا يومَ النـــدى لَاسْـتَظلَّتِ

ولو أنَّ بُرْغُوثـاً يرفـق مســـكه ... إذاً نَهَلَـــتْ منه تميـمٌ وَعَلَّـــتِ

---

(١) انظر اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ٤٠٦ .

(٢) شعر دعبل ١٧٤ .

(٣) ديوان المعاني ١/ ١٧٥ .

لقد بالغ الطرماح في السخرية من هؤلاء القوم ، وأخرج كلامه مخرج الهزل والعبث ، ووصل إلى الغاية التي أراد وهي السخرية والتهكم بهم .

وبعد فإن مقام السخرية والتهكم يستدعي حشد كل الوسائل التي توصل إلى هذه الغاية ، وإن الشاعر أو غيره حينما يسخر يحاول أن يوفر لسخريته أشنع الصفات حتى تكون في أثرها أوجع ، فنراه يسلك إلى المبالغة الطريق حتى يصل إلى الغاية التى يريد .

السخرية
والهجاء في معرض المدح

هذا النوع من البديع من الأنواع التي سلمت لابن أبي الإصبع وعد من اكتشافاته يقول ابن حجة : « هذا النوع من مستخرجات ابن أبي الإصبع » (١) . وسلم له بذلك الشيخ صفي الدين الحلي ، وابن معصوم المدني (٢) .

وقد عرفه ابن أبي الإصبع بقوله : « هو أن يقصد المتكلم إلى هجاء إنسان فيأتي بألفاظ موجهة ، ظاهرها المدح وباطنها القدح ، فيوهم أنه يمدحه وهو يهجوه » (٣) .

ومثل له بقول بعضهم في بعض الأشراف : (٤)

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقاً عليه لغيره وهو الرسول

يقول ابن أبي الإصبع : « فأما ألفاظ البيت الأول على انفرادها فلا تكاد تصلح إلا للمدح ، ولا يفهم منها غيره ، وأما البيت الثاني لو انفرد أيضاً لما فهم منه مدح ولا هجاء وكان إلى باب من الأبواب أقرب من هذين البابين ، لكنه لما اقترن بالأول أهل نفسه وأخاه للهجاء ، وعدل بألفاظهما عن الثناء وحصل من اجتماعهما ماليس لكل منهما على انفراده » (٥) .

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ٢٦١ .
(٢) أنوار الربيع ٣/ ٦٠ .
(٣) تحرير التحبير ٥٥٠ .
(٤) الشاعر هو أبو عاصم المديني ، واسمه محمد بن حمزة الأسلمي ، وقاله في الحسن بن زيد بن الحسين بن على « رضي الله عنهم » انظر العمدة ٢/ ٨٤٨ ، ٨٤٩ .
(٥) تحرير التحبير ٥٥٠ .

وهذا ذم فيه عدول وتعريض ، وقد روي أن شاعراً مدح الحسين بن على رضي الله عنهما ، فأجزل عطيته ، فعوتب على ذلك فقال : أتروني خفت أن يقول : لست ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ولا ابن على بن أبي طالب ؟ ولكن خفت أن يقول : لست كرسول الله ﷺ ، ولست كعلي ، فيصدق ويحمل عنه ويبقى مخلدا في الكتب ومحفوظا على ألسنة الرواة . فقال الشاعر : أنت والله يا بن رسول الله أعلم بالمدح والذم مني(١) .

ومن أمثلة ابن أبي الإصبع ، قول عبدالصمد بن المعذل(*) أو أبي العميثل(**) في أبي تمام ، وقد كانت في لسانه حبسة : (٢)

يا نبي الله في الشعر ويا عيسى بن مريم

أنت من أشعر خلق الله ما لم تتكلم

ومن أمثلته أيضاً مثال يرى أنه نمط غير النمط الأول الذي قدمه ، ويرى أنه من لطيف التوجيه . وهو قول السعيد بن سناء الملك(***) في صاحب له : (٣)

---

(١) العمدة ٢/ ٨٤٨ .

(*) عبدالصمد بن أبي عمرو المعذل شاعر فصيح ظريف ، من فحول المحدثين توفى سنة ٢٤٠هـ. فوات الوفيات ١/ ٥٧٥ .

(**) أبو العميثل عبدالله بن خليد كاتب عبدالله بن طاهر وشاعره ، كان مكثرا من نقل اللغة ومجيدا لها ، توفى سنة ٢٤٠ هـ . وفيات الأعيان ٣/ ٨٩ .

(٢) تحرير التحبير ٥٥٠ ، ٥٥١ .

(***) هبة الله بن جعفر السعدي المصري المعروف بابن سناء الملك ، أديب شاعر ، صنف كتاب روح الحيوان وله ديوان موشحات وديوان رسائل وديوان شعر ، مات بالقاهرة سنة ٦٠٨هـ. معجم الأدباء ١٩/ ٢٦٥ .

(٣) تحرير التحبير ٥٥٠ ، ٥٥١.

لي صاحبٌ أفديه من صاحب ... حُلو التأنّي حسـنُ الإحتيالْ
لو شــاء من رقّـةِ ألفاظِــهِ ... ألَّف مابين الهُدىٰ والضَّلالْ
يكفـيك منــه أنه ربمــا ... قاد إلى المهجور طيفَ الخَيالْ

ويعجب ابن أبي الإصبع بهذا النمط ، بل ويتشبث به فينظم على غراره فيمن ادعى الفقه والكرم وهو ممن يتهم ، فيقول : (١)

ابنُ فـلانٍ أكـرمُ الناس لا ... يمنع ذا الحاجة من فِلْسِــهِ
وهو فقيهٌ ذو اجتهــادٍ وقـد ... نصَّ على التَّقليدِ في درسِهِ
يستحسنُ البحثَ على وجههِ ... ويوجب الدَّخل على نفسِهِ

ثم يعلق على هذا النمط بقوله : « وكل توطئة وقعت في هذا النمط الثاني صالحة للمدح البحت ، فإذا اقترنت بأبيات المعاني انقلب ماكان فيها مدحا تهكما ، وصارت هي بنفسها هجــاء»(٢) .

فابن أبي الإصبع يرى أن الهجاء في معرض المدح ، نمطان مختلفان : النمط الأول ، وهو الذي مثل له بالمثالين الأولين ، وهذان المثالان اذا انفرد البيت الأول في كل منهما كان مدحا محضاً ، وإذا اجتمعا صارا هجواً بحتاً فالشق الثاني من المثال هو بيت القصيد ، وهو الذي يؤهل الكلام لأن يكون هجواً ، فالمثال الأول كأن فيه مقابلة غير متكافئة تؤدي إلى تفضيل يزري بالمفضول ويظهره في صورة مذمومة . ولكن ألفاظ هذا النمط خالية من أي إشارة إلى ذم أو هجاء .

---

(١) تحرير التحبير ٥٥٠ ، ٥٥١ .

(٢) المرجع السابق .

أما المثال الثاني فإن ثاني أبياته هو أيضاً الذي أهل ماقبله لأن ينقلب ذماً بعد أن كان مدحاً ، ثم إن ألفاظه لم تخل مما يشعر بالذم والهجو ، لذلك يرى ابن أبي الإصبع أن ثاني الآخرين مخالف لثاني الأولين .

أما النمط الثاني من أنماط الهجاء في معرض المدح فإنه يخالف النمط الأول بخلو توطئته من الذم ، فهي صالحة للمدح البحت ، حتى إذا ماقترنت بأبيات المعاني انقلب ماكان فيها مدحا إلى تهكم ، فالدلالة على الهجاء والتهكم فيه أخفى منها في النمط الأول (١) .

هكذا يتناول ابن أبي الإصبع الهجاء حين يكون في معرض المدح ، وينقل ابن حجة الحموي(٢) وكذلك الدسوقي (٣) وابن معصوم (٤) التعريف نفسه الذي ذكره ابن أبي الإصبع ، ومثلوا له بقول الحماسي : (٥)

يجْزُونَ من ظُلْمِ أهلِ الظُّلْمِ مغفرةً ... ومن إساءةِ أهلِ السوءِ إحسانا

كأنَّ ربَكَ لمْ يخلقْ لخشيتِهِ ... سواهُم من جميعِ الناسِ إنسانا

فظاهر هذا الكلام المدح بالحلم ، والعفة ، والخشية ، والتقوى ، وباطنه المقصود أنهم في غاية الذل وعدم المنعة ، والكلام جاء على طريقة التوجيه يوهم أنه مدح وهو هجاء .

---

(١) تحرير التحبير ٥٥٠ ، ٥٥١ .

(٢) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ٢٦١ .

(٣) انظر حاشية الدسوقي ٤/ ٤٧٣ .

(٤) انظر أنوار الربيع ٣/ ٦٠ .

(٥) الحماسة ١/ ٥٧ ، والشاعر هو قُرَيْط بن أُنيف ، شاعر إسلامي من بلعنبر ، ولعلهم بنو العنبر ابن تميم .

وقريب من ذلك تلك الأبيات المشهورة التي هجا بها الشاعر النجاشي(*) بني العجلان ، فجاءوا يستعدون عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال عمر : وما قال لكم ؟ قالوا : إنه قال :

قبيلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليتني منهم ، أو قال : ليت آل الخطاب كذلك ، أو كلاماً يشبه هذا .

قالوا فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشــية ... إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر : ذلك أقل للكاك ، يعنى الزحام .

قالوا : فإنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم ... وتأكل من كعب وعوف ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه (١) .

وهكذا كلما جاءوا ببيت وجد له عمر تخريجاً ومحملاً ووجهاً حسنا ، ولكن لو لم يكن في هذه الأبيات توجيه وإيهام لما استطاع عمر أن يخرجها على هذا النحو ، ومن يقرأ هذه الأبيات يظن أنها مدح ، حتى إذا ماحقق النظر فيها ودقق تكشفت له عن سخرية مرة دعت بني العجلان يهرعون إلى عمر ، وعمر رضي الله عنه من أبصر الناس بما قال النجاشي ، ولكنه ربما أراد أن يدرأ الحد بالشبهة .

(*) قيس بن عمرو من بنى الحرث بن كعب أدرك عمر وكان يمدح عليا فجلده لشربه الخمر فهرب إلى الشام وتوفى بلحج . الإصابة ٣/ ٥٨٢ .

(١) انظر العمدة ١/ ١٣٠ ، ١٣١ .

ومن أمثلة هذا الفن التي ذكرها ابن الأثير الحلبي ، قول المتنبي في وصف كافور :

ولله سـر في علاك وإنما　　　كلام العدى ضرب من الهذيان

ثم يعلق عليه بقوله : « فهذا مدح موجه يحتمل أن يكون مدحا ، بحكم أن علاك فيه سر لله لم يهبه لغيرك ، ويحتمل أن يكون هجواً ، أي أنك غير مستحق للعلى وإنما لله تعالى سر في تقديم من يصلح للتقديم ولا يكون أهلاً للكرامة » (١) .

من خلال هذه الأمثلة وتلك التعليقات يظهر أن أسلوب الهجاء في معرض المدح لا يختلف عن مايسمى بأسلوب التوجيه بل إن ذلك منصوص عليه في ألفاظ التعريف التي ننقلها ، يقول ابن أبي الإصبع : « هو أن يقصد المتكلم إلى هجاء إنسان فيأتي بألفاظ موجهة » (٢) ، ويقول معلقاً على أحد الأمثلة : « هذا من لطيف التوجيه » (٣) ، ويقول ابن الأثير الحلبي معلقاً على بيت المتنبي السابق : « فهذا مدح موجه » (٤) . ويقول الدسوقي : « وهذا يدخل في قسم التوجيه » (٥) .

والحق أن أسلوب الهجاء في معرض المدح لايوافق التوجيه موافقة كاملة ، فمنه مايكون موجها يحتمل المدح والذم فيكون أكثر إبهاماً ، ومنه مايكون الذم فيه أوضح وإن جاء في معرض المدح ، ويتضح هذا في الأمثلة التي ذكرها ابن أبي الإصبع وفي تقسيمه إياها إلى نمطين .

أما من حيث الفرق بين أسلوب الهجاء في معرض المدح والتهكم ، فقد تعرض ابن أبي الإصبع لذلك فقال : « والذي أفرد هذا الباب بنفسه عن باب التهكم مع أن الذي

---

(١) جوهر الكنز ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٢) التحرير والتحبير ٥٥٠ .

(٣) المرجع السابق ٥٥١ .

(٤) جوهر الكنز ٣٠٦ .

(٥) انظر عروس الأفراح ٤/ ٤٧٤ .

فيه من المدح تهكم، هو أن التهكم لا تخلو ألفاظه من لفظة من اللفظ الدال على نوع من أنواع الذم أو لفظة يفهم من فحواها الهجو ، وألفاظ المدح في هذا الباب لا يقع فيها شيء من ذلك ، ولاتزال مفرقة ومجتمعة تدل على مجرد المدح حتى يقترن بها مايصرفها عن ذلك ، وشواهد التهكم لا تخلو من ألفاظ التهكم في أبيات التوطئة وأبيات المعاني ، وما يقع في هذا الباب من التهكم إنما يقع في التوطئة دون أبيات المعاني » (١) .

معنى ذلك أن الهجاء في معرض المدح أكثر إبهاماً ونزاهة من ألفاظ التهكم إذ ليس في ألفاظه مايشعر بالذم سواء كانت مجتمعة أو متفرقة حتى يقترن بها مايصرفها عن ذلك .

أما التهكم فإنه لا يخلو من ألفاظ تشعر بالهجو والسخرية ، فكأن قرينة الذم والسخرية في أسلوب الهجاء في معرض المدح معنوية ، أما في أسلوب التهكم فالقرينة لفظية .

ومن طريف هذا النوع قول أبي محمد الحسن الحريمي الشاعر في الشريف أبي السعادات هبة الله بن الشجري(*) : (٢)

ياســيدي والذي يُعيذُك من ... نظْـمِ قريضٍ يَصْدَا به الفِكْرُ

مَالَكَ من جدك النبي سِــوىٰ ... أنك لا ينبغــي لك الشِــعْرُ

---

(١) التحرير والتحبير ٥٥١ ، ٥٥٢ .

(*) هبة الله بن على بن محمد الحسني المعروف بابن الشجري إمام في اللغة وأشعار العرب فصيح صنف الأمالي وغيره توفى في ٥٤٢ هـ . وفيات الأعيان ٦/ ٤٥ .

(٢) أنوار الربيع ٣/ ٦٥ .

لقد قسا الحريمي وسخر من أبي السعادات من حيث بدا أنه يمدحه ، فجرده من الشاعرية ، ومن كل فضيله ، فأعاذه من نظم القريض لأن شعره يصيب الفكر بالعطب وقد أبدى الشاعر الجد والصدق في مخاطبته ، فبدأ كلامه بنداء سيده ، فأوهم السامع أنه يمدح مع أنه في الحقيقة بسخر ، وكأنه يقول للشجري إذا لم تستطع شيئا فدعه ، وما أدهى مخاطبته لخصمه بقوله «ياسيدي» التي توهم ولا شك بالمدح والثناء ، فإذا أكمل البيتان تكشف المعنى عن سخرية قاسية .

وهذا دعبل الخزاعي ، استضافه قوم فلم يطعموه حتى غلبه النوم فهجاهم بأسلوب ظاهره مدح وثناء وحقيقته هجو وسخرية ، يقول : (١)

هَناكُمْ أنكم قـومٌ كِـرامٌ ... وأن النومَ بينكُمُ طَعَـامُ

أتاكـم زائـرٌ فأَجَعْتمُـوهُ ... فلما نامَ أشْبَعَهُ المنـامُ

من يسمع هذا الكلام يظن أن دعبلاً يمدح هؤلاء القوم ، فإذا ما دقق النظر ، تبين أنه تهكم وسخرية بهؤلاء اللئام الذين أجاعوا ضيفهم من القرى وأشبعوه نوما .

ومنه قول حمدان بن أبان اللحقي في بخيل : (٢)

قد رأينا حَسَـنَ سـابا ... طِكَ والدارَ الطّـويلةْ

وعلمـنا أن فيهـا ... كل ما تُلفي القبيلـةْ

غـيرَ أن الجـنّ لا ... تُحسنُ في خُبزكَ حيلةْ

يوهمك حسن الساباط والدار الطويله والخيرات التي عمر بها هذا البخيل بيته أنه بيت كرم ، غير أنك سرعان ما تصدم بأن هذه السعة ليس فيها لطالب من نوال ، بل إنك

---

(١) شعر دعبل الخزاعي ١٨٠ .

(٢) أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق ، للصولي ٥٥ ، عني بجمعه ج . هيوارث دن .

مهما احتلت لتصيب منها شيئا فلن تفلح فهي في حصون منيعه ، لا تصل إليها حتى عفاريت الجن .

ومنه لابن الرومي يلمز نسب إسماعيل بن بلبل : (١)

جدُّك شيبانُ العظيمُ الفخرِ

حقا كما البلبلُ جدُّ الصقرِ

نَجْرٌ لعمري بائنٌ من نَجْرِ

لم تُظْلَمِ الدنيا بأم دَفرِ

وأنت فيها من ولاة الأمر

لولا دليلٌ كبياضِ الفجرِ

يشرح بالإيمان كل صدر

لقلت بالدهر كأهل الدهر

مما أرى من سوءِ هذا القَدرِ

وليس لي في عاجلٍ من صبرِ

يسخر ابن الرومي من ابن بلبل ، ومن ادعائه العربية فينسبه إلى شيبان ، ثم ينفيه عنها بطريقة ماكره ، فكما لا يكون البلبل جداً للصقر فشيبان لا تكون أصلا لإسماعيل وهذه النسبة ماهي إلا سخرية الشاعر وإظهاره الثناء الكاذب ثم إذا اطمأن خصمه إذا به

---

(١) ديوان ابن الرومي ٣/ ١٧٠ .

ينتقل إلى هجاء يكشف ما يبطنه في نفسه من تهكم ، يرينا المدح أولاً ثم إذا به يتحول عنه إلى الهجاء .

ولابن الرومي في السخرية والعبث بأبي حفص الوراق : (١)

وقــائلٍ : إن أبا حَــفْـصــــلٍ أحـمقُ مــحـتــاجٌ إلى ضَــرْبِ

لم يتــزوَّجْ حَــدَثاً ناشــئـــاً يهــتــزُّ مــثل الغُــصُن الرَّطْبِ

حــتى إذا صــار إلى حــالــةٍ تجـمعُ ضَـعْفَ البــاهِ والكسْبِ

تــزوجَ المائــقُ لاسـيــمـا في مــثلِ هـذا الزمن الصَّــعْبِ

أحــوجَ مــاكــان إلى كــاسبٍ يُجــدي عليــه جــاءَ بالأَدْبِ

زاد على عَــيْلتِـــهِ زوجــةً يا لــك مــن نَكْبٍ على نكْبِ

يحــملُ كــلاًّ وهو من ضُـرِّهِ كَلٌّ فــيــاللّهِ مــن خَطْــبِ

فــقلتُ لاتعْـجَلْ على شـيـخِنَا باللــومِ والتـعنيــفِ والعَـتْبِ

لعل مـــا تحْـسِبُ من أمــرِهِ وأمــرِها بالعكسِ والقلـــبِ

هو الذي يرتعُ في كــســبــهــا فــافطــــــن له يانائمَ القلبِ

مــامــثُلُه من ســاءَ تدبيـــرُهُ هيــهــاتَ ، إن الشـيخَ ذو إِرْبِ

لما رأى أقــلامَـــهُ أصــبــحتْ ترعى رياضَ المَحْلِ والجَـدْبِ

تَــزوجَ المســـــكينُ ليليّةً أضحى بها في الرِّفـهِ والخِصبِ

فــمن رأى مــثل أبي حــفــصلٍ في الســبِّ أو مـثلي في الذبِّ

أقـــــومُ عنـــــهُ بمعــاذيـرِهِ وهو يحــوكُ الشـعـرَ في سَــبِّي

---

(١) ديوان ابن الرومي ١/ ٣١١ ، ٣١٢ .

يحتال ابن الرومي لنفسه في هجاء هذا الأحمق والسخرية منه ، فيجرد من نفسه شخصاً آخر يتولى قذف أبي حفص بالتهم والنقائص ، ثم يدير حواراً بينه وبين هذه الشخصية المجردة المتخيله ، يتبنى دور المدافع الناصح في هذا الحوار الماكر ، فيدافع عن أبي حفص ويعتذر عن بعض أفعاله التي عيب من أجلها ويبررها تبريرات خبيثة ، فأبو حفص ليس ممن ساء تدبيره بل هو ذو أرب وعقل راجح لجأ إلى ذلك لما رأى أقلامه قد أصبحت ترعى رياض المحل ، وهذا تعبير عن الكساد الذي أصاب حرفته ومهنته إذ هو وراق ، ومن إمعانه في السخرية من خصمه نراه يحول كنيته من « أبي حفص » إلى « أبي حفصل » ، ثم يتعجب ويستفهم في مكر ودهاء ، فهو يذب عن أبي حفصل بمثل هذا الشعر ، وأبو حفص يحوك الشعر في سبه .

ومنه قول مخلد الموصلي يسخر من ادعاء أبي تمام النسب العربي : (١)

أنت عندي عــربي الـــ أصل مــافـيك كـلام
عـــربي عــــربي أجـــئي مـــا ترام
شـعـر فـخـذيك وسـاقيـ ـك خزامى وثمـام
وضلوع الشلو من صــدرك نبـــع وبشـــام
وقـذى عـينيك صـمغ ونواصـيك ثغـام
لو تحـركت كـذا لانـ ـجفلت منك نعـام
وظبـاء مـخـصـبـات ويرابيــع عظـام
أنا مـاذنبي وإن خـا لفني فـيك الأنـام

---

(١) أخبار أبي تمام ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

وأتت منك سـجـايا نبطيـات لئـام
وقـفـا يحلف أن مـا عـرقت فـيك الكرام
ثم قـالوا جـاسـمي من بني الأنبـاط خـام
كـذبـوا مـا أنت إلا عـربي مـا تضـام
بيـتـه مـابين سلمى وحـواليـه سـلام
أنت عنـدي عـربي عـربي والسـلام

يسخر مخلد من أبي تمام ويهزأ منه بطريقة ماكرة ذكية ، فهو عنده عربي الأصل لاشك في عروبته ، بل هو عربي من أعرق قبائل العرب ، كيف لا يكون هذا وهو الذي يشهد كل شيء فيه بهذه العروبة الأصيلة ! فشعر فخذيه وساقيه من نبت تلك الصحراء التي عاش فيها ! بل إن نبات البرية قد ظهر على ضلوعه وصدره ، فعيناه صمغ ، أما نواصيه فثغام بل إنه لو تحرك لانجفلت من تحته نعام وظباء ويرابيع كثيرة ، وهذا كله مبالغة ماكرة ذكية من مخلد يحشدها ليبرهن على صدق دعواه في عروبة أبي تمام ، لكن هذا الأعرابي الأصيل تفلت منه أحياناً بعض السجايا النبطية ، ويفضحه أحياناً بعض حركات جسمه مما يجعل بعض الناس يشكون في عربيته فيقولون إنه جاسمي من بني الأنباط خام ولكن مخلداً ينبري لهؤلاء مدافعا في مكر ودهاء عن أبي تمام ، فيكذبهم فيما ادعو ، فما أبو تمام سوى عربي لا ينكره أحد ، فبيته مابين جبلي سلمى ، وحياته حياة الأعراب في البادية بين أشجار السلم والنخيل ، فهو عربي عربي ليس فيه كلام ، وهذا التكرار مما يزيد في السخرية والتهكم إذ هو توكيد ساخر ، سرعان ما ينقل من الإثبات إلى النفي لأنه قد قصد السخرية والهزء .

ويدخل في هذا الأسلوب ما يسمى بتأكيد الذم بما يشبه المدح ، وهو مصطلح بديعي يشتمل على ضربين ، أحدهما : أن يستثني من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم ثابتة له ، بتقدير دخول صفة الذم في صفة المدح ، كقولك : فلان لا خير فيه إلا أنه يتصدق بما يسرق .

والسبكي له في هذا الضرب نظر دقيق ، إذ يرى أن الاستثناء في هذا الضرب يقدر فيه الاتصال ، ولابد أن يكون فيه مناسبة بين الخصلة المستثناه والخصال المحمودة(١) .

لذلك نراه يستدرك على الخطيب القزويني في المثال الذي أورده ، فيقول : «ومثله المصنف بقوله : « فلان لا خير فيه إلا أنه يسيء إلى من أحسن إليه » وفي المثال نظر فالإساءة لمن أحسن إليه ليس فيها شيء يشبه الخير ، وعلاقة المضادة هنا بعيدة الاعتبار فينبغي أن يمثل بما صورته صورة الإحسان » (٢) .

والتأكيد في هذا الضرب من وجهين ؛ ذلك لأنه كدعوى الشيء ببينه ، وهو هنا نفئ الخيرية عنه بالمرة ، وذلك لتعليق وجود الخيرية في فلان على المحال ، وهو كون التصدق بما يسرق خيرا ، وذلك مبني على تقدير الاتصال في الاستثناء ؛ ذلك لأن الأصل في الاستثناء الاتصال يشعر بأن المتكلم طلب الأصل ، وهو استثناء المدح ليقع الإتصال ، فلما لم يجده استثنى ذماً ، فجاء ذم على ذم (٣) .

وليس وجود الاستثناء شرطاً في تحقق ماهية هذا النوع ، وإنما هو من جملة صور تحققه ، فلذلك مثل له بقول ينسبه المرشدي لابن أبي الإصبع :(٤)

---

(١) عروس الأفراح ٤/ ٣٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) حاشية الدسوقي ٤/ ٣٩٦ .

(٤) انظر شرح عقود الجمان ٢/ ١٢٦ . والبيت لابن الرومي من قصيدة طويله يعاتب فيها ابن نوبخت . الديوان ١/ ٣١٤ .

خير ما فيهم ولا خير فيهــم أنهم غير مؤثمي المغتاب

وثاني الضربين : أن يثبت للشيء صفة ذم تعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى كقولك : فلان فاسق إلا أنه جاهل . أو أن يعقب صفة الذم أداة استدراك ، كقولك : (فلان جاهل لكنه ذو ظلم) (١) لأن الاستدراك هنا كالاستثناء ، إذ الاستثناء المنقطع كالاستدراك ، فإذا قلت : « فلان بخيل لكنه كاذب»، كان من تأكيد الذم بما يشبه المدح(٢) .

وهذا الضرب يفيد التأكيد من وجه واحد ، وذلك من جهة أن الاستثناء لما كان الأصل فيه الاتصال ، فالعدول عنه إلى الانقطاع يشعر بأن المتكلم طلب استثناء المدح فلم يجده ، فأتى بالذم على الذم فكان تأكيداً له (٣) .

وهناك ضرب ثالث لهذا الأسلوب ينسبه السيوطي في شرحه لعقود الجمان إلى ابن جابر الأعمى(*) ويرى أنه أبلغ من الضربين السابقين لما فيه من التهكم والاستهزاء ، يقول :

« وزاد ابن جابر الأعمى ضرباً ثالثاً وهو أن تأتي بصفة ذم مثبتة ، ثم بصفة بعدها توهم رفع صفة الذم ، ثم تعلق بها ما يبين أنها ذم ، فتكون ذماً بعد ذم ، وهو أبلغ من الأولين لما فيه من التهكم والاستهزاء .

---

(١) شرح عقود الجمان ٢/ ١٢٦ .

(٢) مواهب الفتاح ٤/ ٣٩٦ .

(٣) حاشية الدسوقي ٤/ ٣٩٦ .

(*) محمد بن أحمد الأندلسي عالم بلاغي وفقيه مالكي ، ناظم بديعية العميان توفى سنة ٧٨٠ هـ. تاريخ علوم البلاغة ١٤٧ .

ثم مثل له بقوله : « رأيت عنق زيد عاطلاً فحليته بالصفع » ، أثبت أولاً صفة ذم وهي كونه عاطلاً ، ثم أثبت تحليته فأوهم رفعة ، فلما قال «بالصفع» ، تبين أن هذه التحلية ذم آخر »(١) .

ومن أمثلة هذا الضرب ، قول دعبل الخزاعي يذم مالك بن طوق(*) ويسخر منه : (٢)

لا خير فيك سوى كلام طيب ومواعد تدني ، وفعل يبعد

وأبوة في تغلب لو أنها للكلب ، كان الكلب فيها يزهد

لقى مالك من دعبل شتى أصناف السخرية ، وهاهو ذا دعبل في هذه الأبيات يفتن كعادته في السخرية بمهجوه ، فيبدأ هجاءه لابن طوق بنفي الخير عنه ، ثم يستثنى فتنفرج أسارير وجه ابن طوق لهذا الاستثناء ، فالمستثنى صفة مدح وهي طيب الكلام ولكن سرعان ما يتبخر هذا الأمل ويختفي ، إذ يعطف على المستثنى صفات ذم متتالية فتلك الصفة الحسنة والكلام الطيب ليست سوى مواعد كاذبة وأفعال بعيدة ، مثل لؤم نسب صاحبها في تغلب، وهذا من أشد أنواع التهكم والسخرية ، إذ أوهم دعبل خصمه حينما استثنى من صفة الذم الأولى صفة مدح ولكنه سرعان سرعان ما نقضها بصفات ذم متعاقبة ، حولت بذلك الأمل إلى سراب ، وهنا مكمن القوة في هذه السخرية « لذلك فضل ابن

---

(١) شرح عقود الجمان ٢/ ١٢٧ .

(*) مالك بن طوق التغلبي شريف فارس جواد ، بنى الرحبة وتولى إمرة دمشق للمتوكل ، توفى سنة ٢٥٩ هـ . فوات الوفيات ٢/ ٢٩٤ .

(٢) شعر دعبل ٩٤ ، ٩٥ .

جابر الأعمى هذه الطريقة في الذم ؛ لما فيها من التهكم والاستهزاء » (١) .

ومثله قول الشاعر : (٢)

يا زاعمًا أنك لي ناصحٌ إني بهـذا غيرُ مغـرُورِ
لمَّا بَدَا قُـبْحُ الـذي قُلْـتَهُ حسَّـنْتَ ذاك القـولَ بالزُّورِ

فقوله « حسنت » أوهم السامع أن الشاعر ربما تراجع عن التمادي في ذمه ، إلا أنه سرعان ماتبين أن الأمر ليس سوى هزء وسخرية ، فما ذلك التحسين إلا رميا بقول الزور .

ومن أمثلة الذم بما يشبه المدح ، قول ابن الرومي في أناس رفعهم الدهر وهم أهل ضعة : (٣)

أتُراني دون الأولـى بلغـوا الآ مالَ مـن شُرْطَةٍ ومن كُتَّابِ
وتِجَارٍ مثلَ البَهَائـمِ فـازوا بالمُنَىٰ فـي النفوسِ والأحبابِ
فـيهم لُكْنَةُ النَّبِيطِ ولكـنْ تحتـها جـاهليـةُ الأعـرابِ
خيـرُ ما فـيهم ولا خيـرَ فيـهم أنهـمْ غيـرُ آثمي المُغْتَابِ

لقد أوهم الشاعر في البيت الأخير أنه يريد أن يمدح فإذا به يستثنى ، فينفي الخير عن هؤلاء القوم إلا خيراً واحداً وهو أنهم غير مؤثمي المغتاب ، فهم أهل لكل طعن وغيبه لأنهم أهل لؤم وفسق .

---

(١) انظر شرح عقود الجمان ٢/ ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٢٧ .

(٣) ديوان ابن الرومي ١/ ٣١٤ .

ومن أمثلته ، قول الشاعر في ذم شخص : (١)

خلا من الفضل غير أني أراه في الحمق لا يجارى

وقول الآخر في آخر : (٢)

لئيم الطباع ، سوى أنه جبان يهون عليه الهوان

في هذين البيتين ذم أشبه المدح ، بدئ بنفي لصفة المدح ثم استثنى منها صفة ذم فكان ذما على ذم ، ففي البيت الأول صفة مدح منفية ، حيث نفى الفضل عن المهجو ثم استثنى من نفي الفضل هذا صفة كان المتوقع أن تكون صفة مدح ، لكنها ليست سوى ذم فجاء ذما على ذم ، وفي البيت الثاني كان البدء صفة ذم مثبته فاستثنى منها ، فأوهم السامع أنه يستثنى صفة مدح ، فإذا بها صفة ذم ، فهذا اللئيم ليس سوى جبان يهون عليه الهوان ، وهذا الإيهام وتلقي السامع بما لم يتوقع يجعل لهذا الأسلوب أثر قوي ويمنحه جدة وطرافة .

ومن أمثلته التي ساقها العباسي في معاهد التنصيص قول الشاعر في قوم لئام : (٣)

بيض المطابخ لا تشكو ولائدهم طبخ القدور ولا غسل المناديل

لا تأكل النار في مغني بيوتهم إلا فتائل سرج أو قناديل

في البيت الأول كناية عن اللؤم والبخل ، فمطابخ هؤلاء القوم بيض كناية عن أنها لا تستخدم في قرى الأضياف وإكرامهم ، ونساؤهم في راحة وكسل ، فهن لا

---

(١) جواهر البلاغه ٣٨٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) معاهد التنصيص ٣/ ١١١ .

يشكين طبخاً ولا غسلاً ، لأن النار لا توقد في هذه البيوت إلا لشيء واحد وهو إيقاد السرج والقناديل ، وهذا الاستثناء بعد ذلك الذم يوهم أن الشاعر سيستثنى صفة مدح من ذلك الذم فإذا به يتمادى في ذمه ، فيسخر من تلك النار الموقدة ليست لقرى الأضياف ولكن لقرى السرج والقناديل .

ومن ذلك قول أحد الشعراء في شخص يهجوه ويرميه باللؤم وعدم الوفاء يقول : (١)

هو الكلب إلا أن فيه ملالـــــة وسوء مراعاة ، وما ذاك في الكلب

لقد بالغ الشاعر في ذم خصمه فشبهه بالكلب ، ولم يكتف بهذا بل أوهم السامع بهذا الاستثناء الذي جاء به وكأنه سيذكر صفة محمودة في هذا الخصم ، فإذا به يرميه بالملالة وسوء المراعاة ، ولم يزل به حتى جعل الكلب أفضل منه ؛ لأن الكلب يضرب به المثل في الوفاء ، أما هذا الرجل فعلى أنه يشبه الكلب في بعض الصفات الخسيسة إلا أنه ليس فيه وفاء الكلب .

ومما سبق يتضح أن هذا الضرب من السخرية يعتمد على البناء اللفظي للنص الأدبي ، أكثر من اعتماده على أي شيء آخر ، ثم إن عنصر المفاجأة التي يحدثها ذلك الاستثناء غير المتوقع ، يجعل من تلك السخريات ذات وقع وأثر بعيد في نفس السامع . والتصرف والتلاعب بالألفاظ أمر رئيس في مثل هذه الأساليب البديعية التي تبعث على السخرية والهزء ، ومن العناصر الرئيسة أيضاً في هذا الأسلوب ، عنصر المفارقة والتناقض ، فبينما يريك الشاعر أنه يمدح إذا به يفاجئك بالهجو والسخر ، وبينما تراه يستثنى من صفة ذم أو صفة مدح منفية صفة أخرى ، يتوقع السامع أنها مدح إذا هي ذم آخر على الذم القائم ، فالمفاجأة ، والتناقض ، والتلاعب بالألفاظ ، عناصر رئيسة في تكوين هذا الأسلوب .

---

(١) شرح عقود الجمان ٢/ ١٢٦ .

الإبهام الساخر

الإبهام بباء موحدة ، وهو أن يقول المتكلم كلاما مبهما يحتمل معنيين متضادين ، لايتميز أحدهما عن الآخر ، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد ، بل يقصد إبهام الأمر فيهما(١).

وله عدة تسميات ، فقد سماه السكاكي « التوجيه » وعرفه بقوله : « هو إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين » (٢) . وسماه ابن الأثير : « الموجه » وعرفه بأنه « دلالة اللفظ على المعنى وضده » (٣) .

أما العلوي فإنه يسميه « التوجيه » ويعرفه بقوله : « وأما في مصطلح علماء البيان فهو أن يكون الكلام له وجهان»(٤) ولكنه يدخل فيه تأكيد المدح بما يشبه الذم والادماج . ويسميه بعضهم « محتمل الضدين » (٥) .

ولا شك أن تسمية هذا النوع البديعي بالإبهام أليق من تسميته بالتوجيه ، ومطابقة التسمية فيه لاتخفي على أهل الذوق ، والذي تخير هذه التسمية هو ابن أبي الإصبع (٦) فالأساس الذي يقوم عليه هذا الأسلوب هو الإبهام ؛ بحيث يكون الكلام محتملا للضدين وهما المدح والهجاء ، فهما الغرضان اللذان يدور حولهما هذا الأسلوب ولكن

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ١٧٨ .

(٢) مفتاح العلوم ٤٢٧ .

(٣) المثل السائر ١/ ٦٤ ، ٦٦ .

(٤) الطراز ٣/ ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٥) انظر شرح عقود الجمان ٢/ ١٢٩ .

(٦) المرجع السابق ٢/ ١٣٢ ، وتحرير التحبير ٥٩٦ .

مع وجود هذا الاحتمال للغرضين إلا أن المقصود من هذا الأسلوب هو الهجاء والسخرية والاحتمالان يستويان مالم ينظر إلى قرائن الأحوال والقائل والمقول فيه ، فإذا جُرِّد من هذه القرائن ولم ينظر للقائل والمقول فيه كان احتماله للمعنيين على السوية (١) ولكن يضل الهجاء والسخرية هما الغرض المقصود ، فالمديح قد لايكون الكلام فيه محتملاً للضدين إذ لا حاجة للمادح أن يبهم كلامه لأن مثل هذا الأسلوب إذا وقع في المدح كان قبيحا(٢) . أما الذي يهجو أو يسخر فإنه يضطر إلى أن يبهم كلامه إذا كان يخشى أن تناله عقوبة ، كما فعل أحد الشعراء حين جاء يهنئ الحسن بن سهل(*) - باتصال ابنته بالمأمون - مع من هنأه ، فأثاب الناس كلهم وحرمه ، فكتب إليه : إن تماديت على حرماني ، عملت فيك بيتا لا تعلم مدحتك فيه أو هجوتك ، فاستحضره وسأله عن قوله فاعترف ، وقال : لا أعطيك أو تفعل ، فقال :

بارك الله للحسن ولبوران في الختن

يا إمام الهدى ظفرت ولكن ببنت من ؟

فلم يعلم ماأراد « ببنت من ؟ » في الرفعة أو في الصغر ؟ (٣) .

وقد لايخشى الشاعر عقوبة ، ولكنه يقصد الهزء والعبث بمهجوه ، كما كان يفعل بشار إذ كان كثير العبث بهذا النوع ، اتفق أنه فصَّل قباء عند خياط أعور اسمه زيد ، فقال له الخياط على طريق العبث به : سآتيك به لاتدري أقباء هو أم دواج ، فقال له الشاعر :

---

(١) انظر أنوار الربيع ٢/ ٥ .

(٢) روضة الفصاحة ، محمد بن أبي بكر الرازي ٢٥٠ ، تحقيق د. أحمد شعلة .

(*) الحسن بن سهل السرخسي ، تولى وزارة المأمون ، وتزوج المأمون ابنته بوران ، وكان يجزل العطاء للشعراء ، توفي سنة ٢٣٦ هـ . وفيات الأعيان ٢/ ١٢٠ .

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ١٧٨ .

إن فعلت ذلك ، لأعملن فيك بيتا لايعلم أحد ممن سمعه أدعوت لك أم دعوت عليك ففعل الخياط ، فقال الشاعر :

خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء

فما علم أحد أن الصحيحة تساوي السقيمة أو بالعكس (١) .

يقول ابن حجة : « ولم يتفق للمتأخرين ولا للسلف من قبل في هذا الإبهام غير البيت المتعلق بالخياط زيد ، والبيت المتعلق بالحسن بن سهل » (٢) .

ولكن ابن الأثير حين تناول الإبهام ، أورد له أمثلة كثيرة مع أنه قرر في بداية كلامه عنه « أنه قليل الوقوع جدا » (٣) ، إلا أنه عاد فقال : « وكثيرا ماكان يقصد المتنبي هذا القسم في شعره ، وأكثر ماكان يستعمله في قصائده الكافوريات [ثم يروي عن الفتح ابن جني أنه] قال : قرأت على أبي الطيب ديوانه إلى أن وصلت إلى قصيدته التي أولها :

أغالب فيك الشوق ، والشوق أغلب

فأتيت منها على هذا البيت ، وهو :

وما طربي لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

فقلت له : يا أبا الطيب ، لم تزد على أن جعلته أبا زنة (أي قرداً) فضحك لقولي»(٤)

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) المرجع السابق ١/ ١٧٩ .

(٣) انظر المثل السائر ١/ ٦٤ .

(٤) انظر المرجع السابق ١/ ٦٥ ، ٦٦ .

ثم يتابع ابن الاثير سرد الأمثلة ويعلق عليها ، فيرى أن قول المتنبي في قصيدة يمدح بها كافور : (١)

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا   لمن بات في نعمائه يتقلب

يجري على هذا النهج ، فالبيت يستخرج منه معنيان ضدان ، أحدهما أن المنعم عليه يحسد المنعم ، والآخر : أن المنعم يحسد المنعم عليه .

وكذلك ورد قوله أيضا من قصيدة يوهم أنه يمدحه : (٢)

فإن نلت ماأملت منـــك فربما   شربت بماء يعجز الطير ورده

فإن هذا البيت يحتمل مدحا وذما ، وإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ماقبله فإنه يكون بالذم أولى منه بالمدح ؛ لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ ، وصدر البيت مفتتح بإن الشرطية ، وقد أجيب بلفظة « رب » التي معناها التقليل ، أي : لست من نوالك على يقين فإن نلته فربما وصلت إلى مورد لايصل إليه الطير لبعده ، وإذا نظر إلى ماقبل هذا البيت دل على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذي قبله .

ومن ذلك قوله في كافور أيضا : (٣)

ومالك تعنى بالأسنة والقنا   وجدك طعان بغير سنان

فإن هذا بالذم أشبه منه بالمدح ، لأنه يقول لم تبلغ مابلغته بسعيك واهتمامك بل بجد وسعادة ، وهذا لا فضل فيه ؛ لأن السعادة تنال الخامل والجاهد ومن لايستحقها(٤) .

---

(١) ديوان المتنبي ١/ ١٨٥ .

(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٨ .

(٣) ديوان المتنبي ٤/ ٢٤٧ .

(٤) المثل السائر ١/ ٦٥ .

وقد لمح أبو العباس الجرجاني(*) مثل ذلك في مدائح المتنبي لكافور في مثل قوله فيما ظاهره مدح : (١)

عدوك مذموم بكل لســان ولو كان من أعدائك القمران

قال : « فإنه يحتمل المدح ويحتمل الهجاء بأن يكون معناه ، أنت ساقط دنيء والساقط لايعاديه إلا مثله ، فإذا كان معاديك مثلك فهو مذموم بكل لسان كما أنك كذلك ولو عاداك الشمس والقمر لسقطا بمساجلتهما إياك ، يدل عليه قوله بعده : (٢)

ولله ســـــر في علاك ، وإنما كلام العدى ضرب من الهذيان

فإنه في الهجاء أظهر ، بأن يكون مراده في بلوغك هذه المنزلة التي لاتستحقها ولاتستوجبها سر لله تعالى غير مطلع عليه أحد ، وله وجه في المدح بأن يكون مراده أن الله تعالى مابلّغك هذه المنزلة إلا وأنت تستحقها فيما بينك وبينه » (٣) .

والحق أن المتنبي لم يكن يمدح كافور ، بل يهجوه ويسخر منه ، فهو الذي كان يقول : « لو قلبت مدحي فيه كان هجاء » ، فمع أنه في مقام المدح وبين يدي أمير إلا أنه كان يشعر أنه يمدح من لايستحق ، ولكنه يخشى إن هو أظهر ما في نفسه أن يصيبه أذى كافور ، فهو تحت سلطانه ، لذلك عمد إلى الإبهام وأخرج كلامه على وجهين ، يقول أبو الفتح ابن جني معلقا على قول المتنبي: « عدوك مذموم . . » : « هذا المدح ينعكس

(*) أحمد بن محمد الجرجاني قاضي البصرة وشيخ الشافعية في عصره ، له المنتخب في الكنايات وله تصانيف في الفقه ، توفى سنة ٤٨٢ هـ . طبقات الشافعية ٤/ ٧٤ .

(١) انظر ديوان المتنبي بشرح العكبري ٤/ ٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء ، لأبي العباس أحمد بن محمد الجرجاني ٧١ .

هجاء» ويقول في البيت الثاني ، « لله سر في علاك . . . » : « يجوز فيه أن ينقلب هجاء لأنه يجوز أن يصرف إلى أن يغيظ به الأحرار » وقال الواحدي : « هذا إلى الهجاء أقرب لأنه نسب علوه على الناس إلى قدر جرى به من غير استحقاق ، والقدر قد يوافق بعض الناس فيعلو ويرتفع على الأقران وإن كان ساقطا باتفاق من القضاء (١) .

وأقول : لم تكن تلك القصيدة بكل أبياتها - خلا بيتين أو ثلاثة - إلا هجاء وسخرية من كافور ، افتن فيها المتنبي فأخرج معظم كلامه على وجهين ، يحتمل المدح ويحتمل الهجاء ، وإن كنا نعلم أن المتنبي لم يكن يمدح كافور عن قناعة ولكن رغبة في أن ينال منه حاجات طالما كتمها في نفسه ، فلما أحس أن العبد يماطله ويلهو به أراد أن ينتقم لنفسه فمدحه وتمادى في مدحه حتى شفى نفسه ، بمثل قوله : (٢)

وغيرُ كثير أنْ يزورَك راجلٌ ... فيرجعَ ملْكاً للعراقينِ واليا

فظاهر البيت أن من رأى كافور أفاد منه كسب المعالي ، وباطنه أن من رآه على ما به من النقص وقد صار إلى الملك ، ضاق صدره أن يقصر عما بلغه وأن لا يتجاوز ذلك إلى كسب المكارم ، وكذلك إذا رآه راجل لا يستكثر لنفسه أن يرجع واليا على العراقين(٣) .

ومثل قوله أيضا : (٤)

ويُغْنيك عما ينسُبُ الناسُ أنه ... إليك تَنَاهَى المكرُماتُ وتُنْسبُ

وأيُّ قبيلٍ يستحقُك قــدرُهُ ... مَعَدُّ بن عدنانٍ فِداكَ ويَعْــرُبُ

---

(١) انظر ديوان المتنبي ١/ ١٨٦ ، ٤/ ٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق ٤/ ٢٩٠ .

(٣) انظر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. مطلوب ١/ ٤١ .

(٤) ديوان المتنبي ١/ ١٨٦ .

فإنه يحتمل المدح ، ولكنه سخرية واستهزاء : أي أنه لا نسب لكافور ، وليس هذا مما يمدح به ولسيما الملوك ، لأنه أشبه بنفي النسب عنه ، ثم أتى بقول لا يصح معناه ، يقول : أي قبيل يستحق أن تنسب إليه وأنت فوق كل أحد ، وهذا تهزؤ منه ، وقد كان المتنبي يقول : لو قلبت مدحي فيه كان هجاء (١) . ونكتفي من المتنبي بهذا ، فحسبه وضوحا وجلاء على ماأردنا أن نمثل له .

ومن أمثلة هذا الفن مارواه الزمخشري من أن اليهود كانوا يلوون ألسنتهم بالكلام أمام النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون له قولا ذا وجهين يحتمل الذم وغيره ، وذلك على سبيل السخرية والهزء به عليه الصلاة والسلام ، والآية هي قوله تعالى حكاية عن اليهود : **﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع ، وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾** (٢) .

قال الزمخشري : « قولهم (غير مسمع) حال من المخاطب أي اسمع وأنت غير مسمع ، وهو قول ذو وجهين ، يحتمل الذم أي اسمع منا مدعوا عليك بلا سمعت ، لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع فكان أصم غير مسمع ، قالوا ذلك اتكالا على أن قولهم لاسمعت دعوة مستجابة ، أو اسمع غير مجاب إلى ماتدعو إليه ، ومعناه غير مسمع جوابا يوافقك فكأنك لم تسمع شيئا ، أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه فسمعك عنه ناب .

---

(١) انظر ديوان المتنبي ١/١٨٦ ، ١٨٧ ، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١/٤١ .

(٢) الآية (٤٦) من سورة النساء .

ويجوز على هذا أن يكون « غير مسمع » مفعول اسمع أي اسمع كلاما غير مسمع إياك لأن أذنك لاتعيه نبوا عنه ، ويحتمل المدح أي اسمع غير مسمع مكروها ، من قولك : اسمع فلان فلاناً ، إذا سبه .

وكذلك قولهم (راعنا) يحتمل راعنا نكلمك ، أي ارقبنا وانتظرنا ، ويحتمل شبه كلمة عبرانيه أو سريانية كانوا يتسابون بها ، وهي (راعينا) فكانوا سخرية بالدين وهزءاً برسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمونه بكلام محتمل ، ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام » (١) .

ومن ذلك مارواه المرتضى في أماليه قال :

« قال أبو جعفر محمد بن على عليهما السلام لكثير : امتدحت عبدالملك بن مروان ؟ فقال : لم أقل له (ياإمام الهدي) إنما قلت : (ياشجاع) والشجاع حية (ويأسد) والأسد كلب (وياغيث) والغيث موات ، فتبسم أبو جعفر عليه السلام» (٢) .

ولا شك أن هذا معنى بعيد ، وهو معنى مدسوس في بطن الشاعر ، فتشبيه الممدوح بالحية والأسد والغيث أمور عرفها الشعراء وكثرت في باب المدح ، وإن كان عبدالملك بن مروان نفسه قد كره مثل هذه التشبيهات ، فقد دخل الأخطل عليه مرة فقال : يا أمير المؤمنين ، قد امتدحتك ، فاستمع مني ، فقال : إن كنت شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي بمدحك . . . وقال يوما وقد اجتمع الشعراء عنده : تشبهوننا بالأسد والأسد أبخر ، وبالبحر والبحر أجاج ، وبالجبل والجبل أوعر (٣) .

---

(١) تفسير الكشاف ١/ ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٢) انظر أمالي المرتضى ١/ ٢٨٧ ، تحقيق محمد أبوالفضل .

(٣) انظر ديوان المعاني ١/ ٢٥ - ٢٧ .

ومن ذلك أيضا ماحكاه الجرجاني في المنتخب ، وهو مما يحتمل الضدين ، يبهم المتكلم كلامه حتى يستطيع أن يفلت من تبعته ، وحتى يضحك من خصمه ، من ذلك قولهم :

أرانيه الله أغر محجلا ، أي محلوق الرأس مقيدا . وفلان صافي العيش حلو الحياة يعنون به الجاهل . وفلان حسن الظن ، يعنون به الغافل . وفلان سليم الصدر ، يعنون به الأبله . ويقولون : سترك الله بستره ، أي رمى عليك حائطا يسترك (١) .

ومن ذلك مارواه صاحب الأغاني في أخبار أبي دلامة ، قال : خاصم رجل أبا دلامة في داره ، فارتفعا إلى « عافية القاضي » فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصمتني دهاة الرجال   وخاصمتها سنة وافية

فما أدحض الله لي حجة   ولا خيب الله لي قافية

ومن خفت من جوره في القضاء   فلست أخافك يا عافية

فقال له عافية : أما والله لأشكونك إلى أمير المؤمنين ، ولأعلمنه أنك هجوتني . قال : إذا يعزلك ، قال : ولم ؟ ، قال : لأنك لا تعرف المديح من الهجاء ، فبلغ ذلك المنصور ، فضحك وأمر لأبي دلامة بجائزة (٢) .

ويظهر من خلال هذا التناول أن الإبهام أسلوب تعبيري يلجأ إليه الشاعر أو غير الشاعر لنكتة يقصدها كما رأينا ذلك في الأمثلة المختلفة ، فيجد فيه بغيته ، ويقضي به وطره ، وينال به حاجته ، وأنه في الهجاء أشهر وأعرف والحاجة إليه أمس لأن الهجاء والساخر يحاول كثيراً أن يفلت من تبعة مايقول خصوصاً إن علم أنه سيجني من وراء ذلك المتاعب .

---

(١) انظر المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) الأغاني ١٠/ ٢٥٧ .

السخرية في الهزل الذي يراد به الجد

كان الجاحظ يذكر بعض الفصول من الهزل استنشاطا للقارئ (١) وكان يقول في معرض حديثه عن البلاغة والخطابة حينما نقل كلاما لإبراهيم بن هانئ - : « وقال ابراهيم ابن هانئ - وكان ماجنا خليعا وكثير العبث متمردا ، ولولا أن كلامه هذا الذي أراد به الهزل يدخل في باب الجد ، لما جعلته صلة الكلام الماضي » (٢) .

ومن أوائل من تكلم في هذا الفن ابن المعتز في كتابه البديع حيث عدّه من محاسن الكلام فقال : « ومنها هزل يراد به الجد » (٣) ومثل له بأربعة أمثلة (٤) أولها قول أبي العتاهية :

أَرْقيك أَرْقيك بسم الله أَرْقيكا ... من بخل نفسٍ لعلَّ اللهَ يشفيكا
ما سِلْمُ نفسِكَ إلا من يتارِكُها ... وما عدُوُّك إلا من يُرَجّيكا

وقول أبو نواس :

إذا ما تميميٌّ أتاك مفاخراً ... فقل عدِّ عن ذا ، كيف أكْلُك للضّبِ

وقوله أيضا للفضل بن الربيع :

ولي حُرَمٌ فلا تتغطَّ عنها ... لِتدفَعَ حقَّها دَفْعَ الغريمِ
تغافَلُ لي كأنَّك واسِطِيٌّ ... وبيتُك بين زمزم والحطيمِ

---

(١) انظر الحيوان ٣/ ٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٩٣ .

(٣) البديع ٦٣ .

(٤) المرجع السابق .

وقول الآخر :

من رأى فيمـا رأى رجـلا تيهـه مـرب على جـدته

يتباهـى راجـلاً ولـه شـاكري في قلنسـوته

ولم يتعرض ابن المعتز لتعريف هذا الفن إلا أن ابن أبي الإصبع أفرد له بابا وعرفه بقوله : « هو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه ، فيخرج ذلك المقصود مخرج الهزل المعجب والمجون المطرب » (١) ومثل له بأقوال أصحاب النوادر كأشعب وأبي دلامة وأبي العيناء(*) ومزبد ، ثم ساق حكاية عن أشعب وهي أن أشعب حضر إعذارا صنعه بعض ولاة المدينة وكان مبخلا ، فدعا الناس ثلاثة أيام وهو يجمعهم على مائدة عليها جدي مشوي ، فيحوم الناس حوله ولا يمسه منهم أحد لعلمهم ببخله ، وأشعب في كل يوم يحضر ويرى الجدي ، فقال في اليوم الثالث : زوجته طالق إن لم يكن عمر هذا الجدي بعد أن ذبح وشوي أطول منه قبل ذلك (٢) . ولا شك أنها سخرية بالغة ألبسها أشعب ثوب الهزل .

ويتابع شهاب الدين الحلبي ابن أبي الإصبع في تعريفه (٣) . وكذلك ابن الأثير الحلبي في تعريفه إلا أنه يجعل هذا الباب من نعوت الألفاظ (٤) . ويمثل له

---

(١) تحرير التحبير ١٣٨ .

(*) محمد بن القاسم بن خلاد الهاشمي بالولاء الضرير مولى أبي جعفر المنصور ، من الحفاظ الفصحاء الظرفاء النبهاء توفى ببغداد سنة ٢٨٣ هـ . وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٣ .

(٢) تحرير التحبير ١٣٨ .

(٣) حسن التوسل إلى صناعة الترسل ٢٣٢ .

(٤) جوهر الكنز ٢١١ .

بحادثة وقعت لأبي دلامة حينما خرج في جنازة عمة المنصور وجلس على القبر ينتظر مواراتها فقال له المنصور : ما أعددت لهذه الحفرة ؟ فقال : عمة أمير المؤمنين !

ولا أرى في هذه الإجابة أي نكتة بلاغية ، إذ أنها إجابة باردة لم يراع فيها أبو دلامة مقتضى الحال والمقام . ثم إن ابن الاثير الحلبي يناقض تعريفه حين يسوق هذه الواقعة مثالا على الهزل الذي يراد به الجد ، فهو يعرفه بقوله : «أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه فيخرج ذلك مخرج المجون»(١) فأين المدح أو الهجاء في هذه الإجابة .

وأما القزويني فإنه لم يعرفه وعده في المحسنات المعنوية وتبعه في ذلك شراح التلخيص(٢) .

أما العلوي فقد ألحقه بتجاهل العارف ، فبعد أن تكلم عن تجاهل العارف قال : «ومما يلحق بأذيال هذا الصنف ويجيء على أثره الهزل الذي يراد به الجد (٣) وهو يرى أن بينهما تماثلاً وإن كان بينهما تفرقة ظاهرة ، يقول : ومثاله قول بعضهم :

إذا ما تميميٌّ أتاكَ مفاخـــــــراً فقلْ عدِّ عنْ ذا كيفَ أكلُكَ للضبِّ

فالاستفهام جامع لهم جميعا ، لكنه أورده على جهة التهكم به والهزء والسخرية والغرض به الجد ، والمعنى في هذا « عد عن المفاخرة التي أنت تطلبها فإنها مرتبة عالية سنية ولكن حدثني عن أكلك للضب كما هي عادتك ، فهو يماثل التجاهل كما ترى وإن كان بينهما تفرقة ظاهرة »(٤) .

---

(١) جوهر الكنز ٢١١

(٢) شروح التلخيص ٤/ ٤٠٢ .

(٣) الطراز ٣/ ٨٢ .

(٤) المرجع السابق .

فيرى العلوي أن الجامع بينهما هو الاستفهام ، وكأنه فهم أن هذا الفن الذي هو الهزل الذي يراد به الجد لا يأتي إلا عن طريق الاستفهام كما في المثال الذي ذكره ، وهذا لاشك أنه فهم غير صحيح ، فالهزل الذي يراد به الجد يأتي من الاستفهام وغيره .

ومن الذين تابعوا ابن أبي الاصبع في تعريفه ابن حجة الحموي فنقل تعريفه وأمثلته وزاد عليها أمثلة تناقض ذلك التعريف الذي نقله ، فهو يعرف الهزل الذي يراد به الجد بقوله « أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه ، فيخرج ذلك المقصد مخرج الهزل والمجون اللائق بالحال »(١) ، ثم يتبع ذلك بأمثلة بعضها يناقض هذا القصر الذي نقله في تعريفه لهذا الفن ، وهو (قصد المدح أو الهجاء) حيث قصر الغرض من هذا الفن عليهما وذلك في مثل قوله : « ومن أظرف ماوقع في هذا الباب ، أنه حصل لي بالديار المصرية جرب أشرفت منه على التلف ، فوصف لي الحكيم بطيخا ، وهو عزيز الوجود في تلك الأيام ، فبلغني أنه أهدي إلى مولانا المقر الأشرف القاضوي الناصري محمد بن البارزي صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الاسلامية - عظم الله تعالى شأنه - بطيخ فكتبت إليه :

مولاي عاقبني الزمان بجربة   وقد انقطعت بجسمي المسلوخ

وعميت من حزني على ما تم لي   لكن شممت روائح البطيخ

[ثم يعلق قائلا] « فالكناية على طلب البطيخ سبكت في أحسن قوالب الهزل مع حسن التضمين » ومثله قولي :

جاء الشتاء فرأسي   والجسم صارا شماته

بطيلسان ابن حرب   وفروة ابن نباته

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ١٢٦ .

[ويقول] في طيلسان ابن حرب وفروة ابن نباته مع مافيهما من الهزل الظاهر كنايتان عن الفقر الذي تزايد حده » (١) .

أين المدح أو الهجاء في مثل هذين المثالين ، إنه يصف حاله وفقره ، ويستعطف حتى ينال حاجته ، فهو في موقف جد لكنه جعل السبيل إلى ذلك مسبوكا في قالب من الهزل .

والحق أن هذا الفن ليس مقصورا على غرضي المدح أو الهجاء ، بل ليس له غرض معين ، فكل غرض سلك به صاحبه هذا المسلك فهو من هذا الفن ، وقد سبق ابن معصوم المدني إلى هذا الرأي وفطن إليه وقرره في أول تناوله لهذا الفن بقوله :

« هذا نوع من البديع لطيف المسلك ، رشيق المأخذ ، وهو عبارة عن أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه فيخرج مقصوده مخرج الهزل المعجب ، والمجون المطرب هكذا قالوا . وأرى أنه لايختص بالمدح والذم ، بل كل مقصد أخرجه المتكلم هذا المخرج عُدّ من هذا النوع ، سواء كان مدحا ، أو ذما ، أو غزلا ، أو شكوى ، أو اعتذارا ، أو سؤالا ، أو غير ذلك » (٢) .

ثم يتبع ابن معصوم كلامه هذا بأمثلة لهذا الفن ، يقسمها حسب الأغراض فيقول مثلا : « وشاهده في الهجو . . . وشاهده في غير الهجو . . . وقول أبي نواس في النسيب . . . » (٣)

وهكذا يصحح ابن معصوم ماوقع فيه غيره من التناقض ، فيقرر أن هذا الفن لايقتصر على غرض بعينه ، ثم يأتي بالأمثلة المتنوعة التي تؤكد وجهة نظره هذه .

---

(١) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب ١/١٢٧ .

(٢) أنوار الربيع ٢/١٦٦ .

(٣) المرجع السابق ٢/١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ .

ومن الأغراض التي يسلك بها صاحبها طريق الهزل الذي يراد به الجد السخرية وهي غرض يناسبه الهزل والضحك والعبث ، يقول القاضي الجرجاني : « فأما الهجو فأبلغه ماخرج مخرج التهزل والتهافت » (١) لذلك كثيرا مايلجأ الساخر إلى إضفاء جو من الفكاهة والضحك حتى يخفف من حدة سخريته ، أو حتى يستطيع أن يمرر سخرياته تلك دون دوي يكون له أثر رجعي ، فيعمد إلى إظهار كلامه في صورة الهازل وهو جاد كل الجد ، لذلك رأينا جريراً يوصي كل هاج وساخر ، فيقول : « إذا هجوت فأضحك»(٢) .

والسخرية في ظاهرها تثير الضحك في هزل أو غير هزل ؛ لأنها كثيرا ما توحي الجدية رغم ظاهرها الضاحك ، فتخفي تلك الجدية خلف ذلك الظاهر ، فتحاول بذلك أن تتخلص من الانفعال الظاهر حتى تبدوا كأنها لاتنبعث عن عاطفة ما عند قائلها لأنها تخاطب العقل وتسعى إلى أن يسود الهدوء ويكون الجو حولها مشبعاً بالإدراك والوعي حتى تستطيع أن تثير الضحك السريع ، لتسلط ضوءاً أكثر سرعة على الأشياء التي لا تناسب الحياة والتي يمكن أن نصفها بأنها لاتليق بالفرد أو الجماعة ، وهي عندما تسلط هذا الضوء السريع تخدم فكرة عميقة ، ولكنها تريد لها أن تكون عابرة ، حتى يمضي كل شيء في خفة ونشاط (٣) .

والمثال العمدة الذي يتداوله البلاغيون في كتبهم لهذا الفن ، هو قول أبي نواس من قصيدة يهجو بها تميماً وأسداً ، ويفتخر بقحطان ، والشاهد فيها قوله : (٤)

---

(١) الوساطه بين المتنبي وخصومه ٢٤ .

(٢) العمدة ٢/٨٤٩ .

(٣) انظر السخرية في أدب المازني ١٦ ، ١٧ .

(٤) ديوان أبي نواس ٥١٠ .

إذا ما تميميٌّ أتاك مفاخــــــراً   فقلْ عدِّ عنْ ذَا كيفَ أكلُكَ للضبِّ

وبعده :

تفاخرُ أبناءَ الملوكِ ســـــفاهةً   وبولُكَ يجري فوقَ ساقِكَ والكَعْبِ

يسخر النواسي من هذا البدوي الذي جاءه مفاخراً ، ولكنه لا يرد عليه فخره ، بل يذكره بأمر اعتاد عليه هو وقومه ، وهو أكل الضب الذي تعافه أشراف العرب ، فيخرج كلامه مخرج الهزل ، وكأنه يقول لهذا الذي جاء مفتخرا : دعنا من افتخارك هذا ولكن قل لنا كيف تصنع حين تأكل الضب ! وكيف لك أن تفاخر وهمتك تنتهي عند أكل الضب! ، فلا يجاريه في مفاخرته بل يأتيه من حيث لايتوقع فيسأله أمام الملأ عن هذا الفعل الغريب، وهذا الأسلوب أوجع في الهجو وأبلغ في السخرية، حيث يتكلم الرجل جادا ومفاخرا فيعترض عليه غيره بأسلوب هزلي يطفئ به ذلك التوتر والحماس.

ومن أمثلته قول أبي العتاهية : (١)

أَرْقيك أَرْقيك باسم الله أَرْقيكا   من بُخلِ نفسك عَلَّ اللهَ يَشْفيكا

ما سِلْمُ كفِّك إلا من يُنَاوِلُهَــا   ولا عـدوُّك إلا مـنْ يُرَجِّيكـــا

إنها رقيا ، ولكنها ساخرة ، يرقيه من ماذا ؟ من ذلك الداء العضال الذي استفحل! من بخل نفسه ، لعل هذه الرقيا أن تنفعه فيشفيه الله من هذا البلاء ! لم يقل له أنت بخيل لا تحب العطاء بل تعادي من يسألك وإن كان أقرب الناس إليك ، وتسالم من يعطيك ولو كان أبعدهم منك ، لم يقل له كل ذلك جادا جازما بل أخرج كلامه في صورة الناصح المتماجن الذي يبذل مساعيه ليخلص صاحبه من ذلك الداء فيرقيه من بخل نفسه

---

(١) معاهد التنصيص ٣/ ١٥٨ .

وما قصد أن يرقيه أو ينصحه بل قصد أن يقول له البخل فيك جبلة ، فأخرج كلامه مخرج الهزل وهو جاد في السخرية من هذا الطبع المشين .

وكثيرا مايسخر الشعراء ويعبثون بالبخلاء ، فيشنعون على هذه الصفة الذميمة وعلى أصحابها ، ويقسون ويغلظون القول أحيانا ، ولكنهم يلينونه أحيانا كثيرة وخاصة إذا كان هذا البخيل ممن يرجى بروه ، أو كان صاحبا أو صديقا يخشى هجره ، فيخرج الشاعر عندها كلامه في قالب هزلي يسخر فيه من هذه الصفة ويذم من يبالغ فيها ، فمن ذلك قول ابن حجة الحموي في صاحب له : (١)

وصاحبٍ تسمحُ لي نفسُـــه ... بغدوةٍ لكـــنْ إذا ما انْتَشَىٰ
يَضحكُ سِنيِّ للغدا عنـــدَهُ ... لكنَّني أقلعُ ضِرسي للعَشَــا

ومنه قول القاضي كمال الدين بن النبيه(*) : (٢)

ألا يارِبِّ هَبْ لي منك عُمْــراً ... كليلةِ كل ضيــفٍ باتَ عنـدَهْ
فكمْ أعطى كدُهْنِ اللَّوزِ لفظــاً ... وكمْ مَخَضَ الكلامَ بغير زُبْـدَهْ
وسَفَّفَنِي سفوفَ الريحِ منـــه ... ولعَّقني لعوقَ الماءِ عنـــدَهْ

ومنه قول أبي العتاهية : (٣)

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ١٢٨ .

(*) كمال الدين على بن محمد بن النبيه شاعر رقيق مرح متين السبك له غزل وموشحات ومدائح توفى سنة ٦١٩ هـ . فوات الوفيات ٢/ ١٤٣ .

(٢) معاهد التنصيص ٣/ ١٥٩ .

(٣) أنوار الربيع ٢/ ١٦٩ .

أصابتْ علينا جودَك العينُ ياعمرُ فنحن لها نَبْغي التَّمائِمَ والنُّشَرْ

سَنَرقيك بالأشعارِ حتى تملَّهَـا فإنْ لمْ تفقْ منها رَقَيْنَاكَ بالسُّوَرْ

وكأن رقيا الأشعار هي هذه السخرية اللاذعة والهزل الذي أريد به الجد .

ومنه قول أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن الحجاج(*) ، وقد حصل في دعوة رجل فأخَّر طعامه إلى المساء وجعل يجيء ويذهب في داره : (١)

ياذاهباً في دارِهِ جائِيـاً بغيـرِ ما معنًى ولا فائـدةْ

قَدْ جُنَّ أضْيَافُكَ مِنْ جُوعِهِـمْ فاقرأْ عليهم سـوزةَ المائِـدةْ

والسخرية تخرج مخرج الهزل في الغالب إذا كان المقصود بها صديقا ، أو شخصا ليس بينه وبين الساخر عداوة ظاهرة ، فلا يستطيع الساخر أن يجاهره بالعداوة والسخر ، فيحتال لذلك ويخرج كلامه متهزلا متماجنا .

فمن ذلك سخرية ابن الرومي من إسماعيل بن بلبل ومن دعواه العربية وقد كثر في زمانه أولئك الذين يدعون النسب العربي وهم أعاجم ، فيحاولون تقليد الأعراب في كلامهم ولباسهم وطريقة حياتهم ، إلا أن كل ذلك التدليس سرعان ماينكشف للعارفين بحقائق الأمور .

يقول ابن الرومي (٢) :

(*) الحسين بن أحمد الكاتب المعروف بابن الحجاج ، شاعر شيعي مغلق ، وجلُّ شعره مجون وسخف ، توفي سنة ٣٩١ هـ ببغداد . معجم الأدباء ٩/ ٢٠٦ .

(١) أنوار الربيع ٢/ ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) ديوان ابن الرومي ١/ ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

عجبتُ من معشرٍ بعقْوتِنا ... باتُوا نَبيطاً وأصبحُوا عَرَبا
مثلَ أبي الصقرِ ، إنَّ فيه وفي ... دعواهُ شيبانَ آيةً عَجَبا
بيناهُ عِلْجاً على جِبلّتهِ ... إذْ مسَّه الكيمياءُ فانقلبا
عرَّبهُ جدُّه السعيدُ كما ... حَوَّل زِرْنيخَ جَدِّهِ ذَهَبا
وهكذا هذه الجدودُ لها ... إكسيرُ صدقٍ يُعرِّبُ النَّسَبا
بدَّلكَ الدهرُ يا أبا الصقر من ... خَالِكَ خالا ، ومن أبيك أبا
فهل يَراكَ الإلهُ مُعترفا ... بشكر نعمائه التي وهبا
يا عربيّاً آباؤه نَبَطٌ ... يانبعةً كان أصلُها غَرَبا
كم لك من والدٍ ووالدةٍ ... لو غرسا الشوكَ أثمرَ العنَبَا
بل لو يَهُزَّانِ هزةً نثرتْ ... من رأسِ هذا وهذه رُطبا
لم يعرفا خيمةً ولا وَتِداً ... ولا عموداً لها ولا طُنُبا

يعجب ابن الرومي من حال هؤلاء العجم المستعربون ، يمسي الرجل منهم نبطيا ويصبح عربيا ، إنها آية العجب !

وهذا أبو الصقر واحد من هؤلاء ، علج أعجمي مسته الكيمياء فانقلب أعرابيا خالصا ، وهذا تعليل هازئ ماكر ، كيمياء تقلب العلوج أعرابا ، وجدود سعيدة تحول الزرنيخ ذهبا ، فأي إكسير هذا الذي عرب هذا النسب ، ثم يلتفت إلى ابن بلبل فيكنيه بأبي الصقر ، وأنى للبلبل أن يكون أبا للصقر ، ولكن لا عجب فابن بلبل عربي آباؤه نبط كنبعة من جذر غرب ، فهو مختلط النسب لا صلة له بالعرب لا من قريب ولا من بعيد .

ويتضح مما سبق أن التهزل في الهجاء من أبدع الأساليب الساخرة ، وهو مذهب فحول الشعراء الهجائين الساخرين ، لذلك نرى جريرا يوصي فيقول : « إذا هجوت فأضحك » (١) .

---

(١) انظر العمدة ٢/ ٨٤٩ .

التجاهل الساخر

التجاهل هو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلا منه به ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم ، أو ليدل على شدة التدله في الحب ، أو لقصد التعجب ، أو التقرير ، أو التوبيـــخ(١) .

وقد اختلف في تسميته وتعريفه وحده ، فالسكاكي يسميه (سوق المعلوم مساق غيره) ويكره تسميته بالتجاهل (٢) . ويتحدث عنه في مبحث تنكير المسند إليه ، فيعد من الحالات التي تقتضي تنكير المسند إليه كون المقام غير صالح للتعريف إما لأن المتكلم لايعرف حقيقة المسند إليه أو أنه قصد تجاهله ، ويجعل منه ما يحكيه الله عز وعلا عن الكفار في حق النبي ﷺ ، في قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد** ﴾ (٣) كأن لم يكونوا يعرفون منه إلا أنه رجل ما ، ويجعل منه أيضا قول الخارجية :(٤)

أيا شجر الخابور مالك مورقـــا كأنك لم تجزع على ابن طريف

ويسميه العسكري (تجاهل العارف ومزج الشك باليقين) ويجعل الغرض منه التأكيد ويتجاهل بقية الأغراض ، يقول أبو هلال : « هو إخراج مايعرف صحته مخرج مايشك فيه ليزيد بذلك تأكيدا » (٥) .

---

(١) تحرير التحبير ١٣٥ .

(٢) مفتاح العلوم ٤٢٧ .

(٣) الآية (٧) من سورة سبأ .

(٤) مفتاح العلوم ١٩١ ، ١٩٢ .

(٥) الصناعتين ٤٤٥ .

وينسب ابن أبي الإصبع إلى من جاء بعد ابن المعتز أنه يسمي هذا الفن بالإعنات(١) ، والإعنات شيء آخر ، يسميه تجاهل العارف ، ويذكر له أمثلته المعروفة(٢) .

ويقسم ابن أبي الإصبع تجاهل العارف إلى قسمين ، قسم يكون الاستفهام فيه عن شيئين أحدهما واقع والآخر غير واقع ، وقد ينطق بأحد الشيئين ويسكت عن الآخر لدلالة الحال عليه ، وهو على قسمين : موجب ، ومنفي ، ثم يأتي بالأمثلة على هذا القسم فيجعل من الموجب قوله تعالى : ﴿**أبشراً منا واحدًا نتبعه**﴾(٣) وهو عنده خارج مخرج التعجب ، ومنه أيضا قوله سبحانه وتعالى على لسان قوم شعيب : ﴿**أصلوتك تأمرك أن نترك مايعبد ءاباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشؤا**﴾(٤) وهو عنده خارج مخرج التوبيخ مع أنه تهكم واضح ، ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ **ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله** ﴾(٥) وقوله ﴿ **ءأنت فعلت هذا بالهتنا يـإبرهيم** ﴾(٦) وهذان الموضعان عنده خرجا مخرج التقرير ، ومنه ماجاء في المدح كقول بعض المحدثين :

بدا فراع فؤادي حسن صورته ۝ فقلت هل ملك ذا الشخص أم ملك

ومن المنفي ماجاء للذم كقول زهير بن أبي سلمى :

وما أدري وسوف إخال أدري ۝ أقوم آل حصن أم نساء

---

(١) انظر تحرير التحبير ١٣٥ .

(٢) البديع ٦٢ .

(٣) الآية (٢٤) من سورة القمر .

(٤) الآية (٨٧) من سورة هود .

(٥) الآية (١١٦) من سورة المائدة .

(٦) الآية (٦٢) من سورة الأنبياء .

ومنه مادل على التدله في الحب كقول العرجي :

بالله ياظبياتِ القـــاعِ قلنَ لنـــا لَيْلايَ منكـــنَّ أم ليلى من البشـــرِ

وأما القسم الثاني فإنه لم يذكر له تعريفا بل قال : ومما جاء من القسم الثاني في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ ماهٰذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾(١) واعجب بفصاحة النسوة حيث شبهنه بالملك والعرب تشبه كل من راعهم حسنه بالجن (٢) .

ويرى ابن أبي الإصبع أن هناك نوعا من التشكيك التبس على بعض المؤلفين حتى أدخله في باب تجاهل العارف ، وهو أن يرى المتكلم شيئا شبيها بشيء فيشكك نفسه فيه لقصد تقريب المشبه من المشبه به ، ثم يعود عن المجاز إلى الحقيقة ، فيزيل ذلك التشكيك فإن لم يعد إلى الحقيقة فهو تجاهل العارف وإن عاد فهو التشكيك المحض (٣) .

أما ابن الأثير الحلبي فإنه يجعل له اسمين ، أحدهما تجاهل العارف ، والآخر يقال له (الإعنات) فأما الأول فيطلق على ما يأتي من نوعه في النظم والنثر ، وأما الثاني فيطلق على مايأتي من هذا النوع في الكتاب العزيز أدبا مع الآيات الكريمة (٤) .

ولا شك أن التأدب مع الآيات الكريمة وتعظيمها من تقوى القلوب ولكن تسمية مايأتي من هذا النوع في الكتاب العزيز (بالإعنات) لاشك أنه خطأ ، لأن الإعنات فن آخر يتعلق بالقوافي بأن يعنت الشاعر نفسه في القوافي فيلزمها ويتكلف ماليس له(٥)

---

(١) الآية (٣١) من سورة يوسف .

(٢) انظر تحرير التحبير ١٣٥ - ١٣٧ .

(٣) تحرير التحبير ٥٦٤ .

(٤) انظر جوهر الكنز ٢٠٨ .

(٥) البديع ٧٤ .

وأفضل من هذه التسمية تسمية السكاكي حيث كره أيضا تسميته بالتجاهل فسماه (سوق المعلوم مساق غيره) (١) .

ويقسم الحلبي هذا النوع إلى أقسام ، فيجعل الأغراض أقساما ، منها مايخرج مخرج المدح أو الذم ، ومنها مايخرج مخرج التقرير ، ومنها ما يخرج مخرج التوبيخ(٢) .

وتجاهل العارف قد يكون الغرض منه الذم والسخرية ، فيأتي قويا حسنا لأن الكلام فيه إخرج مخرج التشكك والتجاهل والتهافت والتهزل ، واعترض بين التصريح والتعريض ، ومما يدل على صحة ذلك إعجاب الحذاق من العلماء وفرسان الكلام بقول زهير في تشككه وتهزله وتجاهله فيما يعلم :

وما أدري ، وسوف إِخَالُ أدْرِي　　أقومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نساءُ

فإنْ تَكُنِ النساءُ مخبآتٍ　　فَحُقَّ لكلِّ مُحْصَنَةٍ هِدَاءُ

فإن هذا عندهم من أشد الهجاء وأمضّه (٣) .

وحقيقة هذا الباب أن المتكلم إذا كان آخذا في كلامه وهو عالم بحقيقة ماهو متكلم فيه ثم يسأل عن بعضه وهو يعلم حقيقته ليخرج كلامه إلى مخرج آخر تجاهلا بما هو عارف به تلعبا بالفصاحة (٤) .

---

(١) انظر مفتاح العلوم ٤٢٧ .

(٢) انظر جوهر الكنز ٢٠٨ .

(٣) انظر العمدة ٢/ ٨٤٦ .

(٤) جوهر الكنز ٢٠٨ .

واستعمال هذا الأسلوب في الهجاء والسخرية كثير عند الشعراء ، من ذلك قول جرير يهجو « التيم » ويسخر منهم (١) :

وَيُقْضَىٰ الأمرُ حين تغيبُ تيـــمٌ ... ولا يُستأذنون وهم شُـــهودُ

لِئـــامُ العالمين كِـــرامُ تَـيْمٍ ... وسيِّدُهم وإنْ زعموا مَسُـــودُ

وإنك لو لقيـــتَ عبيـدَ تيـــمٍ ... وتيمـــاً قلتَ أيُّهُمُ العبيـــدُ !

أكثر جرير من السخرية بالتيم والاستخفاف بهم ، وفي هذه الأبيات الثلاثة نراه يكرر لفظ التيم أربع مرات ، والتكرار هنا استخفاف بهذا الاسم ، ثم ينفي عنهم الكرم فليس فيهم سيد كريم بل هم دوما مسودون لا تفرق بينهم وبين عبيدهم .

وأفضل منه في هذا الباب قول البحتري في حاجب لأحد الوزراء (٢) :

وأظلمْتَ حين لبستَ الســـوا ... دَ ظلامَ الدُجى لم يَسِـرْ راكِبُهْ

ولما حضرْنَا لإذْنِ الوزيـــــــ ... ـــرِ ، وقد رُفع السِّترُ أو جانبُـهْ

ظَلِلْـــنَا نُرجِّم فيك الظنـــونَ : ... أَحاجِمُـــهُ أنتَ أم حاجِـــبُهْ

فالبحتري يعرف أنه الحاجب ، ولكنه تجاهل وأخرج كلامه مخرج التشكك والتهزل بقصد التهكم والسخرية من هذا الحاجب الثقيل .

والمتنبي في هجائه المرّ لكافور يتساءل في تغافل وتجاهل مقصود عمن علم هذا الأسود المكارم (٣) :

---

(١) ديوان جرير ١/ ٣٣٢ .

(٢) ديوان البحتري ١/ ٢٧٢ .

(٣) ديوان المتنبي ٢/ ٤٦ .

مَنْ علَّمَ الأسودَ المخصيَّ مكرمةً ... أقومُهُ البيضُ أم آباؤُهُ الصِّيدُ

وهو أدرى الناس بقوم كافور وآبائه ، ولكنه أراد أن يسخر بكافور .

ويسلك دعبل قبلهم هذا الأسلوب في سخريته من بني وهب فيقول : (١)

إذا رأيتَ بَني وَهْبٍ بمنزلةٍ ... لم تَدْرِ أيُّهُمُ الأنثى من الذَّكرِ

قميصُ أنثاهُمُ ينقدُّ من قُبُلٍ ... وقُمصُ ذُكرانِهِمْ تَنْقَدُّ من دُبُرِ

مُحَنَّكُونَ على الفحشاءِ في صغرٍ ... مُحَنَّكُونَ على الفحشاءِ في كبرِ

مُحَنَّكُونَ ولم تُقْطَعْ تمائمُهُمْ ... مع الفواطِمِ والدّاياتِ بالكبرِ

أفحش دعبل على بنى وهب ، وسلك مسلك زهير بن أبي سلمى قبله في آل حصن ، إلا أن زهيرا كان أعف منه لسانا ، ورماهم بالفحشاء ، واستفهم في تجاهل وتغافل ليقول إن الناظر إليهم لايستطيع أن يفرق بين إناثهم وذكرانهم .

وبعد ، فإن أسلوب التجاهل فن بديعي يأتي منه أغراض عدة ، أبرزها التهكم والسخرية ، وهو كما نرى أسلوب يتناسب مع طبيعية السخر ، فالساخر يتغافل ويتجاهل ويتهزل .

---

(١) شعر دعبل ١١٨ .

أسلوب التهكم

التهكم في اللغة يقال : تهكمت البئر تهدمت ، وتهكم عليه من شدة الغضب مثل تهدم عليه ، وتهكم به : تهزأ به وقال ذلك على سبيل التهكم (١) .

وهو عند البلاغيين : الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير ، والبشارة في موضع التحذير ، والوعد في مكان الوعيد ، والعذر في موضع اللوم ، والمدح في معرض السخرية ، ونحو ذلك (٢) .

والتهكم كظاهرة أسلوبية هي موضوع بحثنا ، أما التهكم هنا فهو مصطلح بديعي اجتمعت فيه عدة أساليب ، فالخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير ، وبالبشارة في موضع التحذير ، وبالوعد في مكان الوعيد ، وبالعذر في موضع اللوم ، هذه الأساليب كما يظهر ترجع إلى أصل واحد وهو ما أسماه الزمخشري « بالعكس في الكلام » عند كلامه على قوله تعالى ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ (٣) .

يقول الزمخشري : « وأما ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه ، كما يقول الرجل لعدوه : أبشر بقتل ذريتك ، ونهب مالك » (٤) .

---

(١) أساس البلاغة (هكم) .

(٢) أنوار الربيع ٢/ ١٨٥ .

(٣) الآية (٣٤) من سورة التوبة .

(٤) تفسير الكشاف ١/ ٥١ .

وأما المدح في معرض السخرية فمبحث من مباحث البديع أفرد له البلاغيون بابا مستقلا من أبواب البديع ، وإن كان بعض البلاغيين يجعل بينه وبين التهكم فرقا (١) .

ويبدو أن عقد البلاغيين للتهكم بابا في البديع يجمعون فيه بين هذه الأساليب المتفرقة ناتج عن الشعور بأن التهكم أسلوب شائع يمكن أن يأتي من عدة فنون كالتشبيه، والاستعارة والاستفهام والأمر وغيرها، وهذا الشعور يعزز الفكرة التي قام عليها هذا البحث .

ومن أوائل من أشار إلى هذا المصطلح الزمخشري ، يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ **له معقبٰت من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾(٢) : « وقيل المعقبات الحرس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله ، أي من قضاياه ونوازله ، أو على التهكم به » (٣) .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ **بشر المنٰفقين بأن لهم عذابا أليما** ﴾ (٤) وضع بشر مكان أخبر تهكما بهم (٥) .

وينقل ابن حجة عن ابن أبي الإصبع قوله إن هذا النوع من مخترعاته (٦) وربما قصد أنه أول من أفرد له بابا في البديع ، أما أن يكون أول من فطن إليه فالزمخشري كما رأينا وغيره قد أشاروا إليه من قبله .

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ٢١٧ .

(٢) الآية (١١) من سورة الرعد .

(٣) تفسير الكشاف ٢/ ٢٨٢ .

(٤) الآية (١٣٨) من سورة النساء .

(٥) تفسير الكشاف ١/ ٣٠٥ .

(٦) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ٢١٦ .

ومن أمثلة التهكم في وضع البشارة موضع التحذير بقصد السخرية والتهكم قوله تعالى : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾(١) .

ومن الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير قوله تعالى : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ تحقيرا لأبي جهل وتهكما به وتعييرا له على قوله ﴿ **أنا العزيز الكريم** ﴾ (٢) فيخاطب يوم القيامة وهو في غمرة العذاب بخطاب التكريم والإجلال هذا ، تهكما به وسخرية من قوله .

ومن الوعد في موضع الوعيد قوله تعالى : ﴿ **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه** ﴾(٣) . وفيه تهكم ، فقد وضع الوعد وهو (يغاثوا) مكان الوعيد تهكما بهم .

ومن أمثلة وضع العذر موضع اللوم بقصد السخرية والتهكم ، قول أحد الشعراء في الوزير أبي القاسم الجرجاني ، وكان أقطع اليدين من المرافق : (٤)

وأقمت نفسك في الثقــــات   وهبــك فيما قلت صـــادق

فـمن الأمانـة والتقـــــــى   قطعت يداك من المرافـــق

يصدقه ويقبله في الثقات ، ثم يقلب له ظهر المجن فيجعل الأمانة والتقى اللذين عرف بهما سببا في قطع يديه من المرافق ، ولا تقطع اليد إلا في حد السرقة ، فيبدو في البيت الأول كأنه يعذره ، ولكنه سرعان ما يتهكم به .

---

(١) ورد هذا الجزء من الآية في ثلاث سور : آل عمران (٢١) ، التوبة (٣٤)، لقمان (٧)، الجاثية (٨) ، الانشقاق (٢٤).

(٢) انظر تفسير الكشاف ٣/ ٤٣٤ .

(٣) بعض الآية (٢٩) من سورة الكهف .

(٤) أنوار الربيع ٢/ ١٨٧ .

ومن أمثلة المدح في معرض السخرية التي كررها بعض البلاغيين (١) أبيات لابن الذروي في صديق له أحدب ، قالوا إن ظاهرها مدح لكنه جاء في معرض السخرية وقصد به التهكم ، ولا رائحة للتهكم في هذه القصيدة ، ومن أراد أن يخرج بحكم صحيح على أبياتها فليقرأ القصيدة كاملة ، فليس فيها لفظة واحدة يفهم منها التهكم إنما هو مدح خالص وتزيين لهذا الحدب كعادة الشعراء في التزيين ، يقول ابن الذروي(*) : (٢)

يا أخي كيف غيّرتْنَا الليالي ... وأحالتْ مابيننا بالمحالِ

حاشَ اللّه أنْ أُصَافي خليلاً ... فيَراني في ودِّه ذا اختلالِ

زعمُوا أني نظمتُ هجاءً ... مُعْرباً فيك عن شَنيعِ المَقَالِ

كذبوا إنما وصفتُ الذي حز ... تَ من الفضْلِ والبَهَا والكَمَالِ

لا تظُننّ حذْبةَ الظهرِ عيْباً ... وهي في الحسنِ من صفاتِ الهلالِ

وكذا القسيُّ مُحْدَودِبَاتٌ ... وهي أَنْكَى من الظّبَا والعَوالي

وإذا ماعلا السنَامُ ففيه ... لقُرومِ الجِمالِ أي جَمالِ

وأرى الانحِناءَ في مخْلبِ البازيّ ولم يُعد مخْلبُ الرِئْبَالِ

كوّنَ اللهُ حدبةً فيك إن شئتَ من الفضلِ أو من الأفضالِ

---

(١) انظر التحرير والتحبير ٥٦٩ ، وخزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ٢١٦ ، وأنوار الربيع ٢/ ١٨٧ .

(*) القاضي الوجيه على بن يحيى المعروف بابن الذروي شاعر مجيد توفى بمصر . فوات الوفيات ٢/ ١٨٨ .

(٢) أنوار الربيع ٢/ ١٨٧ ، ١٨٨ .

فأتت ربوةً على طودِ عِلمٍ ... وأتتْ موجةً ببحرِ نَوالِ
ما رأتْهَا النساءُ إلا تمنتْ ... أنها حليةٌ لكلِّ الرجالِ
وأبو الغصنِ أنت لا شك فيه ... وهو ربُّ القَوَامِ ذو الاعتدالِ
عُدْ إلى وِدِّنَا القديمِ ولا ... تُصْغِ لقيلٍ من الوشاةِ وقالِ
وتذكَّر ليالياً حين ولَّتْ ... أودعتْ حسنَهَا عُقودَ اللآلي
أَتُرى بالرجاءِ يجمعُ شملي ... أم رجائي مخيبٌ وابتهالي
وإذا لم يكن من الهجرِ بُدٌّ ... فعسى أن تزورنا في الخيالِ

ولكن ابن معصوم يذكر قصيدة أخرى في أحدب وهي لأبي الفتح بن دانيال(*) ويفضلها على القصيدة السابقة ويرى أن الاستشهاد بها أعقد من تلك في هذا النوع والقصيدة هي قوله : (١)

قسماً بحسنِ قوامِكَ الفتَّانِ ... يا أوحدَ الأمراءِ في الحدبانِ
أنت الحسامُ زَهَا برونَقِ حدبةٍ ... فَزَهَا على الخطيَّةِ المرانِ
يامُخْجِلا شكل الهلال بقدِّه ... حاشاك أن تُعْزىٰ إلى نُقْصَانِ
ومُمايلاً قدُّ القضيبِ إذا مشى ... مِنْ حَدْبَتَيْهِ يميسُ كالريانِ
ماعابَ قامتَكَ الحسودُ جهالةً ... إلا أجبتَ مقاله ببيانِ

(*) محمد بن دانيال الموصلي أديب شاعر عمل بخيال الظل واشتهر بالدعابة والهزل ، توفى سنة ٧١٠هـ . فوات الوفيات ٢/ ٣٨٣ .

(١) انظر أنوار الربيع ٢/ ١٨٩ ، ١٩٠ .

هل يحسنُ الجوكانُ إلا أن يرى ... مع أُكْرِه في حلبةِ الميدان
أو هل يزينُ المتنَ إلا رِدْفُهُ ... حسناً فكيف بمَنْ له رِدْفَانِ
والعود أحدبُ وهو أَلْهَى مطربٍ ... ولقد سمعتَ بنغمةِ العيدانِ
وكذا سفينُ البحر لولا حدبة ... في ظهرِهِ لم يقْوَ للطوفانِ
وإذا اكتسىٰ الإنسانُ قيل تمثلاً ... في المدح قامتْ حدبة الإنسانِ
يفديك في الحدبان كل مكوبجٍ ... يمشي الهُوينا مِشْيَةَ السَّرطانِ
متجمعُ الكتفينِ أقْنَصَ قد بَدَا ... في هيبةِ المتجشعِ الصفعَانِ

فهذا مدح في معرض السخرية واضح كل الوضوح ، فمن هذا الذي هو أوحد الأمراء في الحدبان ؟ ومتى كان للحدبان أمير ! إنه العبث والسخرية ، ثم لم يزل يعبث حتى جعل هذه الحدبة ردفا زائدا ، والزيادة خير ! ثم شبه مشيته بمشية السرطان وهي مشية عجيبة ، وشبه شكله وحدبه بصورة من تجمع ينتظر الصفع لينزل على قفاه .

ومن التهكم قول ابن الرومي : (١)

فياله من عملٍ صالحٍ ... يرفعُهُ اللهُ إلى أسفلِ

تلاعب بالألفاظ كعادة ابن الرومي ، وسخرية بهذا العمل الذي سماه « صالحا » وهو يقصد في الحقيقة أنه « باطل » ، قدم له بلغة تشعر بالتعظيم « فياله ! » ثم أخبر عنه بأنه مرفوع ولكن إلى أسفل ، والرفع لايكون إلا إلى أعلى ، ولكنه عكس الشاعر للكلام بقصد السخرية والتهكم .

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ٢١٦ .

ومن أظرف أمثلته كما عند ابن حجة قول حماد عجرد في ابن نوح وكان يدعي العربية وهو أعجمي (١) :

فيا ابنَ نُـــــوحٍ يا أخا   الحِلْـــسِ ويابن القَتَبْ
ومـــــنْ نَشَـــا والدُهُ   بين الرُّبـــي والكُتُـــبْ
يا عربي يا عـــــــربي   يا عـــربي يا عـــربي

يتظاهر الشاعر بمدح ابن نوح فينسبه إلى أخوة الحلس ، وبنوة القتب ، أما أبوه فهو الذي نشأ بين الربى والكثب ، وإنما يقصد أن يعرض بعربيته الأصيلة ، فهو عربي عربي عربي عربي ، وهذا التكرار مع النداء هو خاتمة هذه السخرية العابثة في قصيدة كلها تهكم تخفى في ثوب المدح فالعربي لايحتاج إلى من يثبت عروبته ويدافع عنها .

ومما سبق يتضح لنا أن التهكم مصطلح بديعي يجمع تحته عدة أساليب الغرض والقصد منها السخرية والهزء ، وهو أسلوب شائع ورد في القرآن الكريم ، ودار على ألسنة الشعراء والأدباء .

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ٢١٦ .

الاقتباس والتضمين الساخر

وكان بعض الساخرين يلجأ في سخرياته إلى الاقتباس أو التضمين بأن يقتبس شيئا من القرآن أو الحديث « ولا ينبه عليه للعلم به » (١) أو يضمن شعره شيئاً من شعر غيره مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً (٢) .

واختلفوا في جواز تغيير المقتبس إذا كان من القرآن ، فمن البلاغيين من منع (٣) ومنهم من أجاز تغييراً يسيرا (٤) ، وحجة المانعين هي التورع وتنزيه القرآن عن هذا التغيير والتبديل ، والأظهر أن هذا النص المقتبس ليس المقصود به القرآن « بل هو كلام وجد نظمه في القرآن وأريد به غير القرآن ، فلو أخذ مراداً به القرآن كان ذلك من أقبح القبيح ومن عظام المعاصي » (٥) ولذلك عرف صاحب الإيضاح الاقتباس بقوله : أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه (٦) . فهو ليس بقرآن حقيقة بل كلام يماثله بدليل جواز نقله عن معناه الأصلي ، وذلك في القرآن لايجوز (٧) .

وقد أُثر مثل هذا التغيير في النص المقتبس في شعر بعض شعراء الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين الذين تأثروا بالقرآن عند نزوله فضمنوه بعض أشعارهم وهم من هم في

---

(١) حسن التوسل ٣٢٣ .

(٢) بغية الايضاح ٤/ ١٣٤ .

(٣) انظر البديع من المعاني والألفاظ ، د. عبدالعظيم المطعني ١٤٩ .

(٤) انظر مثلا بغية الإيضاح ٤/ ١٣٣ ، وجواهر البلاغة ٤١٤ .

(٥) عروس الأفراح ٤/ ٥٠٩ ، ٥١٠ .

(٦) الإيضاح ٤/ ٥٠٩ ، ٥١٠ .

(٧) أنوار الربيع ٢/ ٢١٩ .

الورع والتقى ، يقول النابغة الجعدي رضي الله عنه : (١)

الحمـــد لله لاشـــــــريك له ... مـــن لم يقلهــا فنفســـه ظلما

المولج الليل في النهار وفي الليـــــــل نهـــاراً يفــرج الظلمـــــا

اقتبس الآية الكريمة : ﴿**يولج اليل في النهار ويولج النهار في اليل**﴾(٢)

وقول حسان رضي الله عنه يصف النبي ﷺ وحاله مع قومه :(٣)

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدي ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

ضمنه قوله تعالى : ﴿**عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم**﴾(٤)

والاقتباس كما عند البلاغيين ثلاثة أقسام : مقبول ، ومباح ، ومردود فيجعلون من الأول ماكان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ، والثاني ماكان في الغزل والرسائل والقصص ، والثالث على ضربين : أحدهما مانسبه الله تعالى إلى نفسه ، ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه ، كما قيل عن أحد بني مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية من عماله : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » والآخر تضمين آية كريمة في معنى الهزل .(٥)

والأقرب للصواب أن الاقتباس قسمين ، مردود ومقبول ، فما كان في معنى هزل أو سخرية أو مجون أو نحو ذلك فإنه مردود ، وما كان غير ذلك مما لايتنافى مع جلال القرآن والسنة وقدسيتهما فهو مقبول .

---

(١) شعر النابغة الجعدي ١٣٢ ، جمعه عبدالعزيز رباح .

(٢) بعض الآية (٦) من سورة الحديد .

(٣) شرح ديوان حسان بن ثابت ١٤٩ ، عبدالرحمن البرقوقي .

(٤) بعض الآية (١٢٨) من سورة التوبة .

(٥) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب ٢/ ٤٥٥ .

وفي ذلك لابن الرومي اقتباس ظريف في السخرية من ذلك الذي مدحه فلم ينل منه مايرضيه، فقال فيه :(١)

لئن أخطأتُ في مدحــك ما أخطــأتَ في منعي
لقد أنزلــتُ حاجــاتي بــوادٍ غــيرِ ذي زرعِ

والمعنى المقتبس هنا من الآية الشريفة ﴿**ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم**﴾(٢) ، فنقل عن معناه الأصلي بناء على أنه ليس بقرآن حقيقة فقد كني به عن الرجل الذي لانفع لديه ، والمراد به في الآية الشريفة مكة شرفها الله(٣) .

ومن الاقتباسات الساخرة قول الأبيوردي في معنى قريب من معنى ابن الرومي السابق : (٤)

وقصائدٍ مثلُ الرياضِ أضعْتُهَــا في باخلٍ ضاعَتْ به الأحسابُ
فإذا تناشــدَهَا الرُّواةُ وأبْصَــرُوا الممدوحَ ، قالـوا ساحرٌ كـذَّابُ

ما أبدع هذا العذر وألطف هذه الحيلة التي استطاع الشاعر بها أن يتبرأ من تلك القصائد التي دبّجها في ذلك الباخل اللئيم ، فهو لم يمدح بإرادته بل كان مسلوب الإرادة فإذا مارأى الناس ذلك الممدوح وسمعوا المدح فيه أيقنوا إنما هو ساحر كذاب .

---

(١) أنوار الربيع ٢/ ٢١٩ .

(٢) الآية (٣٧) من سورة إبراهيم .

(٣) انظر أنوار الربيع ٢/ ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٤) معاهد التنصيص ٤/ ١٤٠ .

ومن ظريف التضمين الساخر ماحكي أن الحيص بيص(*) الشاعر قتل جرو كلب وهو سكران ، فأخذ أبو القاسم القطان الشاعر كلبه وعلق في رقبتها قطعة وأطلقها عند باب الوزير ، فأخذت القطعة من عنقها وأدخلت على الوزير ، فإذا فيها مكتوب : (١)

ياأهل بغداد إن الحيص بيص أتى — بخزية أورثته العار في البـــلد

أبدى شجاعته بالليـــل مجترئاً — على جري ضعيف البطش والجلد

فأنشدت أمه من بعد مااحتسبت — دم الأبيلق عند الواحد الصـمد :

أقول للنفس تأســـاء وتعزية — إحدى يدى أصابتني ولـم ترد

كلاهما خلف من فقد صـاحبه — هذا أخي حين أدعوه وذا ولـدي

البيتان الأخيران لامرأة من العرب قتل أخوها ابناً لها فقالتها تسلية لنفسها (٢) . وقد أحسن الشاعر في الثأر لجروه ، فألبس الحيص بيص عاراً لن يفارقه أبدا ، وها نحن بعد مئات السنين نروي هذه السخرية من الحيص بيص وفعلته التي أورثته العار .

ومن التضمين الساخر البديع أبيات لأحد شعراء مصر في القرن السابع الهجري حيث الفكاهة والسخرية وجدت حظها الوافر ، ضمن الشاعر أيدمر المحيوي(**) أبياتاً لامرئ القيس فجعلها أعجازا لقصيدته التي يسخر فيها من أحد البخلاء ، يقول : (٣)

(*) سعد بن محمد بن سعد المعروف بحيص بيص الفقيه الأديب الشاعر من أعلم الناس بأخبار العرب وسمي بذلك لأنه رأى الناس في أمر شديد فقال ما للناس في حيص بيص فبقي عليه هذا اللقب ، توفى ٥٧٤ هـ . معجم الأدباء ١١/ ١٩٩ .

(١) معاهد التنصيص ٤/ ١٦٢ .

(٢) انظر شرح الحماسة للتبريزي ١/ ١١٠ .

(**) علم الدين أيدمر المحيوي شاعر تركي ، وكان مملوكاً فأعتق ، كان واسع المعرفة بعلوم عصره وله ديوان شعر وموشحات ، توفى نحو ٦٥٠هـ . فوات الوفيات ١/ ١٤٠ .

(٢) جوهر الكنز ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

ترى ضيـفَـهُ المسكينَ جُـوعـاً كـأنه ... لدى سَـمُـراتِ الحيِّ ناقفُ حنْظَلِ
فـما مطْعمُ الأضيـافِ من منزلي سوى ... نسيم الصَّـبَـا جاءَتْ بريَّا القـرنفُلِ
ولو ذُقْتَ لي خبزاً لفاضَتْ مدامـعي ... علي النَّحْرِ حتى بلَّ دمـعي مَحْمِلي
ألستَ تراني كـيف غطيَّـتُ سُـفْرتي ... بشـقٍّ وتحتي شِـقَّـهـا لم يُحـوَّلِ
وكم رُمْتُ منهـا كِـسْرةً فـتـعـذَّرتْ ... علـيَّ وآلت حلفـةً لم تُحَـلَّلِ
فـيـالكِ من رُغْـفَـانِ خـبـزٍ كـأنما ... بكلِّ مُـغَـارِ الفَـتْلِ شُـدَّت بِـيذْبُلِ
أخـفُّ مـن اليقْطـينِ رأسـاً كأنه ... كجلمودِ صخرٍ حطهُ السيلُ من عَلِ

مسكين هذا الضيف الذي يظل يومه لدى سمرات الحي واقفا يبكي حظه الذي رماه على هذا الباخل اللئيم ، الذي يقري أضيافه نسيم الضبا ؛ لأن عينيه لاتصبران على رؤية خبزه وهو يؤكل ، وهو من لؤمه يحاول إخفاء طعامه بغطاء ولكن هذا الغطاء لايغطي السفرة كلها فلا يتوانى هذا الباخل عن الجلوس على بقية الطعام حتى يغطيه عن أعين أضيافه ، إنها صور بديعة مضحكة هذا الذي يجلس على الطعام حتى لا يرى وتلك الرغفان التي شدت وأوثقت ، وذلك الضيف المسكين الذي يظل نهاره لدى سمرات الحي يندب حظه .

وممن أكثر من استخدام الاقتباس والتضمين في السخرية الشاعر الحمدوني الذي اشتهرت سخرياته من شاة سعيد وطيلسان ابن حرب (١) ، ويعتمد في تهكمه بالشاة أو سخريته بصاحبها سعيد على المبالغة في وصفها بالهزال ، وجعلها تتغنى دائماً - كأنها عاشقة - بحبيبها ألا وهو العلف الذي حرمت منه فحينما تراه تتحرك عواطفها وتجيش

---

(١) انظر طبقات الشعراء ، لابن المعتز ٣٧٠ ، تحقيق عبدالستار فراج .

فتتغنى ببيت يضمن من إحدى الأغاني المشهورة في عصره ، فيظهر الشاة كأنها عاشقة مدنفة ، ولهذا فهي مهزولة دائماً وليست إلا جلداً أو عظاما (١) .

ومن ذلك قوله يخاطب أبا سعيد ساخراً به وبشاته : (٢)

أبا سعيد لنا في شـــــاتك العبر　　جاءت وما إن لها بول ولا بعــر

وكيف تبعر شـــاة عندكم مكثت　　طعامها الأيبضان الشمس والقمر

لو أنها أبصرت في نومها علفـــاً　　غنت له – ودموع العين تنحـدر :

يامانعي لذة الدنيا بأجمعهـــــا　　إني ليقنعني من وجهـــك النظر

ومن تضميناته الشهيرة قوله في هذه الأضحية التي أهداها إليه سعيد بن أحمد بن جوسبنداد : (٣)

أســـعد قـــد أهديتني أضحـــــية　　مكثت زمانا عنـــدكم ما تطـعم

نضوا ، تغامزت الكلاب بها وقـــد　　شدوا عليها كي تموت فيقضـموا

فإذا الملا ضحكوا بها قالت لهـــم　　لاتهزءوا بي ، وارحموني ترحموا

مرت على علف ، فقـــامت لم ترم　　عنه ، وغنت – والمدامع سـجم :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي　　متأخــر عنـــه ولا متقـــدم

---

(١) انظر السخرية في الأدب العربي ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٢) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ، جمع د. نعمان طه ٢٥٩ ، ضمن كتاب السخرية في الأدب العربي .

(٣) المرجع السابق ٢٦١ .

هذه كلها تضمينات ساخرة أخرجها الحمدوني على لسان تلك الشاة التي أصبحت مثاراً للسخرية ، أكثر الشاعر من التهكم والتهزؤ بصاحبها حتى صارت نقمة عليه .

ومثل ذلك أيضاً سخرياته من طيلسان ابن حرب ، وكان من المنعمين عليه المحسنين إليه ، وكان الحمدوني يستخدم التضمين في سخرياته تلك ، من ذلك قوله : (١)

وهبت لنا ابن حرب طيلسانا … يزيد المرء ذا الضعة اتضاعا

يسلم صاحبي فيقد شبرا … به ، وأقد في ردي ذراعا

أجيل الطرف في طرفيه طولا … وعرضا ، ما أرى إلا رقاعا

فلست أشك أن قد كان قدما … لنوح في سفينته شراعا

فقد غنيت إذ أبصرت منه … جوانبه على بدني تداعى :

قفي قبل التفرق ياضباعا … ولا يك موقف منك الوداعا

سخرية كان قوامها هذه اللغة الهازلة ، والمبالغة في تصوير رثاثة هذا الطيلسان الذي ينقد عند أدنى حركة حتى كأنه من قدمه كان شراعاً لسفينة نوح ، ثم ختم سخريته بهذا التضمين البديع الذي يظهر فيه الشاعر الجد وهو يتماجن ويتباكى فيصور موقف وداع يضمنه شعره وإنما قصده العبث والسخرية .

ويكثر الحمدوني في سخرياته من الاقتباس من القرآن ، فابن سعيد يصيح من وراء الحجرات كشاعر بني تميم الذي صاح بالنبي ﷺ أن يخرج إليه لمنافرته ومفاخرته(٢)

---

(١) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٩ ، والبيت المضمن للشاعر القطامي .

(٢) المرجع السابق ٢٥٩ .

ويذكر قصة أصحاب الجنة (١) والسامري الذي عبد العجل(٢) ويستخدم آيات كثيرة : **﴿ الروح من أمر ربي ﴾**(٣) **﴿ كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾**(٤) **﴿ أءذا كنا عظاماً نخرة ﴾**(٥) ، وهناك مقطوعة رائية أقامها على تضمين خمس آيات من سورة القمر(٦) فمن هذه الاقتباسات الساخرة قوله : (٧)

صاحَ بي ابنُ سعيدٍ　　من وراءِ الحُجُراتِ

قرّبَ الناسُ الأضاحي　　فأنا قربتُ شَاتي

شاةُ سوءٍ من جلودٍ　　وعظامٍ نَخِراتِ

كلّما قدّمتُها للـ　　ـذبح قالتْ : واحياتي !

فقد لمز ابن سعيد بتضمينه الآية الكريمة : **﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾**(٨) .

ومن ذلك سخريته من طيلسان ابن حرب بقوله : (٩)

أيا طيلساني أعييتَ طِبّي　　أَسلٌ بجسمكَ أم داءُ حبٍّ ؟

---

(١) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ٢٦٣ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٦) المرجع السابق ٢٦٦ .

(٧) المرجع السابق ٢٥٩ .

(٨) الآية (٤) من سورة الحجرات .

(٩) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٣ .

ويا ريح ، صـــيرتني أتقيك   وقـــد كنت لا أتقي أن تهبي

ومســـــتخبر خبر الطيلسان   فقلت له : الروح من أمــر ربي

فهو طيلسان عجيب لايعلم كنهه أحد ، كالروح لايعلم وصفها أحد .

ومنه قوله : (١)

قل لابن حـــــرب طيلسا .نك قـــوم نوح منه أحدث

يودي إذا لـــم أرفـــه   وإذا رفـــوت فليس يلبث

كالكلب إن تحمـل عليـــ   ـــه الدهر أو تتركه يلهـث

اقتبس الآية الكريمة : ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهـث﴾(٢) .

ومن ذلك هذه المقطوعة التي ضمنها الحمدوني عدة آيات من سورة القمر يسخر فيها من ابن حرب وطيلسانه ، فيقول : (٣)

طيلســان ابن حـــرب جاءني   خلعـــة في يوم نحس مستمر

فإذا ماصـــحت فيه صـــيحة   تركته كهشـــيم المحتظـــر

وإذا ما الريـــح هبت نحـــوه   طيرتـــه كالجـــراد المنتشر

مهطع الداعــي إلى الرافي إذا   مارآه قـــال : ذا شـــيء نكر

وإذا رفـــاؤه حـــاول أن   يتلافـــاه تعاطـــى فعقـــر

---

(١) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٣

(٢) بعض الآية (١٧٦) من سورة الاعراف .

(٣) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٦ .

كما اقتبس الشعراء من الحديث الشريف فضمنوه أشعارهم وربما كان ذلك في موضع سخرية من خصومهم ، فوظفوا ذلك النص الشريف وما له من قيمة تاريخية وقدسية وشيوع حتى يكون ذلك أقوى في الإدعاء ، ويظهر الساخر وكأنه يستند إلى حجة لها من القوة والتصديق والطرافة مايجعل السامع يسلم له بدعواه .

من ذلك قول أبي الحسن علي بن المفرج المنجم لما احترقت دار الوجيه ابن صورة بمصر : (١)

أقولُ وقدْ عاينْتُ دارَ ابنَ صُورةٍ ... وللنـــار فيها مارِجٌ يتضرَّمُ
كذا كلُّ مالٍ أصلُه من نَهَـاوِشٍ ... فعمَّا قليـــلٍ في نَهَابِرَ يُعْدمُ
وما هو إلا كافـــرٌ طال عمرُهُ ... فجاءَتْـــهُ لما استبطأَتْهُ جهنَّمُ

سخرية مرة ، وشماتة حارة صبها أبو الحسين على هذا المنكوب الذي لم يكفه ما أصابه حتى سلخه الشاعر بهذه السخرية التي يلمزه فيها بأكل الحرام ، فما نبت من سحت فالنار أولى به ولكنها نار مستعجلة بل عقوبة معجلة ، وضمن الشاعر أبياته الحديث الذي يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أصاب مالاً من نهاوش ، أهلكه الله في نهابر » والنهاوش المظالم ، والنهابر المهالك (٢) .

ومن الاقتباسات الساخرة التي ضمن فيها الحديث الشريف هذه المقطوعة للحمدوني في طيلسان ابن حرب ، يقول : (٣)

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢/ ٤٧٢ .

(٢) كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ٢/ ٢٩٥ ، ٢٩٦ . قال الألباني : « ضعيف » في ضعيف الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير) لمحمد ناصر الدين الألباني ٥/ ١٦٦ .

(٣) مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان ٢٦٨ .

وطيلسانٌ إن تأملتُه قددتُه بالطولِ والعرضِ
كأن إشفاقي عليه إذا غدوتُ إشفاقي على عِرضي
لو أنَّه بعضُ بنى آدمٍ كان أسيرَ اللهِ في الأرضِ

أبدع في تصوير رقة هذا الطيلسان الذي ينقد من مجرد التأمل ، والذي بلغ من رقته ورثاثته أن صاحبه يراعيه ويشفق عليه كما يشفق ويراعي أغلى الأشياء عنده ، وهو في القدم كالشيخ الطاعن المعمر ، وقد ضمن الشاعر سخريته هذه ماجاء في حديث طويل أن الرجل المسلم « إذا بلغ التسعين غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وسمي أسير الله في الأرض » (١) .

وقد شاع في العصور العباسية المتأخرة استخدام المصطلحات العلمية واقتباسها للشعر والكتابة شيوعاً قوياً (٢) . وكان لابن سنان الخفاجي رأي وجيه غاب عن بعض الدارسين (٣) فأخذ أحدهم يسطر ما سماه ثورة ابن سنان على استخدام المصطلحات العلمية في الشعر واعتبر ذلك وضعاً للألفاظ في غير موضعها ، ثم رأى هذا الباحث أن ابن سنان كان موفقاً في إنكاره هذا الصنيع من أدباء عصره ، فالشعر العربي شيء والعلم شيء آخر ، ثم يلوي إلى ابن الأثير فينكر عليه ترويج هذا المسلك ، ويرجع هذا الترويج إلى استخدام المصطلحات عند ابن الأثير إلى فساد الذوق والتأثر بالرطانات التي طبعت نقاد عصره بطابعها (٤) .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ٢/ ٥٦٢٠ ، والحديث بروايتين إحداهما موقوفة وهي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ورقمها ٥٦٢٠ ، والأخرى مرفوعة إلى النبي ﷺ وهي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقمها ٥٦٢١ .

(٢) انظر الصبغ البديعي ٣٦٥ .

(٣) انظر المثل السائر ٣/ ٢١٢ .

(٤) انظر الصبغ البديعي ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

والأظهر أن رأي ابن سنان ليس كما فهموا أو ذهبوا، فهو لم ينكر على تضمين الشعر بعض المصطلحات العلمية إنكاراً مطلقاً بل أنكر وعاب وضع هذه المصطلحات في غير موضعها والتكلف والإفراط في استعمالها وضرب على ذلك عدة أمثلة أظهر أن التكلف هو الذي أفسدها ولكنه عندما بلغ عند شعر ظريف للشاعر الوامق الذي كان موصوفاً بالخلاعة والمجون والذي كان ينظم أشعاراً في حائك وإسكاف وصائغ ومن يجري مجراهم ، ويستعمل ألفاظ تلك الصناعة ومعانيها في ذلك الشعر - عندما بلغ قول الوامق في غلام إسكاف - :(١)

إنْ سَنَّ بالهجرانِ شفْرتَهُ   ليقُدَّ قلبي قدَّ مُجتهدِ

فلأصبرنَّ كصبر تجْتَجَةٍ   مُتمسكاً بمُحلّلِ العُقَدِ

علق عليه بقوله : « وهذا - أي تضمين المصطلحات - إنما يسوغ على هذا السبيل من الهزل والخلاعة ، فأما في باب الجد فليس يحسن أن يستعمل في كل موضع منه إلا الألفاظ اللائقة به » (٢).

فتضمين المصطلحات إذا كان على سبيل الهزل والسخرية والخلاعة والتماجن فهو سائغ ، أما إذا كان تقعراً وتفلسفاً بمناسبة وبدون مناسبة فهو مرفوض ، وكما قال ابن الأثير : « هذا النوع إذا استعمل على الوجه المرضي كان حسناً ، وإذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحاً » (٣) .

ومن التضمين البديع الساخر للمصطلحات العلمية قول أبي الطيب المتنبي يصف حاسديه :(٤)

---

(١) سر الفصاحة ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المثل السائر ٣/ ٢١٥ .

(٤) ديوان المتنبي ٤/ ٢١٠ .

حولي بكل مكانٍ منهُـم حِلَـقٌ   تُخْطي إذا جئتَ في استفهامها بمَنْ

هذا اقتباس من علم النحو . ينصحك أبو الطيب : إذا استفهمت عن مثل هؤلاء الأقوام ألا تستفهم بمَن ؛ لأن من لمن يعقل وهؤلاء عنده بمنزلة مالايعقل ، فحقهم أن يستفهم عنهم بما (١) .

ومنه قول ابن عنين(*) في رجل ولي ثم عزل : (٢)

فلا تغضبنَّ إذا ماصُرفتَ   فلا عدلَ فيكَ ولا معرفةْ

وهذا أيضاً من التضمين من علم النحو فالصرف والعدل والمعرفة كلها مصطلحات نحوية وظفت هنا أحسن توظيف فجاءت دلالتها ساخرة ، فهذا المعزول إنما صرف عن منصبه لأنه ليس صاحب عدالة وليس من أصحاب الجاه والمعرفة .

ومن هذا قول بعضهم : (٣)

وفتًى مـنْ مـازنٍ   فـاقَ أهـلَ البصـرةْ

أمُّـهُ معـرفةٌ   وأبـوُه نكـرةْ

استخدم الشاعر هذين المصطلحين المعرفة والنكرة في قذف هذا الفتى بطريقة فيها سخرية مرة وخفة وعبث .

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢/ ٤٧٥ .

(*) محمد بن نصر بن الحسين بن عنين ، خاتمة الشعراء في عصره ، اغزير المادة مطلع على معظم أشعار العرب ظريف وتولى الوزارة بدمشق في أواخر دولة الملك المعظم ، توفى سنة ٦٣٠ هـ بدمشق . وفيات الأعيان ٥/ ١٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المثل السائر ٣/ ٢١٥ .

وكذلك ورد من هذا النوع في شعر بعض العراقيين يهجو طبيباً ، قال : (١)

قال حمـــــارُ الطـبيب يوماً　　لو أنصـفوني لكنتُ أركبْ

لأنني جـــاهـلٌ بســـــيطٌ　　وراكبي جهلُـــه مركّـــبْ

فهذا تضمين لمصطلحات منطقية ، الجهل البسيط ، والمركب .

وخلاصة القول إن الاقتباس والتضمين فن بديع يصلح أن يكون أسلوباً جميلاً من أساليب السخرية حيث يوظف الساخر الموهوب تلك النصوص التي يقتبسها أو يضمنها في السخرية من خصومه ، ويستعين بما لهذه النصوص المضمنة من شهرة ووقع وأثر في النفوس فيستغله حتى تبدو سخريته قوية ومؤثرة .

---

(١) المثل السائر ٣/ ٢١٥ .

ملخص البحث
وأهـــم نتائجـــه

ملخص البحث وأهم نتائجه

هذا البحث الذي تقدم دراسة تناولت فيها أساليب السخرية في البلاغة بالدراسة والتحليل والتطبيق ، وقد كان في ثلاثة فصول رئيسة سبقها مقدمة وتمهيد، وكان التقسيم وفق منهج اقتضته طبيعة الدرس البلاغي وطبيعة موضوع البحث ، وقد أشرت في المقدمة إلى أهمية هذا الموضوع في الدراسات الأدبية والنقدية . وأوضحت الأسباب التي دعتني لاختياره ، ثم تحدثت عن الجوانب الرئيسة التي تناولها البحث بالدراسة ، ثم فصلت القول حول المراجع الأساسية للبحث وبعض الدراسات الحديثة التي أفاد منها ، ثم أوضحت المنهج العلمي الذي قامت عليه هذه الدراسة .

وانتقلت بعد ذلك إلى التمهيد فجعلته في عنوانين رئيسين ، يتحدث الأول منهما عن السخرية بين المدلول اللغوي والاستعمال الفني . ولا شك أن أي دراسة جادة لابد أن تبدأ بدراسة المصطلحات المهمة ذات الصلة بموضوع البحث . وللموضوع الذي نتناوله بالبحث عدة ألفاظ في العربية ، فالسخرية ، والتهكم والاستهزاء ، والاستخفاف ، والتندير ، والضحك ، والإهانة ، والاحتقار ، كلها ألفاظ تدور حول معنى معين ، لكن دلالتها على هذا المعنى ليست بدرجة واحدة فالألفاظ الأربعة الأولى تفسر في المعاجم بمعنى واحد هو ما اصطلح على تسميته (بالسخرية) ، أما بقية الألفاظ ، فالتندير والضحك قد تستعمل بمعنى السخرية وغيرها ، أما الإهانة والاحتقار فقد اكتسبا دلالتهما على السخرية من الاستعمال الغالب لهما بهذا المعنى في كتب الأدب والنقد والبلاغة ، ولأنهما يكادان يلازمان السخرية ملازمة تامة .

ثم تحدث البحث عن تعريف السخرية والصعوبة التي يواجهها المتصدي لهذا العمل ، فرغم كثرة استخدام لفظة السخرية وجريانها على الألسنة وورودها في القرآن الكريم في عدة آيات قرآنية إلا أنها لم تحظ بتعريف جامع مانع . وقد قام البحث بتتبع أشهر التعريفات التي تعرضت لهذا المصطلح . ثم بدأ الحديث عن جوانب الاستعمال الفني للسخرية وعلاقتها ببعض الفنون التي تشترك وتتداخل معها بروابط أساسية ترجع إلى طبيعة التكوين ، وهذه الفنون هي الهجاء والفكاهة والضحك . وقد تحدث البحث تحت هذا العنوان الأول من عنواني التمهيد عن طبيعة السخر وبعض خصائصه .

أما العنوان الثاني في هذا التمهيد فيتتبع المصطلح والظاهرة في التراث البلاغي ، وبدءاً ينبغي أن نعلم أنه لم يكن لموضوع السخرية والتهكم في كتب الأقدمين – فيما أعلم – مصنف مستقل ، بل كانت مباحثه وأساليبه وأمثلته مبثوثة في كتب البلاغة والنقد والأدب ودواوين الشعر ، فمن هذه الكتب ماتناول مجموعة من أساليبه ومباحثه ، ومنها ما اكتفى بالحديث عن مبحث أو أسلوب واحد، بل ومنها ما أشار مجرد إشارة عابرة إلى أن هنا تهكم أو أن هناك سخرية .

وكان من أوائل هذه الإشارات والأمثلة الساخرة مانجده في كتب الجاحظ (البيان والتبيين والحيوان والبخلاء) وفي بعض رسائله ، ومن أوائل من تناولوا بعض جوانب هذا الموضوع عبدالله بن المعتز في أول مصنف بلاغي وهو كتاب (البديع) ومنهم قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) والآخر المنسوب إليه المسمى (بنقد النثر) وبعد قدامه يأتي أبو هلال العسكري فيتناول بعض جوانب هذا الموضوع في كتابيه (الصناعتين وديوان المعاني) ومن الذين تناولوا بعض مسائل هذا الأسلوب أبو الحسين أحمد بن فارس في كتابه (الصاحبي) ومنهم ابن رشيق

القيرواني في كتابه (العمدة) ويأتي بعده ابن سنان الخفاجي وكتابه (سر الفصاحة) ويأتي بعد هؤلاء إمام البلاغيين عبدالقاهر الجرجاني فيتناول في كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) كثيراً من المسائل المتفرقة مما يتصل بموضوع هذا البحث ، ويعقب الحديث عن جهود عبدالقاهر الحديث عن مدرسة التلخيص وشروحه ومدى استفادة البحث والدرس البلاغي منها ، ويأتي بعد ذلك ضياء الدين ابن الأثير الذي يعد كتابه (المثل السائر) نموذجاً للتآليف القديمة التي مزجت بين البلاغة والنقد والأدب ، وقد تناول بعضاً من مسائل هذا الأسلوب ، وبعده ابن أبي الإصبع الذي تناول في كتابه (تحرير التحبير) كثيراً من المسائل التي خطا بها البديع خطوات واسعة ، ويأتي بعده ابن الأثير الحلبي صاحب (جوهر الكنز) ، ويحيى بن حمزة العلوي الذي جمع في كتابه (الطراز) كثيراً من المسائل مما له علاقة بموضوع بحثنا هذا ، وكان آخر من وقف بنا المطاف عندهم ابن حجة الحموي صاحب البديعية الشهيرة وشرحها الذي سماه (خزانة الأدب وغاية الأرب) وهو مجموع أدب جيد تناول فيه كثيراً من أساليب السخرية .

ومن المصنفات التي تناولت هذا الموضوع كتب التفسير ، حيث كان يشيع الحديث عن السخرية والتهكم ويكثر عند المفسرين ، فيتناولون كثيراً من الأساليب الساخرة في القرآن الكريم بالتحليل ، نجد ذلك خصوصاً عند الزمخشري في (الكشاف) وأبي السعود في تفسيره المسمى (بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) وعند الألوسي في (روح المعاني) .

وبعد هذه الجولة السريعة في رياض كتب الأقدمين بدا واضحاً ما لأساليب السخرية من شيوع وانتشار واسع في كتب التراث ، وإن كانت لم تفرد بكتاب إلا أنها تمثل ظاهرة واسعة مبثوثة في كثير من كتب الأدب والنقد وشروح الدواوين

وكتب المفسرين ، وفي معظم أبواب البلاغة على اختلاف فنونها ، وهذا ماااتضح جليا في تناولنا للفصول الثلاثة التي يتكون منها هذا البحث وهي السخرية في علم المعاني وفي البيان والبديع .

وأول هذه الفصول يتحدث عن السخرية في أساليب علم المعاني وأول مباحثه (السخرية باستعمال الكلمات غير الفصيحة) فمن شروط الفصاحة عند البلاغيين خلوص الكلمة من تنافر الحروف والغرابة ، وخلوها من الكراهة في السمع ، وخلو الكلام من تتابع الإضافات .

وقد يكون استعمال هذه الألفاظ غير الفصيحة باعثاً على السخرية . فهناك ألفاظ غير فصيحة في المعجم اللغوي استعملت في مواضع التشويه أو الذم والسخر .

من ذلك ماجاء عند ابن فارس تحت باب (زيادات الأسماء) لغرض الذم والتشويه والتقبيح ، وما أورده الثعالبي في كتابه فقه اللغة من أسماء غريبة لبعض العيوب الجسمية ، كالسمن فرجل سمين وبلندح وعكوك ، وامرأة رضراضة وعركركة ، وكالقصر ، فرجل قصير ودحداح وبحتر وحنشار ، كل هذه أسماء غريبة ذات أصوات عجيبة إذا أطلقت على شخص أثارت السخرية به ، وأشاعت الضحك حوله .

ومن القضايا المتعلقة باستعمال غير الفصيح مايتناوله العسكري في الصناعتين حيث يرى أن للكلام طبقات ومنازل ينبغي أن تقسم على طبقات الناس ومنازلهم ، فإذا اختل ذلك كان مدعاة للتهكم والسخرية ؛ لأن العامي إذا كلمته بكلام العلية سخر منك وزرّئ عليك . وفي الصناعتين وغيره أمثلة كثيرة لبعض

من غلب عليهم سوء الرأي ، وقلة العقل فيخاطبون السوقي والمملوك والأعجمي بألفاظ أهل نجد ومعاني أهل السراة ، ومن هؤلاء أبو علقمة النحوي الذي رُوي على لسانه كثير من ذلك .

ومن ذلك أيضاً أمثلة تنقلها كتب البلاغة ، بعضها عن أبي علقمة نفسه حينما سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال : مالكم تكأكأتم علي تكأكؤكم على ذي جنة ، افرنقعوا عني .

ومنها ماروي عن أعرابي أنه سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعىٰ الهعخع . فما الهعخع ، لقد استشنعها الخليل بن أحمد وأنكر تأليفها كما سئل عنها الثقات من علماء اللغة فأنكروها ، ولصاحب بغية الإيضاح في هذه الحادثة نظر دقيق حيث يرى أن جواب الأعرابي هذا قد يكون معاياة لا أصل لها ، والمعاياة هي أن تأتي بكلام لايهتدي له . والأغلب أن الأعرابي إنما قصد التهكم بأولئك الذين جاءوا يهرعون إليه .

ومن الشعراء الهجائين من برع في استعمال الغريب والوحشي وربما في تأليف بعض العبارات التي لا أصل لها ورزقوا إلى جانب ذلك معرفة بطرائق الهجاء وأساليبه وعبقرية في الحس اللفظي تلتئم فيها الألفاظ بالصور التئاماً عجيباً .

ومن أكثر الشعراء براعة في هذا جرير بن عطية ، فهجاؤه يستفز القارئ للضحك قبل أن يروي في معناه ويحقق . وكثيراً ماكان يستعمل الألفاظ التي تدل على الاستخفاف والسخرية لإيهامها وموسيقاها ، فكثر في هجائه الكلمات الغريبة المتنافرة الحروف مثل : جوخىٰ ، وخجخج ، والنخوار ، والجيثلوط

وخضاف ، وخيصف ، وقذام ، ووقبان ، وضوطر ، ورغوان ، والجلوبق . ونلاحظ جلياً ماتشيعه هذه الألفاظ بموسيقاها ورنينها وغرابتها من إحساس بالهزء .

وبهذا يصبح استعمال الغريب والوحشي والمتنافر في هذه السياقات من الأساليب العالية التي تؤدي من المعاني البلاغية مايعجز عنه غيرها .

وثاني مباحث المعاني التي تأتي منها السخرية (التعريف) ، فالمسند إليه يأتي معرفة ويأتي نكرة ولكل منهما مقام يستدعيه وسياق يقتضيه .

والغرض الرئيس من التعريف كمال التعيين وتمام الفائدة ، ثم هناك أغراض أسلوبية أخرى وأسرار بلاغية . منها قصد السخرية والتهكم .

فإذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه بأحد أنواع المعارف كالعلمية أو الموصولية أو الإشارة أو الإضافة . فإنه ربما قصد بهذا التعريف السخرية والتهكم وحيث إن التعريف تخصيص وتعيين وتقوية للمعنى فإن السخرية هنا تكون واضحة قوية جلية .

فإذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه بالعلمية ، فإنه يعرف لأغراض ومعان عديدة ، ومن هذه الأغراض قصد الإهانة ، وذلك إذا كان العلم صالحاً لمذمة أو إهانه ، سواء كان اسماً أو كنية أو لقبا . كأن يكون العلم اسماً قبيحاً مذموماً أو منقولاً عن معنى خسيس ، أو كان كنية أو لقباً مشعراً بالذم .

والمناداة بالألقاب من أقدم أساليب السخرية ، ولما كان لها من وقع على النفوس وقوة في التأثير فقد خصها الله عز وجل بالذكر والتعيين في سياق نهي المؤمنين عن السخرية عموما .

وكذا التعريف بالإشارة ، فالإشارة قد تكون حسية أو لفظية ، والإشارة الحسية من أقدم وسائل السخرية أيضاً ، وذلك عن طريق محاكاة الشخص المسخور منه في حركاته وإشاراته أو محاكاته في مشيته أو طريقة كلامه ، والإشارة واللفظ كما يقول الجاحظ شريكان نعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه .

ولما لهذه الإشارة من أثر قوي فقد نهى الله عز وجل عن استخدامها في السخرية من الناس وانتقاصهم ، فنهى سبحانه عن اللمز ، واللمز هو التنبيه على المعايب وتتبعها ، وهو خاص بما كان من السخرية على وجه الخفية ، كالإشارة ونحوها .

أما الإشارة اللفظية فإنها وإن كانت لفظاً إلا أنها أيضاً تتضمن إحضار المشار إليه وتعيينه حساً ، والحالة التي تقتضي كون المسند إليه اسم إشارة هي متى صح إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة حساً واتصل بذلك داع .

ومن هذه الدواعي والأغراض قصد التهكم والسخرية من المشار إليه وإلحاق الهوان والحقارة به ، أو رميه بصفات النقص والبلادة والغباوة .

وقد تكون السخرية إذا اقتضى المقام تعريف المسند إليه بالإضافة والإضافة هي أخصر طريق لإحضار المسند إليه في ذهن السامع ، ولتعريف المسند إليه بالإضافة أغراض شتى تفهم من السياق منها التهكم والاستهزاء ، كإضافة الله عز وجل الشركاء إليه يوم القيامة في مخاطبته للمشركين منكراً وموبخاً لهم ، فيضيف لفظ الشركاء إليه تعالى حكاية لما كانوا يقولونه في الدنيا توبيخاً لهم واستهزاءً بهم ولايخفى ما في هذه الإضافة من زيادة في التوبيخ والتهكم بهم ليست في أين أصنامكم مثلا لو قيل .

وقد تكون السخرية أيضاً إذا اقتضىٰ المقام تعريف المسند إليه بالصلة ويرىٰ عبدالقاهر أن في الموصول علماً كثيراً وأسراراً جمة ، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها ، اطلعت على فوائد تؤنس النفس وتثلج الصدر بما يفضي بك إليه من يقين ، ويؤديه إليك من حسن التبيين .

والحالة التي تقتضي كون المسند إليه موصولاً هي متى صح إحضاره في ذهن السامع بوساطة ذكر جملة معلومة الانتساب إلى مشار إليه واتصل بإحضاره بهذا الوجه غرض . والأغراض كثيرة يدل عليها السياق ، ومنها قصد التهكم والسخرية .

ومن أغراض التعريف بالصلة قصد الإيماء إلى وجه بناء الخبر ، ثم إن هذا الإيماء ربما جعل ذريعة إلى الإهانة .

أما ثالث مباحث المعاني الساخرة فهو (وضع المظهر موضع المضمر) وإن ظاهرة وضع الاسم الظاهر موضع الضمير وإن كانت تبدو مسألة نحوية إلا أن وراءها أسراراً بلاغية جمة ، فللمسألة جانبان : أحدهما يتعلق بالإعراب والآخر يتعلق بالمعاني .

والكلام كما عند البلاغيين قد يكون خارجاً على مقتضى الظاهر ، وقد يكون خارجاً على خلاف مقتضى الظاهر ، ولذلك أغراض بلاغيه ومعان أسلوبيه . فمن الصور التي يخرج الكلام فيها على خلاف مقتضى الظاهر إذا وضع الاسم الظاهر موضع الضمير ، فقد يكون مرجع الضمير الذي يعود عليه موجوداً ظاهراً لا لبس فيه ، ولكن الأديب يؤثر أن يأتي بالاسم الظاهر مخرجاً الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وقاصداً إلى أغراض وأسرار بلاغية يؤديها هذا التصريح ولا يقوم بها أو يؤديها ذلك الإضمار .

فمن ذلك : أن هذا المظهر إما أن يكون اسم إشارة أو لايكون . فإن كان اسم اشارة ، فإنه يوضع موضع الضمير لعدة أغراض ، منها التحقير والتهكم بالسامع .

وقد يكون وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على كمال بلادة السامع بأنه لايدرك غير المحس ، وقد يكون لغرض التحقير والتهكم .

ومن المباحث التي تأتي منها السخرية في علم المعاني (الاستفهام) وهو في حقيقته طلب الفهم ، إلا أن أدواته كثيراً ماتستعمل في غير طلب الفهم مما يناسب المقام بحسب معونة القرائن . وهذه المعاني والأغراض التي يخرج إليها الاستفهام لايكشف عنها ويدل عليها نوع أداة الاستفهام فحسب ، ولا نوع ألفاظ الجملة وطريقة تركيبها فقط ، ولا رؤية المستفهم وحدها ، بل كل ذلك وغيره يشارك في الكشف عن دلالة هذه الجملة .

ووجه دلالة الاستفهام على هذه المعاني التي يخرج إليها تعددت فيه آراء العلماء ، فقيل إنه من قبيل المجاز المرسل ، وقيل إنه كناية وقيل إنه مستفاد من مستتبعات التراكيب ، ولا يخفى أن الحمل على أحد هذه الأراء الثلاثة جائز في كل تلك المعاني ، وإن كان أولاها اعتباراً أنها من مستتبعات التراكيب .

ومن المعاني التي يخرج إليها الاستفهام وتأتي منها السخرية الإنكار والتهكم والتحقير ، ولكن الدلالة على السخرية ليست مقصورة في هذه المعاني الثلاثة ؛ لأن هذه المعاني وغيرها من المعاني التي يخرج إليها الاستفهام وغير الاستفهام يمكن أن يجتمع بعضها ويشترك في الدلالة على سياق واحد ، وهذا أمر طبعي في كثير من الأساليب البلاغية ، فكثيراً ما تتعدد المعاني البلاغية في السياق

الواحد ، ويندر أن يكون المعنى واحداً ، لذلك نلجأ عند تحليلنا لأسلوب استفهامي مثلاً إلى ذكر جملة من المعاني ؛ ذلك لأن المعاني التي يفيدها الاستفهام كثيراً ماتكون خفية وسانحة ومتفلتة ، والدلالة كما قيل بنت السياق والسياق إنما هو تركيب له خصائص وعناصر وعلاقات ، والتعرف على كل ذلك يساعد على معرفة دلالات السياق والكشف عن خفايا المعاني .

وفي السياق البلاغي يغلب أن يكون هناك معنىً أو إحساساً مسيطراً أكثر ظهوراً من غيره ، ولا ينفي معاني أخرى متولدة ممتدة متصلة به ؛ ذلك لأن المعاني البلاغية للاستفهام معان شعورية انفعالية تموج بها النفس البشرية متداخلة متعانقة أو متقاربة .

والاستفهام الساخر من الأساليب الشائعة في البيان العربي شعراً ونثراً وهو من الأساليب الكاثرة في القرآن الكريم .

ومن الأساليب الإنشائية التي تناولها هذا البحث وتأتي منها السخرية أسلوب الأمر ، وله صيغ معروفة ربما استعملت في غير الطلب على جهة الاستعلاء ، تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال . عد القزويني منها الإهانة والتسخير والاحتقار ، وهي معان تلازم السخرية والتهكم غالباً .

وقد جاءت أساليب الأمر الساخر في القرآن الكريم كثيراً ، فقد تكون لوناً من ألوان التعذيب النفسي يوم القيامة . وقد تكون تهكماً وسخرية على ألسنة الرسل عليهم السلام بمن يرى الحق واضحاً لامرية فيه ثم ينكص عنه تكبراً وعلوا وصور الأمر الساخر التي تصور مآل المشركين يوم القيامة كثيرة أيضا ، وهي تصورهم في أوضاع تثير كثيراً من مشاعر النفس وانفعالاتها . ويحكي القرآن الكريم كثيراً من سخريات بعض الأقوام بأنبيائهم .

وتعد أساليب الأمر الساخر من أكثر الأساليب شيوعاً في شعر الهجاء لأن الهجَّاء أبداً يحاول أن يظهر الاستعلاء على مهجوه فيسلط عليه الأوامر الساخرة .

ثم تناول البحث أسلوباً آخر من الأساليب الإنشائية الساخرة هو أسلوب (النهي) ويعد النهي الساخر من المعاني الثانية التي تفهم من السياق وتستفاد من مستتبعات التراكيب وقرائن الأحوال ؛ لأنها في حقيقتها نقل للمشاعر التي تجيش بها النفس ، فإن استطعنا أن ندرك جانباً من هذه المشاعر عرفنا المعنى البلاغي الذي يدل عليه هذا الأسلوب .

ولما كان القرآن الكريم كتاب تشريع فقد كثرت فيه النواهي ، وقد بلغت صيغه في القرآن أربع مائة وصيغة واحدة ، خرج كثير منها إلى معان أخرى غير مجرد النهي . وفي الشعر العربي كثر استخدام النهي الساخر ، وربما استخدمه بعض الشعراء لا على سبيل طلب الكف ولكن على وجه يكون الكلام فيه خارجاً مخرج النصح والتماجن كما فعل الحطيئة مع الزبرقان .

ومن الأساليب الإنشائية التي تأتي منها السخرية أسلوب (النداء) وللنداء دلالات نفسية عميقة ، ومعان شعورية دقيقة ، وأغراض بلاغية كثيرة ، وقد تتبعنا بعض أساليبه في القرآن الكريم فوجدناه قد استعمل للدلالة على معان عجيبة ، وقد سمى القرآن الكريم يوم القيامة (يوم التناد) لكثرة التنادي فيه . ولما كان للنداء من وقع وأثر بالغ على النفس ، وخصوصا المناداة بالألقاب ، فقد وجه الله المؤمنين إلى حسن المناداة مع نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام .

والمناداة بالألقاب من أقدم صور السخرية ، وقد نهى الله عنها وسماها فسوقا ، ومن صور السخرية في النداء استخدام حرف النداء (يا) لمنادى قريب

خلافاً لأصل وضعها تنزيلاً للمنادى القريب منزلة البعيد وذلك لأغراض منها التهكم بالمنادى والإشارة إلى انحطاط شأنه وهوان قدره ومنزلته ، أو كونه بليداً بعيداً من التنبيه . وربما كان النداء أسلوباً قديما للمعايبة والقذف والسخرية ، ذا صلة بالعرف الشعبي ولغة الحياة اليومية ، وأسلوب القول المتبادل بين عامة الناس فالمناداة بالألقاب والصفات والأسماء الساخرة التي تبتكرها أدهان الساخرين أسلوب شعبي شائع يحدث بين المتخاصمين في الأزقة الشعبية في عصرنا الحاضر وغير الحاضر .

ومن أساليب علم المعاني التي تناولها البحث وتأتي منها السخرية أسلوب التكرار ، وهو مقتل من مقاتل البيان دقيق المسلك والمأخذ ، يحوي على كل مايتضمنه أي أسلوب آخر من إمكانيات تعبيرية ، ولكنه يحتاج إلى صاحب موهبة يسيطر عليه سيطرة كاملة ، ويستخدمه في موضعه ، وإلا فليس أيسر من أن يتحول هذا التكرار إلى ظاهرة لفظية مبتذلة . وهو أمر نسبي يخضع لاعتبارات عدة . ونلحظ أنه ظاهرة أسلوبية واضحة في القرآن الكريم ، وذلك لحكم عظيمة نص على بعضها العلماء .

وللتكرار أغراض سياقية كثيرة لايمكن حصرها ؛ لأن التكرار عبارة عن أسلوب تعبيري يصور انفعال النفس ، وانفعالات النفس البشرية يصعب تحديدها في كثير من الأحيان ، ولكن الغرض الرئيس من وراء كل تكرار هو التأكيد ثم إنه يأتي لأغراض أخرى ، منها التهكم والسخرية .

والتكرار يلبي حاجة ملحة في نفس المتهكم ، إذ إن السخرية القائمة على التكرير تكون أشفى لنفس الساخر وألذع لنفس المسخور منه .

وللتكرار الساخر أساليب عدة ، فمنه ماتكون السخرية فيه ناشئة من المبالغة ومنه مايكون عن طريق تكرار الاسم فقط على سبيل الاستخفاف به ، فكأن مجرد ذكره أصبح باعثا على التفكه والضحك ، ومن أساليب التكرار التي تأتي منها السخرية مايسمى تكرار المفارقة ، يكون لتأكيد التفريق على وجه التضاد، ويقع التكرار في الهجاء على سبيل الشهرة وشدة التوضيع بالمهجو .

بهذا المبحث نكون قد انتهينا من الحديث عن الأساليب الساخرة في علم المعاني ، وننتقل إلى الفصل الثاني الذي يعالج أساليب السخرية في علم البيان وأول مباحثه (التشبيه الساخر) ، والتشبيه جزء أصيل في بلاغة اللغة العربية وآدابها ، وهو لون من ألوان التعبير الممتاز الأنيق ، وهو أشبه بوسائل الإيضاح التي تهدف إلى زيادة التأثير في النفس وتثبيت المعاني فيها ، فإذا كان ذماً جاء موجعاً يبرز نقائص المهجو ويصورها واضحة للعيان ، فتكون الصورة أبلغ في الذم وأكثر تأثيراً في الخصم .

ولما كان التشبيه أحد أساليب البيان العالية فقد تكررت صوره في القرآن الكريم كثيراً ، وكان من بين هذه التشبيهات الصور الساخرة التي يصورها القرآن لأولئك الكافرين والمعاندين والمستكبرين ، فيسخر من كبريائهم وغرورهم ويسفه أحلامهم وعقولهم ، فنراه مرة يشبههم بالدواب والأنعام ، فيسلبهم العقل والتفكير ، ومرة يشبههم ببعض هذه الدواب كالحمار ، أو الكلب ، أو العنكبوت التي اتخذت بيتا ، ويسخر القرآن من المنافقين فيشبههم بالخشب المسندة ، ولقد كثرت التشبيهات الساخرة في القرآن الكريم .

والتشبيه فن أصيل في لغة العرب ، لذلك أكثروا منه ، وعرفت عندهم تشبيهات مشتهرة مستمدة من بيئتهم وحياتهم ومجتمعهم ، سلكوا بها طريقة معينة

تناقلوها وألفوها ، ومن ذلك تشبيهات تستعمل في حال المدح ، ولكن قد تسلك طريقة في التشبيه لايكون الوجه فيها صفة مشتركة بين الطرفين ، فتستعمل هذه التشبيهات والمعاني الشريفة في ضدها ، ويتم هذا التشبيه عن طريق تنزيل هذا التضاد في الصفتين منزلة التناسب ثم ينتزع وجه الشبه من التضاد المنزل منزلة التناسب ويكون ذلك لغرض التمليح أو التهكم والسخرية .

والتشبيه نمط من التصوير أداته اللغه ، فهو يبرز المعاني والأفكار في أشكال يجسمها ويصورها ويمثلها حية نابضة واضحة ، ويضعها أمام القارئ مشخصة بكل ماتتطلبه هذه الحياة من لون وحركة . وقد كان بعض الشعراء يمتلك عصباً خاصاً يتحسس به مظاهر النقص ، ومقدرة فائقة في التصوير (الكاريكاتوري) الساخر وهذه السخرية تعتمد على التخيل والتصور الدقيق والمبالغة في التقاط صورة مشوهة مضحكة للمهجو ، وهي نوع من النقد يعتمد في جملته على التماس العيوب الرئيسة لظاهرة معينة تعرض بأسلوب فني .

وقد قسم البلاغيون التشبيه إلى حسي وعقلي ، ومعنى حسية التشبيه أن يكون أحد أطرافه أو مادته التي يتركب منها مدركاً بإحدى الحواس الخمس بأن يكون من المسموعات أو المبصرات أو المشمومات أو المذوقات ، أو الملموسات والتشبيهات المحسوسة أقوى أثراً في النفس والوجدان ؛ لأن مايدرك بالحس أقوى مما يدرك بالعقل فليس الخبر كالمعاينة .

وقد برع بعض الشعراء في التصوير الحسي الساخر ، فكانت لهم ملكات وقدرات فائقة في تصوير نقائص مهجويهم ، فهم شديدو الملاحظة يملكون حاسة قوية نحو كل ماهو غير طبعي ، وينشدون الكمال والجمال لدى الآخرين في

الناحيتين الشكلية والنفسية ، وقد توجه كثير من الشعراء وبشكل واسع إلى السخرية من العيوب الشكلية والنقائص الجسدية ، واعتمدوا في ذلك على التصوير المبالغ فيه ، بوضع الشخص في صورة مضحكة ، كالمبالغة في تصوير عضو من أعضاء الجسم ، ومحاولة تشويهه بحيث يجعل هذا الشخص وكأنه لايدرك ولايعرف إلا بهذا العيب ، من ذلك المبالغة في تصوير ضخامة الجسم أو نحافته ، وقصر القامة أو طولها المفرط وارتفاع أحد الكتفين بصورة ظاهرة أكثر من الآخر ، وتصوير الشذوذ في ملامح الوجه يؤدي دوراً مهماً في هذا الصدد والأنف غير الطبعي بصفة خاصة يعد مقياساً للشذوذ المثير للضحك ، وكذلك يصور الفم تصويراً ساخراً لاتساعه أو لعدم انتظام اسنانه أو لعيب في إحدى الشفتين . والشذوذ الحسي يدخل في هذا النطاق كالأعمى والأصم والأبكم ، فهولاء جميعاً يثيرون عاصفة من الضحك إذا سلكوا مسلكاً يحاولون به إنكار مافيهم من نقص .

لقد تناول الشعراء كل عيب بالسخرية ، فسخروا من الأصوات الشاذة للمغنين والمغنيات ، فما أن يفاجأ الشاعر بصوت لايعجبه حتى يتناوله بالسخرية والعبث ، فهو مرة صوت دجاجة يخنقها ثعلب ، ومرة صوت أحجار الرحى وهي تدور ، ومرة صوت جمع من الفئران يقرضن خبزاً يابسا .

وتناول الشعراء أصحاب العاهات بالسخرية لأن منظرهم فيه شذوذ عن ذلك الكمال والجمال الذي ينشدونه . فانحناء الأحدب ليس تشوهاً خلقيا بل هو تجمع لأعضاء الجسم خشية الصفع واللطم ، أما الصلعة فهي مرآة من الفولاذ صالحة للصفع ترن تحت الأكف حتى ترن لها الأرجاء .

وسخروا من القصير الدحداح ، ومن السمين المفرط ، فشبهوا القصير والسمين بالدب والفيل . وسخروا من القصر في الأنامل فشبهوها بالخنفساء . أما

الوجه فقد نال النصيب الأكبر من السخرية ، فوجه المجدور شبهوه قديماً بسلحة جامدة نقرتها الديكة ، وطول بعض الوجوه عند بعض الشعراء يذكر بطول وجوه الكلاب ، وكثيراً ما شبه الشعراء وجوه مهجويهم بوجه القرد أو الضفدع وضحكوا من الوجه الذي كسي بقشور الخنافس أو الذي امتلأ بالكلف فكأنه سلح فوق وجنة برصاء .

وسخروا من أصحاب الروائح الكريهة المتننة ، فسخروا من بخر الأفواه ونتن الأبدان ؛ لأنهم يرون أن أصحاب هذه الصفات بعيدون عن أسباب اللياقة وآداب الحضارة .

ولم تسلم اللحى - وهي شعيرة ثابتة من شعائر الدين - من السخرية والعبث فتناولها بعض السفهاء والمتماجنين بالسخرية والهزء .

وهذا النوع من الهجاء لا يراه بعض النقاد هجواً ، لأنه لايرى الهجاء إلا في سلب الفضائل النفسية ، فأما ماكان في الخلقة الجسمية من المعايب فليس بهجاء . وهذا رأي يخالف واقع الشعر العربي ، فإننا نجد الشعراء الهجائين قد أكثروا من تناول هذه المعايب الجسمية بالسخر والهجاء .

كما تناول الشعراء بالسخر بعض الذين اتصفوا ببعض الصفات والعيوب الخلقية والنفسية التي لاتساير المثل العالية للمجتمع ، كالبخل والجبن والثقل والتطفل وغيرها من العيوب ، وهذا أجود الهجاء عند بعض النقاد .

ثم نتنقل إلى مبحث آخر من مباحث علم البيان هو (الاستعارة الساخرة) وتأتي السخرية في الاستعارة من عدة أساليب أولها هو مايسمى عند علماء البلاغة المتأخرين بالاستعارة (العنادية التهكمية) أما معظم الذين تعرضوا لها قبل ذلك فلا

يرون أنها استعارة . وأبرز هؤلاء الزمخشري الذي يسميها (العكس في الكلام) ويظهر أن تسميته لهذا اللون من الكلام بالعكس أفضل ، فهو يعده لوناً أسلوبياً يعكس فيه الكلام ويشيع عند العرب وغيرهم .

وهذا الأسلوب التهكمي الساخر شائع في شعر العرب ونثرهم ، وقد جاء في القرآن الكريم في مواضع عدة ، يسخر القرآن من أولئك المعاندين الذين يكذبون بآيات الله ورسله ويتشدقون بالإفك ، أو يحكي سخريتهم بأنبيائهم ، فمن سخريتهم بالأنبياء وصف بعضهم بالحلم والرشد وهم يقصدون عكس ذلك . والقرآن الكريم يرد عليهم بنفس أسلوبهم فيصف بعض المتكبرين بأنه العزيز الكريم مع أنه يتكبكب في قاع الهوان .

وتحتوي سخرية القرآن على ألفاظ حين نتأملها نجد أنها توحي بمعان ومشاعر وأجواء فسيحة فوق دلالتها الأصلية مثل كلمة (النزل) التي استخدمت في بعض السياقات القرآنية في عكس ماوضعت له ، فالنزل مايعد للضيف النازل تكريماً ، ولكنها في هذا السياق ما أعد للكافر في جهنم من هوان .

أما شيوع هذا الأسلوب في الشعر العربي فأمر ظاهر لايخفى ، ويكفي تناول عصر من العصور الأدبية بالدرس لنكتشف هذا الشيوع ، وقد قام بعض الدارسين بإجراء دراسة تحليلية لهذا الأسلوب على الشعر الجاهلي ، فكان الشعراء الجاهليون يستعيرون الكأس في شماتة وتهكم لما يلقاه عدوهم من قتل وإيلام يذيقونه إياها ملئت مرة بالنار ومرة بالسم الناقع ، وهم إن لم يذكروا الكأس مستعارة ذكروا التصبيح ، فشبهوا غارة الصباح بخمر الصباح على سبيل التهكم والسخرية ، وكثيراً ماشبهوا العدو المغير بالضيف ، وعبروا عن التنكيل به بالقرى تهكماً .

ومن هذا النوع الاستعارة في الأعلام ، فالعلم إذا تضمن وصفاً معيناً بأن يكون صاحبه مشتهراً بوصف متى أطلق فهم منه هذا الوصف فإنه يجوز إجراء الاستعارة فيه ، كحاتم للجود ، وسحبان للفصاحة ، فتقول : جاء حاتم ، وأنت تقصد علياً ، فتستعير هذا العلم لتدعي لعلي مشابهة تلك الصفة التي اشتهر بها هذا العلم ، ولكن الكلام قد يعكس بقصد السخرية والتهكم .

ومن أساليب الاستعارة التي تأتي منها السخرية (الاستعارة التمثيلية) والاستعارة هنا في تركيب استعمل في غير ماوضع له لعلاقة المشابهة ، ووجه الشبه يكون هيئة منتزعة من عدة أمور تشكل صورة نسميها استعارة تمثيلية واستخدم هذا النمط من الاستعارة في السخرية كثيراً ، وشاع استعارة الأمثال بقصد التعليق الساخر على حادثة أو موقف ، أو التهكم بشخص أو الهزء به بقصد الشماتة أو غيرها .

وهناك لون آخر من ألوان الاستعارة تأتي منها السخرية تجري بين الأسماء التي تتحد أجناس مسمياتها كالشفة ، والمشفر ، والقدم ، والحافر ، والأظلاف والأظافر ، والتولب ، والولد ، والطلا وغير ذلك ، فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها في غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجاز به موضعه . ولايكون هذا النقل مفيداً إلا إذا قصد به غرض بلاغي كأن يكون هذا النقل من قبيل الذم والتهكم ، وقصد السخرية والتهكم في هذا النقل واضح لا لبس فيه ، ولكن جعل ذلك من الاستعارة فيه نظر ، وقد صعب ذلك حتى على عبدالقاهر الجرجاني فنراه يتردد بين أن يعده في الاستعارة أو لا .

والاستعارة الساخرة أسلوب رائق ورصين له أمثلة وشواهد في القرآن الكريم وكلام العرب وأشعارهم .

ومن الأساليب البيانية التي تأتي منها السخرية (الكناية) والكناية كما هو معلوم عدول عن لفظ إلى آخر يدل عليه ، وهو عدول لايعني إخفاء اللفظ أو ستره كلياً ، ولايعني أيضاً إبرازه واضحاً ، إنما يعني التحول عنه إلى غيره ، فيكون اختفاؤه بقدر يحتاج معه إلى شيء من التمعن والتدقيق .

وقد أجمع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، والهجاء والسخرية إنما تفضل وتقوى بالكناية والتعريض ، ذلك لاتساع الظن في التعريض وشدة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً وقبلته يقيناً في أول وهلة ، فكان كل يوم في نقصان .

وقد ذكر البلاغيون أن من الأغراض التي يعدل لأجلها من التصريح إلي الكناية قصد الذم وعدَّ بعضهم من فوائد الكناية القصد إلى الذم بلفظ ظاهره المدح وهذا باب عظيم من أبواب السخرية . وقد اشتهر عند العرب بعض الهجاء الذي قيل في ذم قبيلة فسارت تلك الألفاظ والأشعار الساخرة بين الناس فحفظوها ، ثم أخذوا يكنون عنها كلما أرادوا أن يسخروا أو يلمزوا أحداً من أفراد تلك القبيلة التي قيل فيها ذلك الهجاء ، من ذلك أن قريشاً لقبت (بسخينة) أما تميم فقد عيروا (بالشيء الملفف في البجاد) وشيوخ بني محارب يلقبون (بالضفادع) وهكذا سارت هذه التسمية فأصبح يكنى بها في مواقف السخر .

وقد عدَّ البلاغيون من فوائد الكناية التحرز من ذكر الفواحش السخيفة بالكنايات اللطيفة . وقد استعمل الشعراء وغيرهم كثيراً من الكنايات التي حاولوا باستخدامها أن يبتعدوا عن الفحش الظاهر ، فكنوا في سخرهم وهجائهم بألفاظ اشتهرت عندهم ، من ذلك أنهم كنوا عن المرأة الفاسدة (برقة الحافر) ويقولون (فلان يستفرخ في برجه) ويكنون عن الابن غير الشرعي (بابن مطفئة السراج) .

ومن الكنايات الساخرة ماجرى مجرى الأمثال ، وهذا كثير جارٍ في كلام العرب ، وأكثر أمثالهم الفصيحة على مجاري الكنايات .

ومن الكناية أن تكني عن اسم الرجل بالأبوة ، وربما استخدمت هذه الكنية للذم والتهكم كما في (أبي لهب) ، وكما كان يفعل بعض الشعراء حيث كان يحلو له أن يكني بعض خصومه بكنى يخترعها ويؤلفها بنفسه ليسخر منهم ، من ذلك أن المتنبي كان يكني كافور (بأبي البيضاء) وكان ابن الرومي يكني ابن بلبل (بأبي الصقر) وكان بعض الشعراء يعمد إلى طريقة طريفة في السخرية بكنية مهجوه حيث يعمد إلى هذه الكنية فيشوهها ، كما كان ابن الرومي يفعل مع أبي حفص الورّاق حيث كان يكنيه (بأبي حفصل) .

ننتقل بعد هذا إلى الفصل الثالث الذي يتناول السخرية في أساليب علم البديع ويشمل ثمانية مباحث ، أولها (الاستطراد الساخر) وهو فن دقيق المسلك ، يضفى على الكلام طرافة وجدة ، وينقل نظر المتلقي من معنى إلى آخر يلفته إليه التفاتا سريعاً يحقق به غرضاً ثم يعود به إلى ماكان فيه ، ويكون الاستطراد في المدح كما يكون في الهجاء ، ولكنه في الهجاء أشهر ، وهو باب واسع من أبواب السخرية وأسلوب فذ من أساليبها ، فعنصر المفاجأة والتحول السريع الذي يميز هذا الأسلوب له دور كبير في إضفاء القوة على سخرياته ، حيث يظهر الساخر في صورة المتعالي المترفع الذي لم يقصد إلى السخرية من خصمه قصداً حثيثا بل قعد الخصم في طريق قافيته ، ومما يزيد السخرية بهذا الأسلوب قوة التصريح باسم المهجو ، فكلما أمكن وضع هذا الاسم في القافية كان أحسن موقعا .

والمبحث الثاني من مباحث البديع الساخر (أسلوب المبالغة) وهي من الفنون التي كثر جدل النقاد والبلاغيين حولها ، فالناس فيها مختلفون . أما بالنسبة للمبالغة الساخرة فإن سبيل التهكم غالباً المبالغة في إظهار العيوب والنقائص ، وإن

مقام الهجاء والسخرية يستدعي توفير أشنع صفات الذم للمهجو حتى تكون السخرية أوجع ، وبمقياس المبالغة في ذكر صفات الذم تقاس السخرية علواً وإيجاعاً وقوة وإحكاما . وشأن السخرية مع المبالغة شأن بقية الفنون كالمديح والغزل . وغيرهما ، فكثير من المديح بعيد عن الحقيقة ، ولكنه صورة للنموذج الذي يتخيله الشاعر في ممدوحه الفاضل الكامل ، ويحاول الساخر أن يسلب كل المثل والقيم الكريمة الفاضلة في مهجوه راميا له بعيوب الدنيا كلها إن استطاع إلى ذلك سبيلا .

ومع اختلاف النقاد في نظرتهم إلى هذا الفن ، إلا أننا نجد أن كتب الأدب والنقد مليئة بالأمثلة التي إتخذت من المبالغة سبيلاً إلى السخرية ، بل إننا نجد بعض النقاد قد أفرد للمبالغة بابا أو فصلاً في مؤلف ، وكل هذا يدل على أن هذا الأسلوب شائع مشهور واسع الاستعمال في أدب العرب .

ولابد أن نشير إلى أن من المبالغات الساخرة ماهو مقبول ، ومنها ماهو مرفوض .

وننتقل إلى المبحث الثالث من مباحث البديع الساخر ، وهو (الهجاء في معرض المدح) وهو من مستخرجات ابن أبي الإصبع والفرق بينه وبين التهكم الاصطلاحي أن قرينة السخر فيه معنويه ، أما في التهكم الاصطلاحي فالقرينة لفظية . وهذا الأسلوب باب واسع من أبواب السخرية .

ويدخل فيه مايسمى (بتأكيد الذم بما يشبه المدح) وهو مصطلح بديعي يشتمل على ثلاثة أضرب ، أولها : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم ثابتة له ، بتقدير دخول صفة الذم في صفة المدح . والسبكي له في هذا الضرب نظر دقيق ، إذ يرى أن الاستثناء في هذا الضرب يقدر فيه الاتصال ، ولابد أن يكون

فيه مناسبة بين الخصلة المستثناة والخصال المحمودة . والتأكيد في هذا الضرب من وجهين ، وليس وجود الاستثناء شرطاً في تحقق ماهيته وإنما هو من جملة صور تحققه .

وثاني هذه الأضرب : أن يثبت للشيء صفة ذم تعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى .

وهناك ضرب ثالث ينسب لابن جابر الأعمى ، وهو أن تأتي بصفة ذم مثبتة ، ثم بصفة بعدها توهم رفع الذم ، ثم تعلق بها مايبين أنها ذم ، فتكون ذماً بعد ذم ، ومن الشراح من يرى أنه أبلغ من الأولين .

ويتضح جليا أن هذا الأسلوب من السخرية يعتمد على البناء اللفظي للنص الأدبي أكثر من اعتماده على أي شيء آخر ، ثم إن عنصر المفاجأة التي يحدثها ذلك الاستثناء غير المتوقع يجعل من تلك السخريات ذات وقع وأثر بعيد في النفس . ويعد التصرف والتلاعب بالألفاظ أمر رئيس في مثل هذه الأساليب البديعية التي تبعث على السخرية والهزء ، ومن العناصر الرئيسة أيضاً في هذا الأسلوب عنصر المفارقة والتناقض ، فبينما يريك الشاعر أنه يمدح إذا به يفاجئك بالهجو والسخر ، وبينما يستثني من صفة ذم أو مدح منفية صفة أخرى يظنها السامع مدحاً إذا به يأتي بذم على الذم القائم ، فالمفاجأة ، والتناقض ، والتلاعب بالألفاظ ، كلها عناصر رئيسة في تكوين هذا الأسلوب .

أما المبحث الرابع (فالإبهام الساخر) وله عدة تسميات ، ولكن تسميته بالإبهام أليق ، ومطابقة التسمية فيه لاتخفى على أهل الذوق ، والذي تخير هذه التسمية هو ابن أبي الاصبع . والأساس الذي يقوم عليه هذا الأسلوب هو الإبهام، بحيث يكون الكلام محتملاً للضدين وهما المدح والهجاء . ولكن مع

وجود هذا الاحتمال للغرضين إلا أن المقصود هو الهجاء والسخرية . والاحتمالان في هذا الأسلوب يستويان مالم ينظر إلى قرائن الأحوال والقائل والمقول فيه ، فإذا جرد من هذه القرائن كان احتماله للمعنيين على السوية . فالمدح لايكون الكلام فيه محتملاً للضد ، إذ لا حاجة للمادح لأن يبهم كلامه ، فالإبهام فيه قبيح ، أما الذي يهجو أو يسخر فإنه يحتاج في كثير من الأحيان إلى أن يبهم كلامه .

وأمثلة هذا الفن الساخر كثيرة ، إلا أن ابن حجه الحموي قلل منها ، حيث يرى أنه لم يتفق للمتأخرين ولا للسلف من قبل في هذا الإبهام غير البيت المتعلق بالخياط زيد والبيتين المتعلقين بالحسن بن سهل . ولكن ضياء الدين بن الأثير حين تناول الإبهام أورد له أمثلة كثيرة مع أنه قرر في بداية كلامه عنه أنه قليل الوقوع جدا إلا أنه عاد فقال : وكثيراً ماكان يقصد المتنبي هذا القسم في شعره ، وأكثر ماكان يستعمله في قصائده الكافوريات . والذي يظهر أن كثيراً من مدح المتنبي لكافور كان في حقيقته هجاءً ، لذلك كان المتنبي يقول « لو قلبت مدحي فيه كان هجاءً » .

وننتقل إلى المبحث الخامس وهو السخرية في (الهزل الذي يراد به الجد) وهو أن يقصد المتكلم ذم إنسان فيخرج الكلام مخرج الهزل المعجب والمجون المطرب . أما حقيقة هذا الأسلوب فليست مقصورة على ذم أو مدح أو غيرهما فأي غرض سلك به صاحبه مسلك الهزل والمجون يمكن أن يدخل في هذا الأسلوب . ومن هذه الأغراض التي يسلك بها صاحبها سبيل الهزل والمجون السخرية ، وهي غرض يناسبه الضحك والهزل والعبث ، فأبلغ الهجو ماخرج مخرج التهزل والتهافت ، وكثيراً مايلجأ الساخر إلى إضفاء جو من الفكاهة حول سخرياته . وأمثلة هذا الفن كثيرة في الشعر العربي تناولنا كثيراً منها بالتحليل .

أما المبحث السادس فهو (التجاهل الساخر) وتجاهل العارف قد يكون لغرض المدح أو الذم أو التوبيخ أو التعجب أو التقرير . . وحين يكون للذم

والسخرية ، يأتي قوياً حسناً ؛ لأن الكلام فيه أخرج مخرج التشكيك والتجاهل والتهافت والتهزل واعترض بين التصريح والتعريض .

وقد اختلف في تسمية التجاهل وتعريفه وحدِّه ، وهو عند العارفين بطرائق البيان من أشد أنواع الهجاء وأمضه ، لذلك كان استعماله في الهجاء والسخرية كثيراً عند الشعراء .

وننتقل إلى المبحث السابع وهو مايسمى (بالتهكم) والمقصود به التهكم الاصطلاحي أي الذي اصطلح علماء البلاغة على جعله أحد فنون البديع ، أما التهكم كظاهرة أسلوبية فهو موضوع بحثنا هذا ، أما في هذا المبحث البديعي فهو فن اجتمعت فيه عدة أساليب ، والتهكم عند البلاغيين الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير ، والبشارة في موضع التحذير ، والوعد في مكان الوعيد ، والعذر في موضع اللوم ، والمدح في معرض السخرية ، ونحو ذلك . ويبدو أن الأساليب الأربعة الأولى ترجع إلى أصل واحد وهو ما أسماه الزمخشري بالعكس في الكلام، أما المدح في معرض السخرية فهو فن من فنون البديع أفرد له باب مستقل من أبواب البديع .

ويبدو أن عقد البلاغيين للتهكم باباً ضمن أبواب البديع ، جمعوا فيه بين هذه الأساليب المتفرقة ، ناتج عن الشعور بأن التهكم أسلوب شائع يمكن أن يأتي من عدة فنون بلاغية ، وهذا يعزز الفكرة التي قام عليها هذا البحث .

ويعد من أوائل من أشار إلى مصطلح التهكم جارالله الزمخشري ، وإن كان ابن أبي الإصبع يرى أنه من مخترعاته ، وربما قصد أنه أول من أفرد له بابا في البديع ، أما أن يكون أول من فطن له فلا .

وآخر مباحث البديع الساخر (الاقتباس والتضمين) وقد كان كثير من الساخرين يلجئون إلى اقتباس أو تضمين بعض النصوص في هجائهم . واختلف في

جواز تغيير المقتبس إذا كان من القرآن الكريم ، ولا يخفى أن هذا النص المقتبس لايقصد به القرآن بل هو كلام كما يقول العلماء وجد نظمه في القرآن وأريد به غير القرآن ، فلو أخذ مراداً به القرآن الكريم كان ذلك من أقبح القبائح ومن عظائم المعاصي والذنوب ، فهو ليس بقرآن حقيقة بل كلام يماثله ، بدليل جواز نقله عن معناه الأصلي ، وذلك في القرآن لايجوز ، وقد أثر التغيير في كثير من النصوص القرآنية المقتبسة في شعر بعض الشعراء من الصحابة الأطهار وهم من هم في الورع والتقى .

والاقتباس قسمان مقبول ومردود ، فما كان في معنى هزل أو سخرية أو مجون أو نحو ذلك فإنه مردود ، وما كان غير ذلك مما لايتنافى مع جلال القرآن الكريم والسنة المطهرة وقدسيتهما فهو مقبول .

وقد شاع في بعض العصور المتأخرة استخدام المصطلحات العلمية واقتباسها في الشعر والكتابة شيوعاً قوياً ، ولابن سنان الخفاجي في تضمين هذه المصطلحات رأي وجيه غاب عن بعض الدارسين ، فابن سنان لم يرفض تضمين المصطلحات العلمية رفضاً مطلقاً ، بل عاب وضع هذه المصطلحات في غير موضعها ، والتكلف والإفراط في استعمالها ، ولكنه استحسن ماكان من هذا التضمين خارجاً مخرج الهزل والسخرية والمجون ، فهذا النوع إذا استعمل على الوجه المرضي كان حسنا ، وإذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحاً .

والتضمين فن بديع وأسلوب جميل من الأساليب التي تأتي منها السخرية حيث يوظف الساخر الموهوب تلك النصوص المضمنة في السخرية بخصومه فيستعين بما لها من شهرة وأثر في النفوس حتى تكون سخريته قوية ومؤثرة .

وبنهاية هذا المبحث ينتهي الفصل الثالث من هذا البحث وينتهي الحديث عن أساليب السخرية في البلاغة العربية ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

المصادر والمراجع

(أ)

- **ابن الرومي حياته من شعره** ، عباس محمود العقاد . بيروت : المكتبة العصرية ، ١٤٠٢ هـ .

- **ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره** ، إيلياحاوي . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٠م .

- **أبو الشمقمق شاعر الفقر والسخرية** ، د. محمد سعد الشويعر (ط٢) دار العلوم ، ١٤٠٣ هـ .

- **الاتجاه الساخر في أدب الشدياق** ، د. شوقي محمد المعاملي . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٧ م .

- **اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري** ، قحطان رشيد التميمي . بيروت : دار المسيرة .

- **الإتقان في علوم القرآن** ، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، تقديم وتعليق د. مصطفى ديب البغاة (ط ١) . دمشق : دار ابن كثير ، ١٤٠٧ هـ .

- **أخبار أبي تمام** ، أبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، حققه وعلق عليه خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي، قدم له د. أحمد أمين . بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع .

- **أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق** ، لأبي بكر محمد بن يحيى بن عبدالله الصولي ، عني بجمعه ج . هيوارث دن .

- **أدبنا الضاحك** ، عبدالغني العطري ، ط ٢ ، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٤١٢ هـ .

- **الإشارات والتنبيهات في علوم البلاغة** ، محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق د . عبدالقادر حسين . القاهرة : دار نهضة مصر .

- **أساس البلاغة** ، جارالله محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق عبدالرحيم محمود . بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٢ هـ .

- **أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي** ، د. حسني عبدالجليل يوسف . القاهرة: دار الثقافة .

- **أساليب الاستفهام في القرآن الكريم** ، عبدالعليم السيد فودة . القاهرة : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

- **الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية** ، د. عبدالعزيز أبوسريع ياسين (ط١) . القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٤١٠ هـ .

- **الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم** ، د. صباح عبيد دراز ، (ط ١) . مصر : مطبعة الأمانة ، ١٤٠٦هـ .

- **أساليب النفي في القرآن الكريم** ، د. أحمد ماهر البقري (ط ٢) ، دار المعارف ، ١٩٨٤م .

- **أسرار البلاغة** ، الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق هـ . ريتر (ط ٢) . القاهرة : مكتبة المتنبي ، ١٣٩٩ هـ .

- **أسرار البلاغة** ، عبدالقاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر (ط ١) ، دار المدني ، ١٤١٢ هـ .

- **أسلوب السخرية في القرآن الكريم** ، د. عبدالحليم حفني . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

- **الأسلوب الكنائي نشأته تطوره بلاغته** ، د. محمود السيد شيخون (ط ١) القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٩٨هـ .

- **الإصابه في تمييز الصحابة** ، شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلاني ، (ط ١) . مصر : مطبعة السعادة ، ١٣٢٨ هـ .

- **الأعلام** ، خير الدين الزركلي (ط ٤) . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩ م .

- **الأغاني** ، لأبي الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، خرج بإشراف محمد أبوالفضل إبراهيم . بيروت : مؤسسة جمال للطباعة والنشر .

- **أمالي المرتضى (المسمى درر الفوائد وغرر القلائد)** للشريف المرتضى ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ .

- **الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال** ، مطبوع ضمن تفسير الكشاف ، للإمام ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري المالكي .

- **أنوار الربيع في أنواع البديع** ، السيد على صدر الدين بن معصوم المدني ، حققه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر (ط ١) . كربلاء : مكتبة العرفان .

- **الإيضاح** (ضمن شروح التلخيص) للإمام الخطيب القزويني .

(ب)

- **البديع** ، عبدالله بن المعتز ، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس إغناطيوس كراتشقوفسكي ، (ط ٣) . بيروت : دار المسيرة ، ١٤٠٢هـ.

- **البديع في البديع في نقد الشعر** ، أسامة بن مرشد بن على بن منقذ ، حققه وقدم له عبد آ . علي مضا ، ط ١ . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧ هـ .

- **البديع من المعاني والألفاظ** ، د. عبدالعظيم المطعني (ط ٣) . مكة المكرمة : المكتبة الفيصلية ، ١٤١٠هـ .

- **البرهان في علوم القرآن** ، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم . بيروت : دار المعرفة .

- **البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن** ، كمال الدين عبدالواحد الزملكاني ، تحقيق د. خديجة الحديثي ، ود. أحمد مطلوب ، (ط ١) . بغداد : مطبعة العاني ، ١٣٩٤ هـ .

- **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة** ، عبدالمتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب .

- **البلاغة الاصطلاحية** ، د. عبده عبدالعزيز قلقيلة . القاهرة : دار الفكر ، ١٤٠٦هـ .

- **بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني** ، السيد عبدالرحيم عطية . القاهرة : السلام العالمية للطباعة والنشر .

- **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية** ، د. محمد محمد أبوموسى ، (ط ٢) . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤٠٨ هـ .

- **بيان إعجاز القرآن** (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) أبوسليمان حمد ابن محمد بن إبراهيم الخطابي ، تعليق محمد خلف الله ، د. محمد زغلول سلام (ط ٤) . القاهرة : دار المعارف .

- **البيان والتبيين** ، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، (ط ٥) . القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤٠٥هـ .

(ت)

- **تأويل مشكل القرآن** ، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، شرحه ونشره السيد أحمد صقر (ط ٢) القاهرة : دار التراث ، ١٣٩٣هـ.

- **تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها** ، أحمد مصطفى المراغي (ط ١) . القاهرة : مطبعة البابي الحلبي ، ١٣٦٩هـ .

- **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن** ، ابن أبي الإصبع المصري . تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف ، الجمهورية المتحدة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي .

- **التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان** ، د. محمد أبوموسى ، (ط ٢). القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤٠٠ هـ .

- **التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية** ، د. شفيق السيد ، (ط ٣) . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٤٠٩ هـ .

- **التعريفات** ، الشريف على بن محمد الجرجاني ، (ط ١) . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ .

- **تفسير أبي السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم** ، أبوالسعود محمد بن محمد العمادي . بيروت : دار إحياء التراث العربي .

- **تفسير البحر المحيط** ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ، (ط ٢) . بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٣٩٨هـ .

- **تفسير التحرير والتنوير** ، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور . تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ م .

- **تفسير القرآن العظيم** ، للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي . طبع بدار إحياء الكتب العربية .

- **التفسير الكبير** ، محمد بن عمر الفخرالرازي (ط ٣) . بيروت : دار إحياء التراث العربي .

- **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** ، جارالله محمود بن عمر الزمخشري . بيروت : دار المعرفة .

- **تفسير النهر الماد من البحر** ، ضمن **البحر المحيط** ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ، (ط ٢) . بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٣٩٨هـ .

- **التكرير بين المثير والتأثير** ، د. عزالدين على السيد ، (ط ١) . القاهرة : دار الطباعة المحمدية .

- **تهذيب التهذيب** ، شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلاني ، (ط١). دار الفكر ، ١٤٠٤ هـ .

(ج)

- **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع** ، أحمد الهاشمي ، (ط ١٢) . بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٦ هـ .

- **جوهر الكنز « تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة »** ، نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالاسكندرية .

(ح)

- **حاشية الدسوقي على مختصر السعد على تلخيص المفتاح** (ضمن شروح التلخيص) محمد بن عرفه الدسوقي . بيروت : دار الكتب العلمية .

- **حاشية السيد على المطول** ، السيد الشريف على بن محمد بن على الجرجاني . دار السعادة ، ١٣١٠هـ .

- **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة عناية القاضي ونهاية الراضي** . بيروت : دار صادر .

- **حسن التوسل إلى صناعة الترسل** ، شهاب الدين محمود الحلبي ، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف . بغداد : دار الحرية للطباعة ، ١٤٠٠هـ .

- **حصاد الهشيم** ، إبراهيم عبدالقادر المازني . القاهرة : مطابع دار الشعب .

- **الحماسة** ، أبوتمام حبيب بن أوس الطائي ، تحقيق د. عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان . الرياض : أشرف على طبعه ونشره إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠١هـ .

- **الحيوان** ، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون . بيروت : دار إحياء التراث العربي .

(خ)

- **خزانة الأدب وغاية الأرب** ، تقي الدين أبوبكر علي المعروف بابن حجة الحموي ، شرح عصام شعيتو ، (ط ١) . بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ١٩٨٧ م .

- **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** ، عبدالقادر بن عمر البغدادي ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون . القاهرة : مكتبة الخانجي .

- **خصائص التراكيب ، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني** ، د. محمد أبوموسى، (ط ٢) . القاهرة : مكتبة التضامن ، ١٤٠٠ هـ .

- **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية** ، د. عبدالعظيم إبراهيم محمد المطعني ، (ط ١) . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤١٣ هـ .

(د)

- **دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت** ، دراسة تحليلية لحياته وشعره ، د. عبدالكريم الأشتر . دمشق : دار الفكر ، ١٩٦٤ م .

- **دلائل الإعجاز** ، عبدالقاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، (ط ٢) . القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤١٠هـ .

- **دلالات التراكيب دراسة بلاغيه** ، د. محمد محمد أبوموسى ، (ط ٢) . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤٠٨هـ .

- **ديوان ابن الرومي** ، شرح وتعليق عبدالأمير على مهنا ، (ط ١) . بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ١٤١١هـ .

- **ديوان ابن الرومي** ، اختيار وتصنيف كامل كيلاني . مصر : المكتبة التجارية الكبرى .

- **ديوان ابن شهيد الأندلسي** ، جمعه وحققه يعقوب زكي ، وراجعه د. محمد على مكي . القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .

- **ديوان أبي تمام** ، شرح الإمام أبوزكريا يحيى بن على الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، (ط ٥) . القاهرة : دار المعارف .

- **ديوان أبي الطيب المتنبي ، بشرح أبي البقاء العكبري المسمى (التبيان في شرح الديوان)** ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبدالحفيظ شلبي ، (ط الأخيرة) ، دار الفكر .

- **ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ** ، حققه وضبطه وشرحه أحمد عبدالمجيد الغزالي . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٢ هـ .

– **ديوان امرئ القيس** ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ، (ط ٤) . القاهرة : دار المعارف .

– **ديوان البحتري** ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي ، (ط ٣) . القاهرة : دار المعارف .

– **ديوان البهاء زهير** ، شرح وتحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ، ومحمد طاهر الجبلاوي ، (ط ٢) . القاهرة : دار المعارف .

– **ديوان جرير** ، بشرح محمد بن حبيب ، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه ، (ط٣) . القاهرة : دار المعارف .

– **ديوان الحطيئة** ، برواية وشرح ابن السكيت ، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، (ط ١) . القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤٠٧ هـ .

– **ديوان ذي الرمة غيلان بن عقبة العدوي** ، بشرح أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي الأصمعي ، ورواية أبي العباس بن ثعلب ، حققه وقدم له وعلق عليه د. عبدالقدوس أبوصالح . بيروت : مؤسسة الإيمان ، ١٤٠٢ هـ .

– **ديوان عبيد ابن الأبرص** ، تحقيق وشرح حسين نصار . القاهرة : الحلبي ، ١٣٧٧هـ .

– **ديوان الفرزدق** ، قدم له كرم البستاني . بيروت : دار صادر .

– **ديوان القطامي** ، بتحقيق د. إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب . بيروت : دار الثقافة ، (ط ١) ، ١٩٦٠ م .

- **ديوان كعب بن زهير** ، صنعه الإمام أبي سعيد السكري ، شرح ودراسة د. مفيد قميحة ، (ط ١) . الرياض : دار الشواف ، ١٤١٠ هـ .

- **ديوان المعاني** ، أبوهلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ، عن نسخة الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي . عالم الكتب .

(ر)

- **الرسوم الساخرة في الصحافة (الكاريكاتور) دراسة تحليلية** ، سليمان بن محمد الشبانة . الرياض : شركة العبيكان للطباعة والنشر .

- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ، السيد محمود شكري الألوسي البغدادي (ط ٤) . بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٥ هـ .

- **روضة الفصاحة** ، زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي ، دراسة وتحقيق د. أحمد النادي شعلة (ط ١) ، دار الطباعة المحمدية ، ١٤٠٢هـ.

(ز)

- **زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع** ، الشيخ أحمد الحملاوي (ط ٧) . مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٩١هـ .

(س)

– **السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري** ، د. نعمان محمد أمين طه ، (ط ١) . القاهرة : دار التوفيقية ، ١٣٩٨هـ.

– **السخرية في أدب المازني** ، د. حامد عبده الهوال . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢م.

– **سر الفصاحة** ، أبومحمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ط١). بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢هـ .

(ش)

– **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، أبوالفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي . بيروت : منشورات دار الإقامة الجديدة .

– **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك** ، بهاء الدين على بن عقيل العقيلي المصري، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (ط ٢٠) . القاهرة : دار التراث ، رمضان ١٤٠٠ هـ .

– **شرح ديوان جميل بثينة** ، قدم له الأستاذ إبراهيم جزيني . بيروت : المؤسسة العربية للطباعة والنشر .

- **شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري** ، ضبط الديوان وصححه عبدالرحمن البرقوقي . بيروت : دار الأندلس .

- **شرح عقود الجمان** ، عبدالرحمن بن عيسى بن مرشد العمري المعروف بالمرشدي (ط ٢) . مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٧٤هـ .

- **شروح التلخيص** . بيروت : دار الكتب العلمية .

- **شعر دعبل بن على الخزاعي** ، صنعه د. عبدالكريم الأشتر . دمشق : المجمع العلمي العربي .

- **شرح المطول** ، للملا عبدالحكيم بن شمس الدين الهندي السيالكوتي (ط قديمة) بتصحيح الحاج محمد الطرنوي المشتهر بقرازادة . اسلانبول : مطبعة الحاج محرم أفندي ، ١٣٠١هـ .

- **شرح المعلقات السبع** ، أبوعبدالله الحسين بن أحمد الزوزني . بيروت : مكتبة المعارف، ١٤٠٨هـ .

- **شعر النابغة الجعدي** ، جمعه عبدالعزيز رباح . دمشق : منشورات المكتب الاسلامي (ط ١) ، ١٣٨٤هـ .

(ص)

- **الصاحبي** ، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، بتحقيق السيد أحمد صقر . القاهرة : طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- **الصبغ البديعي في اللغة العربية** ، د. أحمد إبراهيم موسى . القاهرة : دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٨هـ .

- **الصناعتين الكتابة والشعر** : أبوهلال الحسن بن عبدالله العسكري ، حققه وضبط نصه د. مفيد قميحة (ط ٢) . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٤ هـ .

- **الصورة بين البلاغة والنقد** ، أحمد بسام ساعي . بيروت : دار المنارة ، ١٤٠٤هـ .

(ض)

- **الضحك** ، بحث في دلالة الضحك ، هنري برجسون ، ترجمة د. سامي الدروبي ، ود. عبدالله عبدالدائم (ط ٢) . دمشق : دار اليقظة العربية ، ١٩٦٤م .

(ط)

- **طبقات الشافعية الكبرى** ، تاج الدين عبدالوهاب بن على بن عبدالكافي السبكي ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ، محمود الطناحي (ط١) . الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- **طبقات الشعراء** ، عبدالله بن المعتز ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (ط ٤) . القاهرة : دار المعارف .

- **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** ، يحي بن حمزة العلوي اليمني . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢هـ .

(ع)

- **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح** (ضمن شروح التلخيص) ، لبهاء الدين السبكي .

- **عقود الجمان في المعاني والبيان** ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ط ٢) . مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٧٤هـ .

- **علم البيان « دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية »** ، د. بدوي طبانة . بيروت : دار الثقافة ، ١٤٠١ هـ .

- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه** ، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق د. محمد قرقزان (ط ١) . بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٨هـ .

- **علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)** ، أحمد مصطفى المراغي (ط ٢) . بيروت : دار القلم ، ١٩٨٤م .

- **عيون الأخبار** ، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري . نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

(ف)

- **الفرج بعد الشدة** ، القاضي أبو على المحسن على التنوخي ، انتقاء وترتيب ودراسة د . محمد حسن عبدالله (ط ١) . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤١٣هـ .

- **فقه اللغة** ، لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي ، حققه ورتبه ووضع فهارسه مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبدالحفيظ شلبي ، (ط الأخيرة) . القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٩٢ هـ .

- **الفكاهة عند العرب** ، د . أنيس فريحة (ط ١) . بيروت : مكتبة رأس ، ١٩٦٢م .

- **فن الاستعارة « دراسة تحليلية في البلاغة العربية مع التطبيق على الأدب الجاهلي »** ، د . أحمد بن عبدالسيد الصاوي ، الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م .

- **فن التشبيه** ، علي الجندي (ط ٢) . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٨٦هـ .

- **فن الهجاء وتطوره عند العرب** ، إيلياحاوي . بيروت : دار الثقافة .

- **فنون التصوير البياني في البلاغة العربية** ، د. توفيق الفيل ، (ط ٢) . القاهرة : مكتبة الآداب ، ١٤١٢هـ .

- **فوات الوفيات** ، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (ذيل على وفيات الأعيان) حققه محمد محي الدين عبدالحميد . ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١م .

- **في ظلال القرآن** ، بقلم سيد قطب (ط ١٢) ، دار الشروق ، ١٤٠٦هـ .

(ق)

- **القاموس المحيط** ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة (ط ٢) . بيروت : دار الرسالة ، ١٤٠٧هـ .

- **قضايا الشعر المعاصر** ، نازك الملائكة ، (ط ٧) . بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٣ م .

(ك)

- **الكامل** ، أبوالعباس محمد بن يزيد المبرد ، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبوالفضل إبراهيم . القاهرة : دار الفكر العربي .

- **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس** ، للمحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ، أشرف على طبعه والتعليق عليه أحمد القلاش (ط ٤) . بيروت : مؤسسة الرسالة .

- **كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب** ، ضياء الدين أبوالفتح نصر الله ابن محمد ابن الأثير ، تحقيق نوري حموي القبسي وحاتم صالح الضامن وهلال ناجي . الموصل : جامعة الموصل .

(ل)

- **لسان العرب** ، أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور . دار الفكر .

(م)

- **المبالغة في البلاغة العربية تاريخها وصورها** ، عالي سرحان القرشي (ط١) . الطائف : النادي الأدبي ، ١٤٠٦هـ .

- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ، ضياء الدين بن الأثير ، قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة (ط ٢) . القاهرة : دار نهضة مصر .

- **مجمع الأمثال** ، أبوالفضل أحمد بن محمد الميداني ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم . طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- **مختصر السعد على تلخيص المفتاح** ، (ضمن شروح التلخيص) ، سعد الدين التفتازاني . بيروت : دار الكتب العلمية .

- **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، تصنيف أبي الحسن على بن الحسين بن على المسعودي ، وتحقيق وتعليق قاسم الشماعي (ط ١) . بيروت : دار القلم ، ١٤٠٨هـ .

- **مستتبعات التراكيب بين البلاغة القديمة والنقد الحديث** ، د. عبدالغني محمد بركة (ط ١) . القاهرة : دار الطباعة المحمدية ، ١٤٠٩هـ .

- **المستطرف في كل فن مستظرف** ، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي ، دار الفكر .

- **مسند الإمام أحمد** ، فهرست محمد ناصر الدين الألباني (ط ٥) بيروت ، دمشق : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٥ هـ .

- **المصباح في المعاني والبيان والبديع** ، بدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم ، حققه وشرحه ووضع فهارسه د. حسني عبدالجليل يوسف . ملتزم الطبع والنشر مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز .

- **المطول على تلخيص المفتاح** ، لمسعود بن عمر بن عبدالله مسعود ، الشهير بسعد الدين التفتازاني (ط أحمد كامل) ، ١٣٣٠هـ .

- **المعاني الثانية في الأسلوب القرآني** ، د. فتحي أحمد عامر . الإسكندرية : منشأة المعارف .

- **معاني القرآن** ، أبوزكريا يحيى بن زياد الفراء ، تحقيق أحمد نجاتي ومحمد علي النجار ، (ط ١) ، القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٧٤هـ .

- **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص** ، الشيخ عبدالرحيم بن أحمد العباسي ، حققه وعلق حواشيه وصنع فهارسه محمد محي الدين عبدالحميد . بيروت : عالم الكتب ، ١٣٦٧هـ .

- **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها** ، د. أحمد مطلوب . مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٣هـ .

- **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب** ، مجدي وهبة ، وكامل المهندس (ط ٢) . لبنان : مكتبة لبنان ، ١٩٨٤هـ .

- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** ، وضعه محمد فؤاد عبدالباقي (ط ١) . القاهرة : دار الحديث ، ١٤٠٧هـ .

- **معجم مقاييس اللغة** ، أبوالحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون . قم : دار الكتب العلمية .

- **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** : لطاش كبري زادة . القاهرة : دار الكتب الحديثة .

- **مفتاح العلوم** ، أبويعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن على السكاكي ، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور (ط١) . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ .

- **المفردات في غريب القرآن** ، أبوالقاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني . بيروت : دار المعرفة .

- **المفضليات** ، المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ، (ط ٦) ، بيروت .

- **مقطعات الحمدوني في الشاة والطيلسان** ، ضمن كتاب السخرية في الأدب العربي ، جمع د . نعمان محمد أمين طه .

- **من بلاغة القرآن** ، أحمد أحمد بدوي . القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

- **من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني** ، د . عبدالعزيز عبدالمعطي عرفه ، (ط ٢) . بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٥هـ .

- **المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء** ، أبو العباس أحمد بن محمد الجرجاني ، (ط ١) ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٦هـ .

- **من سمات التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم البيان** ، د . عبدالستار حسن زموط (ط ١) . القاهرة : مطبعة الحسين الإسلامية ، ١٤١٣هـ .

- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** ، أبوالحسن حازم القرطاجني ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، (ط ٣) ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٦م .

- **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح** (ضمن شروح التلخيص) ، ابن يعقوب المغربي .

- الموشح « **مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر** » ، أبوعبيدالله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، تحقيق على محمد البجاوي . القاهرة : ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي .

(ن)

- **نقد الشعر** ، أبوالفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى (ط ٣) . القاهرة : مكتبة الخانجي .

- **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز** ، فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، دراسة وتحقيق د. أحمد حجازي السقا (ط١) ، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع ، ١٩٨٩م.

- **النهاية في غريب الحديث لابن الأثير** ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي ، بيروت : المكتبة العلمية .

(هـ)

- **الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية** ، د. عباس بيومي عجلان . الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٥م .

- **الهجاء والهجاءون في الجاهلية** ، د. محمد محمد حسين (ط ٣) . بيروت : دار النهضة العربية ، ١٣٨٩هـ .
- **الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام** ، د. محمد محمد حسين (ط ٢) . بيروت : دار النهضة العربية ، ١٣٨٩هـ .

(و)

- **الوساطة بين المتنبي وخصومه** ، للقاضي على بن عبدالعزيز الجرجاني ، تحقيق وشرح محمد أبوالفضل وعلى محمد البجاوي . طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

(ي)

- **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر** ، لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ، بتحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الفكر .

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الفصل الثالث

السخرية في أساليب علم البديع